

مؤسسة الدليل للدراسات و البحوث العقدية

إصدارات مؤسسة الدليل - الكتاب 1

نهاية حلم

وهم الإله

الأستاذ الدكتور أيمن المصري



نهاية حلم

(وهم الإله)

المنطق سوف يأخذك من ألفٍ إلى باءٍ

والخيال سوف يأخذك إلى أيّ مكان

ألبرت إينشتاين

نهاية حلم (وهم الإلٰه)

الدكتور أيمن المصري



مؤسسة الدليل

للدراسات والبحوث العقدية

Al-Daleel Foundation

for Doctrinal Studies

http://aldaleel-inst.com

www.facebook.com/aldaleel.inst

بطاقة المؤلف



الاسم: أيمن عبد الخالق

ولد في مصر عام 1955

الشهادات العلمية

* بكالوريوس في الطب / جامعة القاهرة
* تخصص في الأمراض الباطنية / جامعة بون - ألمانيا
* دكتوراه في الفلسفة الإسلامية / الجامعة الأمريكية - لندن

الوظائف التي شغلها

* عضو المجلس العلمي في مؤسسة الدليل
* أستاذ في الفلسفة الإسلامية وعضو هيئة علمية في جامعة المصطفى العالمية
* أستاذ السطح العالي في الفلسفة الإسلامية بالحوزة العلمية
* رئيس أكاديمية الحكمة العقلية

أهم المؤلفات

* أصول المعرفة والمنهج العقلي
* منتهى المراد في علم أصول الاعتقاد
* كيف نبدأ مسيرتنا
* تطور الفلسفة الإسلامية
* أصالة الماهية أو الوجود بين السيد الداماد والملا صدرا (رسالة دكتوراه)
* النظام السياسي المقارن
* الصحة العقلية
* العقل بين المقاومة والاستسلام

هويّة الكتاب

اسم الكتاب: نهاية حلم (وهم الإله)

المؤلّف: الدكتور أيمن المصري

المراجعة العلميّة: المجلس العلمي في مؤسسة الدليل

التقويم اللغويّ: علي گيم

تصميم الغلاف: حسين علي حسين

الإخراج الفنّيّ: حسين المالكي

الطبعة: الأولى

سنة النشر: 2017

الناشر: مؤسّسة الدليل للدراسات والبحوث العقديّة



http://aldaleel-inst.com
www.facebook.com/aldaleel.inst

قائمة المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المؤسّسة

التاريخ البشريّ بكلّ مراحله يشهد بأنّ الإنسان ما أنفكّ عن الإيمان بعالم ما وراء الطبيعة وبوجود إلٰهٍ خالقٍ لهٰذا الكون، فهو متديّنٌ في كلّ الظروف، ورغم كلّ المتغيّرات الّتي تحدث على الأصعدة كافّةً وباستمرارٍ. وقد تواترت الأخبار جيلًا عن جيلٍ بأنّ هناك رسلًا وأنبياء وأوصياء مؤيّدين بمعاجز وكراماتٍ خارقةٍ تؤكّد ارتباطهم الوثيق بعالم ما وراء الطبيعة، وقد أثار هٰؤلاء المخلَصين من العباد دفائن العقول، وأرشدوها إلى وجود إلٰهٍ واحدٍ خالقٍ لهٰذا الكون، يتّصف بأوصافٍ خاصّةٍ، ولو أن الإنسان عاد إلى عقله الفطريّ وقوانينه الطبيعيّة لاهتدى إليه دون عناءٍ أو تكلّفٍ. ولأنّه ـ تعالى شأنه ـ يتّصف بأوصافٍ خاصّةٍ جعلته أهلًا للعبادة؛ فقد دعا هؤلاء الرسل والأنبياء والأوصياء إلى عبادته والالتزام بشرعه.

وفي قبال هذه النزعة الإنسانيّة المتأصّلة والمؤيّدة بكلّ ما جاء به الرسل والأنبياء وما سار عليه الصالحون من البشريّة جمعاء، فإنّ ثمّة ظاهرة تمرّدٍ تقف وراءها دوافع الشرّ في الإنسان، تظهر وتخبو بين الفينة والأخرى، وتتّخذ أشكالًا وعناوين مختلفةً داعيةً إلى نبذ الإيمان بالإلٰه

والتنكّر للأديان، واعتناق اللا دينيّة والإلحاد، ويحاول دعاة هذه الظاهرة في كلّ زمانٍ استغلال الوسائل المبهرة والمؤثّرة في واقع الناس وحياتهم، وتوظيفها لتدعيم مدّعياتهم والترويج لأوهامهم، من قبيل استغلال عامل السحر من قبل سحرة فرعون؛ كونه الأكثر تأثيرًا في نفوس المجتمع آنذاك للترويج لإلوهيّة الحاكم البشريّ، ونفي وجود إلٰهٍ سماويٍّ، وكذٰلك ما روي عن الزنادقة في العصر الإسلامي الّذين وظّفوا المهارات الخاصّة والجديدة آنذاك، كصناعة الجدل والمغالطة الّتي راجت في المجتمع الإسلاميّ أثناء عصر الترجمة في الحقبة العبّاسيّة وما بعدها؛ وذٰلك لإشاعة روح التمرّد على القيم الإنسانيّة والدينيّة، والدعوة إلى الإلحاد والزندقة.

ومع انبثاق عصر النهضة الأوربّيّة تصدّى بعض المفكّرين الغربيّين لغرس بذور الإلحاد ودسّها في المناهج التعليميّة، ومن أبرزهم دايفد هيوم وإمانوئيل كانط وجماعة فينا وراسل، واشتدّت ظاهرة الإلحاد في بدايات القرن العشرين عند تبلور الفكر الماركسيّ الّذي اعتمد المنهج الديالكتيكيّ الهيجليّ في تفسير الظواهر المجتمعيّة والطبيعيّة، وبنى نظامه السياسيّ والاقتصاديّ على أساسها، وقد تشكّلت فلسفتهم الوجوديّة بناءً على هٰذا المنهج الّذي عدّ العالم عبارةً عن ناتجٍ (سنتز) حاصلٍ من تفاعلاتٍ داخليّةٍ (تز وأنتي تز) في المادّة، وأصبح الإلحاد الماركسيّ في عشرينيّات القرن العشرين متمثّلًا رسميًّا بدولةٍ عظمى مترامية الأطراف اسمها (الاتّحاد

السوفيتيّ)، حيث رفع قادتها (لينين وستالين) شعار (الدين أفيون الشعوب) فيجب الخلاص منه، ومارسوا تحت هذا الشعار أبشع الجرائم بحقّ رجال الدين والمتديّنين، وقد تأثّر بهٰذا الفكر الإلحاديّ الكثير من المثقّفين في دول الشرق والغرب، بيد أنّ النتيجة الّتي انتهى إليها منهجهم وفكرهم العقيم في تسعينيات القرن العشرين كانت شللًا اقتصاديًّا تامًّا لدولة الاتّحاد السوفيتيّ، أتبعه انهيارٌ سياسيٌّ ومجتمعيٌّ، أدّى إلى تفكّك هٰذه الدولة العظمى وتحوّلها إلى دويلاتٍ ضعيفةٍ متفرّقةٍ. وقد شكّل هٰذا الحدث صدمةً قاسيةً على دعاة الإلحاد العالميّ، وانتهى بهم الأمر إلى الانزواء والتقوقع والانحسار لسنواتٍ.

واليوم ـ ونحن نعيش عصر الاكتشافات العلميّة الحديثة في كلّ المجالات، والتطوّر التكنولوجيّ الهائل، والبريق الّذي تحظى به العلوم الطبيعيّة بكلّ حقولها ـ نرى عودةً جديدةً لدعاة الإلحاد واللا دينيّة، متشدّقين بهٰذه الوسيلة المبهرة، يتمظهرون بثياب العلم، ويمتطون آلة التكنولوجيا؛ لإضفاء صفة العلميّة لمدّعياتهم، ويسعَونَ جاهدين لتصوير المعطى العلميّ التجريبيّ في الضدّ من المعطى الفلسفيّ والدينيّ، ويصرّون على أنّ العلم يناهض فكرة وجود الإله وما يتفرّع عنها، علمًا أنّ مسائل الميتافيزيقيا خارجةٌ موضوعًا ومنهجًا عن العلم الطبيعيّ، وقد وظّفوا بعض المنتسبين إلى التخصّصات العلميّة كالفيزياء وعلم الأحياء وغيرهما ممّن لديه موقفٌ سلبيٌّ تجاه الدين؛ لتدعيم فكرة الإلحاد علميًّا،

وقد تمّ تسويقهم على أنّهم يمثّلون وجهة نظر العلماء الطبيعيّين، والحال أنّهم يصادرون آراء الفئة العظمى من أهل هٰذه الاختصاصات الّذين صرّحوا بإيمانهم العميق بالغيب وبوجود إلٰهٍ عاقلٍ خالقٍ لهٰذا الكون. وقد جرت العادة على وجود من ينخدع وتنطلي عليه اللعبة، فقد انخدع بعض بهٰذه المسرحية الجديدة الّتي توهّم المتلقّي أنّه بين أمرين: إمّا أن يكون في قافلة العلميّين التقدّميّين وعليه أن يكون ملحدًا، وإمّا أن يكون ديّنًا وليس أمامه إلّا ركب المتخلّفين والجهلة، ومن الطبيعيّ أن يفضل الإنسان أن يكون مع العلماء لا مع الجهلة.

ومن هنا وجدت هذه الدعوة المصطبغة بلون العلم ورائحة التكنولوجيا طريقها إلى عقول بعض الشباب المثقّف والأكاديميّ، وساعد على ذٰلك طبيعة المنهج التعليميّ المدرسيّ المعتمِد بشكلٍ كاملٍ على المنهج الحسّيّ التجريبيّ الّذي نمت عقول المتعلّمين على مائدته؛ ولذا تعدّ المسائل المجرّدة عن الحسّ والمادّة بنظرهم مفرغةً من القيمة العلميّة؛ لأنّها تساوق الوهم والخيال بناءً على هذه النظرة، وبذٰلك أضاعوا أسس التفكير وقواعد العقل الفطريّ، ووقعوا في شرك الإلحاد.

ومن أشهر دعاة الإلحاد المعاصر عالم الأحياء البريطانيّ ريتشارد دوكنز، الّذي مارس التأليف والخطابة والمناظرات، وجاهر بمعاداته للدين ولفكرة الإلٰه، وطغى على أسلوبه طابع السخرية والتهكّم والاستفزاز؛ ولذا كان نقده يفتقر لأبسط المقوّمات العلميّة في نقاشاته

للأدلّة الفلسفيّة والرؤى الدينيّة، وله كتبٌ اشتهرت عناوينها من قبيل كتاب (صانع الساعات الأعمى)، وكتاب (الجين الأنانيّ)، وأكثرها شهرةً كتاب (وهم الإلٰه) (*The God Delusion*)، الّذي طبع منه ما يقرب عشرة ملايين نسخةٍ منتشرةٍ في أرجاء العالم، وترجم إلى لغاتٍ متعدّدةٍ؛ ولهٰذا اختارت مؤسّسة الدليل هٰذا الكتاب، وأوكلت مهمّة دراسته ونقده إلى أحد كوادرها البارزين وهو الأستاذ الدكتور (أيمن المصري) المتخصّص بالعلوم العقليّة ليكشف للقرّاء الكرام مدى ضحالة هٰذا الفكر وسفاهة منطقه، فكان هٰذا الكتاب الّذي بين أيديكم الكريمة (نهاية حلم).

ولعلّ ما يميّز هٰذا الكتاب أنّه بدأ بتأصيل القواعد العقليّة الّتي يعتمدها بعد ذٰلك لنقد أوهام دوكنز بأسلوبٍ شيّقٍ في غاية الروعة والسلاسة، فكان حقًّا نهاية حلم دوكنز، عسى أن يفيق من ثمالته، وقد خضع هذا الكتاب لمراجعةٍ دقيقةٍ من قبل السادة أعضاء المجلس العلميّ الموقّر في المؤسّسة الّذين أضفوا عليه لمساتٍ مهمّةً.

ومؤسّسة الدليل للدراسات والبحوث العقديّة التابعة للعتبة الحسينيّة المقدّسة بكادرها العلميّ المميّز تعطي أولويّةً لمشروعها الفكريّ التأصيليّ الّذي يبدأ من كتابة منهج التربية الفكريّة للمستويات كافّةً؛ ليكون منطلقًا آمنًا لبناء الرؤية الكونيّة الحقّة، وأداةً فاعلةً في كشف المغالطات وفرز الخرافة عن الحقيقة، وقد اجتذبت المؤسّسة للنهوض بهٰذا المشروع الاستراتيجيّ العملاق كادرًا متخصّصًا بالعلوم العقليّة والنقليّة، نحرص

على وقته وأن لا ينشغل بمهاتراتٍ وسجالاتٍ هامشيّةٍ تستنزف طاقاته، بيد أنّ الضرورة تحتمّ علينا أحيانًا أن نعالج بعض ما يثار من شبهاتٍ، وما ينسج من خرافاتٍ قد توقع الناس في إرباكٍ معرفيٍّ نتيجة ضعف المقاومة وفقدان التسلّح الفكريّ لمجتمعاتنا.

فلا محيص من المواجهة لكلّ ما يستهدف النيل من الفكر الإنسانيّ الأصيل والدين الحق المتمثّل بمذهب أهل البيت عليهم السلام والذود عنه، وكشف الخداع الّذي يمارسه أعداء الفكر الإنسانيّ السليم والدين الحقّ، ووضع الخطط الكفيلة لمعالجة ما أفسدوه من عقائد الناس ودينهم.

صالح الوائلي

رئيس مؤسّسة الدليل للدراسات والبحوث العقديّة

24 أيّار 2017م

مقدّمة المؤلف

لا شكّ أنّ أيّ إنسانٍ عاقلٍ ينظر في نفسه أو في العالم من حوله، يدرك بأدنى تأمّلٍ أنّ كلّ شيءٍ قد تمّ إعداده بدقّةٍ عاليةٍ وعنايةٍ فائقةٍ على أحسن وجهٍ لاستقباله هنا، وكأنّ هٰذا العالم كان يعلم بقدومنا، وينتظر مجيئنا.

وقد أثبت علم التشريح (*Anatomy*) وعلم وظائف الأعضاء (*Physiology*) وعلم الأحياء (*Biology*) وغيرها من العلوم الطبّيّة والحيويّة، أنّ جسم الإنسان بما يتضمّنه من أعضاءٍ خارجيّةٍ وداخليّةٍ، وأنسجةٍ وخلايا، ووظائف بيولوجيّةٍ يقوم بها بنحوٍ تلقائيٍّ بدقّةٍ متناهيةٍ، وبنحوٍ منسجمٍ ومتناسقٍ في كلّ آنٍ؛ لحفظ وتطوير حياة الإنسان في هٰذا العالم، قد تمّ صنعها وتصميمها بنحوٍ يُحيّر العقول والألباب، وقد وضع هٰذا الجسم العجيب والمقتدر كآلةٍ تحت تصرّف الإنسان وقدراته العقليّة الفائقة؛ ليحرّكه كيفما شاء وأنّى شاء باختياره وإرادته الحرّة، ليكتسب من خلاله شتّى ألوان العلم والمعرفة، ويحقّق بواسطته كلّ ما يحتاجه من كمالاتٍ مادّيّةٍ ومعنويّةٍ في هٰذه الحياة الدنيا.

كما أثبتت الفيزياء (*Physics*) وعلم الفلك (*Astronomy*)، أنّ جميع الأشياء التي تحيط بالإنسان في هٰذا العالم من أرضٍ وماءٍ وهواءٍ ونباتٍ وحيوانٍ ونجومٍ وكواكب، قد تمّ تصميمها بدقّةٍ عاليةٍ وعنايةٍ عظيمةٍ يعجز العقل عن إدراكها ـ فضلًا عن استقصائها ـ بنحوٍ يتناسب تمامًا مع حياة الإنسان الطبيعيّة على ظهر هٰذا الكوكب، بحيث لو اختلّ أحد هٰذه القوانين الطبيعيّة لتعسّرت حياة الإنسان في هٰذا العالم، بل لتعذّرت.

وهٰذه كلّها آياتٌ باهرةٌ وأدلّةٌ ساطعةٌ على وجود مهندسٍ حكيمٍ عليمٍ قديرٍ، وبالإنسان رؤوفٍ رحيمٍ، خلق هٰذا الكون بعلمه وقدرته، وصمّمه بحكمته وعنايته.

ومن البدهيّ أنّ هٰذا المهندس الإلٰهيّ البارع الحكيم لم يخلق الإنسان ولم يسخّر له ما في السماوات والأرض لهوًا وعبثًا، وإنّما لحكمةٍ بالغةٍ، ألا وهي استكمال الإنسان باختياره في هٰذه النشأة الطبيعيّة الأولى، من خلال طبيعة مواجهاته مع كلّ المتغيّرات الّتي تدور من حوله، وابتلائه بالخير والشرّ؛ لينظر ـ تعالى ـ إليه كيف يعمل في كلّ أحواله تحت الظروف المختلفة؛ ليحاسبه بعد ذٰلك في نشأةٍ أخرى على كلّ ما اكتسبته يداه من الصالحات أو السيّئات.

ومن الواضح أنّ هٰذه الدار بما فيها من تقلّب الأحوال، والخير والشرّ، وانتهائها بالموت، ليست دار قرارٍ وبقاءٍ واستقرارٍ، ومن العبث

الّذي يتنزّه عنه الحكيم أن تكون هٰذه الحياة بلا غايةٍ، أو تكون نهاية المسار، وانقطاع الأدوار، بل هي بلا شكٍّ مقدّمةٌ لحياةٍ أخرى بعدها يكون فيها الحساب والجزاء، حياةٍ ثانيةٍ يتحمّل فيها الإنسان المختار مسؤوليّة أفعاله في هٰذه الدار، حيث يثاب المحسن على إحسانه ويعاقب المسيء على إساءته، ولتجزى كلّ نفسٍ ما عملت.

وقد أدرك معظم الناس ـ الخواصّ منهم والعوامّ، المؤمنون منهم والوثنيّون، المتديّنون واللا دينيّون، في كلّ زمانٍ ومكانٍ، وعلى مرّ الدهور والأيّام ـ هٰذه الحقيقة الساطعة المتمثّلة في وجود هٰذا المبدإ الإلٰهيّ الحكيم، حتّى لقد دفع غلبة وجوده وسلطانه القاهر على العقول والنفوس أن أنكرت طائفةٌ من الناس ممّن يُعرفون بالصوفيّة والعرفاء وجود غيره من الموجودات، وتفرّده ـ تعالى ـ بالوجود، وأنّه ليس في الدار غيره ديّار.

ولم يكتف هٰذا المبدأ الإلٰهيّ الحكيم بظهوره بآياته في عقول الناس وقلوبها، بل أرسل إليهم على مرّ العصور بلطفه وعنايته آلاف الرسل والأنبياء الصادقين من صفوة خلقه مبشّرين ومنذرين؛ ليذكّروا الناس بنعمه وآلائه، حاملين معهم كتبه وبيّناته الّتي تمثّل في الواقع منشور العيش الكريم والحياة السعيدة.

ولٰكن مع كلّ هٰذه الآيات البيّنات فقد شذّت طائفةٌ قليلةٌ من الناس منكرةً وجود هٰذا المبدإ الإلٰهيّ العظيم، صادمةً للبشريّة في عقلها

ووجدانها، بعد أن أغمضت عيونها، وعطّلت عقولها، متشبّثةً بشبهاتٍ هي أوهن من بيت العنكبوت.

والأعجب من ذٰلك كلّه أنّ هٰؤلاء الملحدين مع مخالفتهم الصريحة لضروريّات العقل والعلم، ولجمهور الفلاسفة والحكماء، ولأكثريّة كبار العلماء النابغين المعاصرين من الفيزيائيّين والبيولوجيّين، والأطبّاء الحاصلين على جوائز نوبل وغيرها، نجدهم يرفعون شعار العقل والعقلانيّة، ويعدّون أنفسهم من أتباع المنهج العلميّ، ويسعون لأن ينسبوا الإلحاد إلى كبار الفلاسفة والعلماء، كما ينسبون الدين إلى الجهلة والسفهاء.

وقد كنت في الماضي ـ لكثرة مشاغلي ـ أضنّ بوقتي عن أن أكتب كتابًا للردّ على مذهب الإلحاد *(Atheism)*؛ نظرًا لضعف مطالبهم، ووهن شبهاتهم وقلّة خطرهم على المجتمع البشريّ، مع وجود الكثير من العلماء والمفكّرين الّذين ردّوا على شبهاتهم، وأبانوا عن مواضع مغالطاتهم، سواءٌ من المؤمنين[1]، أو من كبار الملحدين الّذين خرجوا من نفق الإلحاد المظلم، وعادوا إلى نور الإيمان[2]، من أمثال سير أنتوني فلو *(Antony Flew)*،

---

(1) راجع كتاب وهم الإلحاد، د.عمرو شريف.

(2) راجع كتاب رحلة عقلٍ، د. عمرو شريف.

والدكتور مصطفى محمود، والدكتور عبد الوهاب المسيري، وغيرهم من المستبصرين.

ولٰكنّي قد لاحظت في السنوات الأخيرة، لا سيّما بعد فشل ما يسمّى بالإسلام السياسيّ في العديد من البلدان العربيّة، وظهور الحركات الدينيّة المتطرّفة، والسلوك الشائن والانتهازيّ لبعض العلماء المنتسبين للدين، أنّ الكثير من الشباب الحائر بدؤوا يخرجون من الدين، ويتّجهون إلى الإلحاد بدوافع نفسانيّةٍ محضةٍ ولردّة فعلٍ على كلّ ذٰلك كما هو في الغالب، أو لشبهاتٍ قد عرضت لهم من الملاحدة من خلال مواقع التواصل الاجتماعيّ، مع فقدان المناعة الفكريّة لديهم، وغلبة الاتّجاه الحسّيّ عليهم؛ نظرًا لأسبابٍ كثيرةٍ سنتعرّض لذكرها في طيّات البحث إن شاء الله تعالى.

ومن هنا بدأت أشعر بالمسؤوليّة الفكريّة والأخلاقيّة الكبيرة تجاه الإنسانيّة والمجتمع البشريّ، وتجاه الخالق الحكيم، فانبعثت همّتي للردّ على الإلحاد والملحدين؛ من أجل تنبيههم على تهافت مطالبهم، وضعف مبانيهم ومنطلقاتهم، ولم يكن ذٰلك منّي بدافع الجدل والغلبة والاحتجاج، بل بدافع الشفقة عليهم والإرشاد؛ إذ أعتقد أنّ الأكثريّة الغالبة منهم هم ضحايا للمنهج التعليميّ اللا عقلانيّ، والثقافة الغربيّة المادّيّة الّتي تشعشعت في عقولهم وقلوبهم، وبسبب الكثير من التعصّبات المتطرّفة، والتصرّفات السيّئة والقبيحة ممّن ينسبون أنفسهم إلى الدين ظلمًا وزورًا من أدعياء العلم والفقاهة.

وقد كنت في البداية متردّدًا من أين أبدأ؟ وكيف أبدأ؟ حتّى لفت نظري كتابٌ لزعيم الملاحدة الجدد في القرن العشرين ريتشارد دوكنز (*Richard Dawkins*) والّذي سمّاه (وهم الإله *The God Delusion*).

وقد هالني ما سمعته من أنّ هٰذا الكتاب قد تمّ طبع ونشر ملايين النسخ منه بعشرات اللغات المختلفة[1]، وأنّه قد أصبح بالفعل إنجيل الملحدين وفخرهم، حيث زيّنوا به مواقعهم، واكتظّت به مواقع تواصلهم الاجتماعيّ، وأضحى معتمد احتجاجاتهم، وملهم أفكارهم.

الأمر الّذي حدا بي إلى قراءته، ودفعني لمطالعته واستقصاء مطالبه بدقّةٍ وتأمّلٍ، بدافع العلم والمعرفة أوّلًا، إذ إنّ شيمة الباحثين عن الحقّ والحقيقة هو الاتّصاف بالموضوعيّة والإنصاف، والحكمة ضالّة المؤمن العاقل أينما وجدها أخذها، وثانيًا لأقوم بتكليفي العقليّ والأخلاقيّ في مواجهة وتقويم أيّ انحرافٍ فكريٍّ أجده بعيدًا عن الواقع في هٰذا الكتاب؛ من أجل تنبيه الغافلين، وتوجيه المسترشدين، واستنقاذ الملايين من الشباب الحائر من الوقوع في هاوية الإلحاد، والتردّي في نفقه المظلم.

وقد كنت في أثناء مطالعتي للكتاب، وتقييمي العلميّ لمطالبه الفكريّة، أبحث أحيانًا عن سبب انتشاره الواسع بين الناس في الشرق

(1) ويكيبيديا ـ الموسوعة الحرّة.

والغرب، إذ ينبغي أن يكون هناك سرٌّ يكمن وراء ذٰلك الانتشار.

وقد كنت أتوقّع من مصنّف هٰذا الكتاب لكونه عالمًا كبيرًا محترمًا في علم الأحياء، ورمزًا فكريًّا شهيرًا لملايين الملحدين، أن يسلك المنهج العقليّ المنطقيّ، أو المنهج العلميّ الموضوعيّ في إثبات مطالبه وتقريرها، أو في إبطال مطالب خصومه وتفنيدها، ولٰكنّه لم يفعل للأسف، إذ اعتمد بكثافةٍ في أغلب فصول الكتاب المنهج الخياليّ الدراميّ الهزليّ في تشويه خصومه من المتدينيّن، وإظهار الاضطهاد والمظلوميّة، ونقل القصص والطرائف المتنوّعة، واستثارة عواطف القارئ ومشاعره، ثمّ استعمل المنهج المغالطيّ السفسطائيّ في إثبات آرائه، والردّ العشوائيّ على معتقدات المتديّنين، وبنحوٍ يفتقر إلى أدنى معايير المنطقيّة العلميّة أو الموضوعيّة، وكأنّ غاية الكاتب هي فرض الإلحاد على عقول الناس ونفوسهم بأيّ قيمةٍ أو مبدإٍ. وقد بيّنت كلّ ذٰلك في مطاوي انتقادي للكتاب.

ومن أجل أن يكون نقدي للكتاب نقدًا علميًّا منطقيًّا، بعيدًا عن المهاترات والمجادلات العقيمة، فقد صدّرت كتابي هٰذا بمقدّمةٍ علميّةٍ تمهيديّةٍ مختصرةٍ عن قواعد التفكير المنطقيّ الصحيح، وفلسفة الوجود، وفلسفة العلم، بالإضافة إلى فلسفة الدين والأخلاق؛ لتكون المبادئ الأصليّة الّتي سنعتمد عليها في نقد مطالب الكتاب، وليكون قارئ الكتاب على بصيرةٍ من أمره في التعرّف على المسارات الفكريّة الطبيعيّة

والواقعيّة الّتي ينبغي أن يسلكها الباحث عن الحقيقة وسط هٰذا الركام الفكريّ الهائل والمتراكم؛ إذ إنّ مقتضى الحكمة هو تقديم التأصيل العلميّ على النقد؛ ليقوم النقد على أسسٍ منطقيّةٍ علميّةٍ، لا على أسسٍ خطابيّةٍ خياليّةٍ سفسطائيّةٍ، كما فعل ريتشارد دوكينز في كتابه.

ثمّ ختمت التمهيد بعد ذٰلك بنبذةٍ مختصرةٍ عن الكاتب والكتاب.

وفي الختام نسأل الله العليّ القدير أن يصحّح نيّاتنا، ويعصمنا من الزلل، ويثبّتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، إنّه نعم المولى ونعم النصير.

تمهيد

الأصل الأول: فلسفة التفكير الصحيح (*Correct Thinking Philosophy*):

تعريف التفكير (*Thinking*): يتميّز الإنسان عن سائر الكائنات الحيّة بتفكيره العقليّ، وقد استطاع من خلال اعتماده على هٰذا التفكير من تحقيق تطوّرٍ هائلٍ في كلّ شؤون حياته الفرديّة والاجتماعيّة على مرّ التاريخ، بينما ظلّت سائر الحيوانات والكائنات الأخرى كما هي في مأكلها ومشربها ومسكنها منذ آلاف السنين.

وقد عرّف إدوارد دي بونو (*Edward de Bono*) أحد أبرز علماء التفكير المعاصرين عمليّة التفكير بأنّها «**استكشافٌ مدروسٌ للخبرة بغية الوصول إلى الهدف، وهو إمّا تحقيق الفهم أو الحكم على الأشياء، أو حلّ المشكلات أو التخطيط واتّخاذ القرارات**»[1].

ونحن إذا أردنا أن نحلّل عمليّة التفكير بالوجدان والتأمّل العقليّ،

---

(1) التفكير والبحث العلميّ، ص 26.

فسنجد أنّها حركة الذهن من المعلومات الحاضرة في أذهاننا لاستكشاف المجهولات والتعرّف عليها، فهي في الواقع حركةٌ من المعلوم إلى المجهول.

وبناءً عليه فإنّه يصبح من الواضح أنّ المعلومات الّتي ينطلق منها الذهن في تفكيره ستكون الحجر الأساس الّذي نبني عليه تفكيرنا للوصول إلى النتائج المطلوبة، وبالتالي فإنّ صحّة النتائج الّتي نصل إليها أو سقمها يعتمد بصورةٍ كلّيّةٍ على صحّة تلك المعلومات الأوّليّة الّتي نطلق منها، أو سقمها.

أهمّيّة التفكير في حياة الإنسان: لا يخفى على أحدٍ أهمّيّة عمليّة التفكير في حياة الإنسان؛ إذ إنّ المنظومة الفكريّة للإنسان تتولّد من خلالها، وتتضمّن هٰذه المنظومة رؤيته النظريّة الكونيّة عن فلسفة الكون والحياة، والهدف من وجود الإنسان في هٰذا العالم، ومصيره بعد الموت، وما هو طريق الخير والسعادة، كما تتضمّن تلك المنظومة أيضًا رؤيته العمليّة عن القيم والمبادئ الأخلاقيّة والاجتماعيّة الّتي ينبغي أن يتحلّى بها الإنسان، ويلتزم بها في سلوكه وأفعاله، فهي الّتي تشكّل نمط حياته اليوميّة (*Life Style*)، ومن هنا فإنّ التفكير الصحيح يؤدّي إلى الفكر الصحيح والرؤية الواقعيّة والسعادة الحقيقيّة، على خلاف ما إذا كان التفكير خاطئًا، فإنّه يجلب على صاحبه الحيرة والتعاسة والشقاء.

قواعد التفكير الصحيح: إنّ عقل الإنسان ـ كأيّ جزءٍ من أجزاء وجود الإنسان، مثل القلب والكبد والكليتين ـ له وظائفه الفيزيولوجيّة الطبيعيّة الّتي يعمل على مقتضاها في حالته الصحّيّة، ويختلّ عمله باختلالها فيصاب بالمرض العقليّ.

إذن للعقل قوانينه الطبيعيّة كسائر أعضاء جسم الإنسان، بل كأيّ شيءٍ في عالم الطبيعة، ولٰكنّ الفارق هو أنّ عمل العقل أثناء التفكير هو فعلٌ اختياريٌّ للإنسان العاقل، بمعنى أنّه قد يراعي تلك القوانين الطبيعيّة أو لا يراعيها، مثل الإنسان الّذي قد يراعي بإرادته تناول الغذاء المناسب لمعدته وطبيعته فيصحّ أو لا يراعي فيمرض.

وكما اكتشف الأطبّاء بالتجربة القوانين البيولوجيّة لأعضاء جسم الإنسان ودوّنوها في كتبهم الطبّيّة، وأصبحت معيارًا للصحّة الجسميّة، اكتشف الحكماء تلك القوانين العقليّة الطبيعيّة بالتحليل العقليّ، ودوّنوها في كتبهم المنطقيّة، لتصبح معيارًا للصحّة العقليّة.

ولٰكن للأسف، فإنّ جهل عوامّ الناس بهٰذه القوانين، وسعي الخواصّ منهم - سواءٌ من المنتسبين إلى الدين أو من المادّيّين المنتسبين إلى العلم ـ إلى التشكيك في هٰذه القوانين الفطريّة؛ من أجل تعطيل عقول الناس والهيمنة عليهم بشتّى الطرق والوسائل المضلّلة، بعد سلبهم أعزّ ما لديهم من العقول، حيث يسهل انقيادهم إليهم بعد ذٰلك، فيتمكّنون من

العبث بالمجتمعات البشريّة كما يحلو لهم بعيدًا عن القوانين المنطقيّة والرقابة العقليّة.

وقد أدّى كلّ ذٰلك إلى تمرّد الناس على تلك القوانين الفطريّة الإنسانيّة، وهجرانها، واستبدالها بغيرها من العقائد الوهميّة، والأعراف الاجتماعيّة والاستحسانات الشخصيّة والخرافات.

وبما أنّ المقام لا يسع هنا للبيان التفصيليّ لتلك القواعد العقليّة المنطقيّة، نكتفي فقط بالبيان الإجماليّ لها:

نحن إذا قمنا بتحليل المعلومات الموجودة لدينا نجد أنّها تتفاوت في الوضوح والإبهام بالنسبة إلى عقولنا، فهناك مفاهيم واضحةٌ عند كلّ العقول لا تحتاج إلى ما يبيّنها، مثل مفهوم الذات والوجود والعدم، والضرورة والاستحالة والوجوب والإمكان و...، وهناك مفاهيم مبهمةٌ تحتاج إلى من يوضّحها لنا، مثل مفهوم الذرّة والبروتون، والطاقة، والنفس والروح والإلٰه.

كما أنّ هناك قضايا يصدق بها العقل بنحوٍ تلقائيٍّ بعد تصوّر معانيها، ولا تحتاج إلى دليلٍ يدلّ عليها لوضوحها عند العقل، مثل امتناع اجتماع النقيضين، بمعنى امتناع اجتماع الصدق والكذب، كأن نحكم بأنّ هٰذا الجسم أسود وليس أسود في الوقت نفسه، أو اجتماع الضدّين، كأن نحكم بأنّ هٰذا الجسم أبيض وأسود في الوقت نفسه، أو أنّ كلّ شيءٍ هو نفسه،

مثل أنّ الإنسان إنسانٌ، أو ضرورة احتياج كلّ شيءٍ حادثٍ إلى سببٍ يخرجه من الوجود إلى العدم، وهٰكذا.

وهناك على العكس من ذٰلك قضايا ومسائل غامضةٌ تحتاج إلى دليلٍ يثبت صحّتها، مثل أنّ الجسم يتركّب من ذرّاتٍ، وأنّ الذرّة تتكوّن من إلكتروناتٍ وبروتوناتٍ ونيتروناتٍ، أو أنّ الطاقة تتحوّل إلى مادّةٍ، والمادّة إلى طاقةٍ، أو أنّ هناك إلٰهًا خالقًا ومصمّمًا لهٰذا الكون، أو أنّ هناك حياةً بعد الموت، وغير ذٰلك من القضايا غير البدهيّة الّتي تفتقر إلى دليلٍ يدلّ عليها.

وبناءً على ما بيّنّا، فإنّ قانون التفكير العقليّ المنطقيّ الصحيح هو أن نبدأ تفكيرنا من مفاهيم واضحةٍ كهٰذه لتوضيح المفاهيم الغامضة، وأن نبدأ تفكيرنا بالاعتماد على قضايا واضحةٍ كهٰذه لإثبات القضايا غير الواضحة عند العقل.

أمّا أن نبدأ من مفاهيم غامضةٍ بالنسبة لنا، أو نعتمد على قضايا مناسبةٍ لأوهامنا الحسّيّة، أو آراء عرفيّةٍ مأنوسةٍ لدينا، أو نركن إلى آراء أكابرنا من الآباء أو رجال الدين أو العلماء المشهورين الموثوقين عندنا، أو ننطلق من مبادئ نستحسنها ونحبّ أن نصدّق بها لانسجامها مع أهوائنا، أو انطباقها مع مصالحنا الدنيويّة - كما يفعل أكثر الناس - فهٰذا لن يقودنا إلّا إلى الخطإ والحيرة والضلال.

وقد فصّل الحكماء منذ قديم الزمان في كتب المنطق كيفيّة الانتقالات

الصحيحة من المعلوم إلى المجهول بنحوٍ واضحٍ ومنظّمٍ وموضوعيٍّ، بحيث يكون منارةً للباحثين، وهدايةً للمسترشدين.

شرائط التفكير الصحيح: من أجل تحقّق التفكير الصحيح، يحتاج الإنسان إلى شروطٍ ينبغي توفّرها من أجل الوصول إلى نتائج صحيحةٍ:

1 ـ العلم بهٰذه القوانين، إذ إنّ الجاهل بهٰذه القوانين يتعذّر عليه التفكير الصحيح؛ لأنّ فاقد الشيء لا يعطيه، فينبغي على الإنسان الّذي يريد أن يكون مستقلًّا في تفكيره، أو أن يطرح نفسه مفكّرًا ومنظّرًا أو مرشدًا للآخرين، أن يتعلّم الحدّ الأدنى من هٰذه القوانين المنطقيّة، وإلّا فما الفرق بينه وبين الآخرين؟

2 ـ مراعاة هٰذه القوانين في تفكيره، وأن يعوّد نفسه ذٰلك، حتّى تصبح ملكةً خلقيّةً راسخةً عنده، ويتمتّع بالتفكير المنطقيّ بالفعل، لا أن يتعلّمها، ثمّ يعرض عنها ويعتمد طرق التفكير العرفيّة والتقليديّة والاستحسانيّة كما يفعل عوامّ الناس.

3 ـ اعتماد التجرّد والموضوعيّة في تفكيره، بعيدًا عن الضغوط الدينيّة والمذهبيّة والعرفيّة، أو تسلّط الوهم والأحاسيس على تفكيره، حتّى يتمتّع بالنزاهة الفكريّة في أحكامه واعتقاداته.

موانع التفكير الصحيح: ينبغي على الإنسان العاقل الباحث عن الحقيقة أن يرفع ويزيح الموانع الّتي يمكن أن تعترض طريقه، وتحول بينه وبين التفكير الصحيح، وهي كلّها موانع يشترك فيها المتديّنون والملحدون على حدٍّ سواءٍ، كما هو مشاهدٌ عندهما.

1 ـ التعصّب أو الدوغماتيّة (*Dogmatism*): وهو ليس بسبب الاعتقاد اليقينيّ المطلق ـ كما يتوهّم الحداثيّون ويدعوننا بعدها للظنّ والنسبيّة والتعدّديّة ـ بل بسبب الاعتقاد غير المنطقيّ عند أكثر الناس، الّذي غالبًا ما ينشأ من الاعتقادات القبليّة (*Preassumptions*) المبتنية على الأعراف الاجتماعيّة المأنوسة أو تقليد الأكابر، ويكون دائمًا مانعًا حتّى عن الاستماع إلى الرأي الآخر، وهي ما سمّاها فرانسيس بيكون (*Francis Bacon*) بأوهام المسرح وأوهام الكهف.

2 ـ تقديم المصلحة الشخصيّة أو الفئويّة (*Personal Interests*)، حيث تجعل الإنسان يلوي عنق الأدلّة من أجل الوصول إلى نتائج تناسب مصالحه الدنيويّة، أو اتّجاهه الفكريّ المعروف، فلا يستمع إلى الآراء المناقضة له، ويصدّق دائمًا ما يحبّ أن يصدّقه، وهي ما سمّاها بيكون بأوهام القبيلة.

3 ـ التسرّع في التصديق (*Credulity*) أو الإنكار دون تروٍّ أو مراجعةٍ لمبادئ تفكيره وصحّتها، ممّا يجعله غالبًا في معرض الخطإ.

الأصل الثاني: فلسفة الوجود (*Ontology*):

بعد أن يفرغ الباحث من تعلّم القواعد المنطقيّة للتفكير الصحيح، ويتحلّى بالدقّة والموضوعيّة العلميّة، ويتخلّى عن الموانع النفسيّة، ويتحرّر من التعصّب والأنانيّة، يصبح بعدها مؤهّلًا لأن يسبح بفكره في بحر الكون والوجود، ويخوض بعقله في المباحث الفلسفيّة، ليجيب عن أسئلته الكونيّة: من أين؟ وفي أين؟ وإلى أين؟ الّتي تحدّد مسيره ومصيره في هٰذا العالم وما بعده، وليصل بعد التفكّر والتدبّر والاستدلال البرهانيّ النزيه إلى شاطئ الأمان والواقعيّة.

ونحن لا يسعنا في هٰذه المقدّمة التمهيديّة القصيرة أن نستعرض جميع المباحث الفلسفيّة الّتي أثبتها الحكماء بعقولهم القويمة المستنيرة، ولٰكن سنقتصر على الإشارة إلى بعض القواعد الفلسفيّة الّتي يضرّ الجهل بها، ويؤدّي إغفالها إلى الإلحاد أو الانحراف الفكريّ.

قانون العلية (*Law of Causality*):

يشير قانون العلّيّة إلى أنّ أيّ شيءٍ حادثٍ في الوجود ـ بمعنى أنّه لم يكن ثمّ كان ـ لا يمكن أن يخرج من العدم إلى الوجود بنفسه، بل يفتقر إلى سببٍ غيره يُخرجه من العدم إلى الوجود.

ويعدّ هٰذا القانون من الأصول العقليّة البدهيّة كما سبق وأن أشرنا؛ لأنّ إنكاره يستلزم اجتماع النقيضين مباشرةً؛ لأنّنا نقول إنّ وجود الحادث

إمّا أن يكون قد أخرجه غيره من العدم إلى الوجود، وهو المطلوب، وإمّا أن يكون قد خرج وجوده من العدم تلقائيًّا، والحال أنّ العدم لا يتضمّن الوجود، أو يكون قد أخرج نفسه من كتم العدم، والحال أنّه معدومٌ وفاقدٌ للوجود، وفاقد الشيء لا يعطيه .

وكلّ من أنكر قانون العلّيّة من أمثال دافيد هيوم (*David Hume*) أو غيره من المادّيّين والملحدين كريتشارد دوكينز (*Richard Dawkins*) أو ستيفن هوكنج (*Stephen Hawking*)، أو سام هاريس (*Sam Harris*)، فهو لجهلهم بمعناه وحقيقته؛ ولذٰلك نراهم يعيشون حالةً من التخبّط والتناقض، إذ نجدهم في بحوثهم العلميّة والفكريّة يبحثون عن علل الظواهر الطبيعيّة وأسبابها، أو أسباب نشأة الكون وتطوّره، مع إنكارهم لأصل العلّيّة!

قانون السنخية (*Affinity Law*):

وهو فرع قانون العلّيّة، فكما أنّ أصل وجود المعلول من علّته فكذٰلك خصوصيّاته الذاتيّة تكون من خصوصيّات علّته، وإلّا استلزم خروج الوجود من العدم، وهٰذه الخصوصيّة هي الّتي تسوّغ وتصحّح صدور معلولٍ معيّنٍ من علّته الفاعلّة له دون غيره من المعلولات، وإلّا لصدر أيّ شيءٍ من أيّ شيءٍ.

فنحن مثلًا إذا رأينا كتابًا فلسفيًّا مثل (الشفاء) عرفنا أنّ صاحبه فيلسوفٌ كبيرٌ كابن سينا؛ لأنّ هٰذه الفلسفة لا تصدر إلّا ممّن يملك ملكة العلم والاجتهاد في الفلسفة، وكذٰلك من قرأ أدبيّات شكسبير (*William Shakespeare*) يعرف بكلّ بساطةٍ أنّه أديبٌ كبيرٌ وقديرٌ، وإذا رأينا سيّارةً فاخرةً أو حاسوبًا معقّدًا، علمنا أنّ لهما مهندسًا عظيمًا قد قام بتصميمهما.

والخلاصة أنّ الفلسفة لا تخرج من الأديب، ولا العكس، والعلم لا يخرج من الجهل، والنظام لا يخرج من اللا نظام، وهٰذا أمرٌ في غاية الوضوح عند كلّ إنسانٍ يحترم عقله ويصدّقه.

أنواع العلل:

تنقسم العلل باعتباراتٍ متعدّدةٍ إلى عدّة أقسامٍ:

1 ـ عللٌ ذاتيّةٌ: وهي الّتي يتوقّف وجود المعلول عليها بالذات دائمًا أو في أكثر الأحيان، وقد قسّمها الحكماء إلى أربعة أنواع: علّةٍ فاعليّةٍ منها وجود المعلول، وعلّةٍ غائيّةٍ، وهي ما لأجله يجعل الفاعل المعلول، وعلّةٍ مادّيّةٍ، وهي مادّة المعلول الّتي تحمل استعداداته الانفعاليّة المختلفة، وعلّةٍ صوريّةٍ وهي صورة المعلول الّذي تكون بها حقيقته الفاعليّة الّتي تميّزه عن غيره.

ولنأخذ الكرسيّ مثالًا لهٰذه العلل الأربع، فالنجّار هو العلّة الفاعليّة، والجلوس هو الغاية الّتي من أجلها قد صنع النجّار الكرسيّ، والخشب

مادّتها، وشكل الكرسيّ صورتها. ومن الواضح أنّ انتفاء أيّ علّة من تلك العلل الأربع يؤدّي إلى انتفاء وجود الكرسيّ؛ ولذٰلك كانت عللًا دائميّةً له بالذات.

والعلل الذاتيّة الفاعليّة منها تامّةٌ تستلزم بنفسها صدور المعلول بالضرورة، دون التوقّف على أيّ شيءٍ آخر، مثل المبدإ الإلٰهيّ عند الفلاسفة بالنسبة لأصل صدور العالم، ومنها ناقصةٌ، وتسمى بالمقتضي، إذ لا يكفي وجودها لوجود المعلول، إلّا بعد وجود الشرائط وانتفاء الموانع، كإحراق النار للورق، فهي تحتاج إلى وجود الأوكسجين، ومماسّة الورق، مع انتفاء الرطوبة من الورق.

وأغلب العلل الطبيعيّة في هٰذا العالم من هٰذا القبيل.

كما أنّ العلل الذاتيّة تنقسم إلى عللٍ بعيدةٍ وعللٍ قريبةٍ، فمثلًا حركة اليد علّة قريبةٌ لحركة المفتاح، وإرادة الإنسان علّةٌ بعيدةٌ لها، وإرادة الإنسان بما أنّها حادثةٌ فهناك سببٌ أبعد يقف وراءها، وهٰكذا.

وكذٰلك أسباب الظواهر الطبيعيّة الّتي اكتشفها العلم هي في الواقع أسبابٌ قريبةٌ لها، وبما أنّها حادثةٌ، فلها أسبابٌ بعيدةٌ تكمن وراءها، فمعرفة السبب القريب لا ينفي وجود السبب البعيد، كما يتوهّم المادّيّون والملحدون، وسيأتي بيانه في محلّه إن شاء الله تعالى.

2 ـ **عللٍ اتّفاقيّةٍ**: وهي في قبال العلل الذاتيّة الّتي تقتضي بذاتها المعلول، فهي في الواقع عللٌ مركّبةٌ من أجزاءٍ يندر اجتماعها معًا؛ ولذٰلك

تكون معلولاتها نادرةً أيضًا بحسب حساب الاحتمالات، وهي الّتي يسمّيها العوامّ بالصدفة، كمن حفر الأرض فوجد كنزًا، فوقوع الحفر فوق الكنز بالنسبة لمطلق الحفر في الأرض، هو احتمالٌ ضئيلٌ جدًّا؛ أو كسقوط حجرٍ من فوق جبلٍ على رأس إنسانٍ يسير تحته، فهو أمرٌ اتّفاقيٌّ نادرٌ، وسبب ندرتها أنّه ليس مقتضى ذات الأشياء كالإحراق للنار مثلًا، فمع غياب المرجّح الذاتيّ في الواقع، لا تكون دائميّةً ولا أكثريّة في الواقع، فلا تكون إلّا أقلّيّةً، أو لا أقلّ متساوية الوقوع، فمطلق حفر الأرض أو سقوط الحجر لا يقتضي بذاته هٰذا الأثر، بل يتّفق في بعض الموارد الخاصّة النادرة.

وهٰذا الحوادث الاتّفاقية ليست بلا سببٍ كما يتوهّم العوامّ، بل لها أسبابها الخاصّة بها في الوجود، ولٰكنّها كما قلنا نادرة الاجتماع بحسب حساب الاحتمالات.

3 ـ عللٍ مُعِدَّةٍ: وهي الّتي يسمّيها الحكماء علل الحركة لا الوجود، فهي الّتي تقرّب صدور المعلول من علّته، بتهيئة الظروف المناسبة لذٰلك، وهي كثيرةٌ جدًّا في عالم الطبيعة، مثل الزارع الّذي يضع البذرة تحت التراب ويرويها بالماء، ثمّ يتركها لتصبح شجرةً، أو كالرجل الّذي يضع نطفته في رحم المرأة، ثمّ يتركها لتصبح طفلًا. فمن الواضح أنّ الزارع أو الرجل ليسا هما اللذان قد أوجدا الشجرة أو الطفل، بل إنّهما هيّئا ظروف الإيجاد لهما من عللها الفاعلة؛ ولذٰلك يقول الباري ـ تعالى ـ في القرآن

الكريم: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۞ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾[1]، ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۞ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾[2].

فمن الواضح أنّ أمثال هٰذه العلل ليست عللًا حقيقيّةً للموجودات، وإلّا لانتفت الموجودات بانتفائها، كما هو الحال مع العلل الذاتيّة؛ فينبغي على الإنسان العاقل ألّا يخلط بين هٰذه المعدّات والأسباب الإعداديّة، وبين علل الوجود الذاتيّة.

قانون امتناع تسلسل العلل (*Impossibility of Causality Chain*): بمعنى تسلسل العلل الفاعليّة الموجدة للأشياء، بنحوٍ تكون مجتمعةً مع بعضها البعض في الوجود.

فمثلا من المحال أن نقول أنّ (أ) مثلًا معلولٌ لـ (ب) في وجوده، و(ب) لـ (جـ)، و(جـ) لـ (د) وهٰكذا لا إلى نهايةٍ تنتهي عندها سلسلة العلل والمعلولات.

بيان وجه الامتناع:

إذا اشترطنا لوجود أيّ شيءٍ أن يكون مشروطًا دائمًا بكونه معلولًا لغيره، استحال بهٰذا الشرط أن يدخل أيّ شيءٍ إلى الوجود.

---

(1) سورة الواقعة: 63 و64.

(2) سورة الواقعة: 58 و59.

فمثلًا على سبيل التقريب، لو اشترطنا على مجموعةٍ من الناس ألّا يدخل أحدٌ منهم إلى البيت إلّا إذا كان مسبوقًا بغيره، فلن يدخل أحدٌ، فإذا وجدنا الناس قد دخلوا البيت، فنعلم أنّ واحدًا منهم ـ وهو الأوّل ـ قد خالف هٰذا الشرط ودخل بنفسه، ثمّ دخل الآخرون وراءه بعد تحقّق الشرط.

وما نحن فيه كذٰلك، فنفهم أنّ هناك موجودًا أوّلًا قد دخل الوجود دون أن يكون قبله شيءٌ، وهي العلّة الأولى لهٰذا العالم، ثمّ صدر عنها سائر الموجودات بالترتيب.

هٰذا بالنسبة لعلل الوجود الحقيقيّة، أمّا علل الحركة غير الحقيقيّة، وغير المجتمعة مع بعضها البعض في الوجود، كعلل الحوادث الزمانيّة، فلا يجري فيها هٰذا القانون، ويمكن أن تتسلسل لا إلى نهايةٍ، ويسمّى بالتسلسل اللا يقفيّ، ومثل تسلسل الأعداد، فيمكن أن نستمرّ الأعداد لا إلى نهايةٍ بمعنى أنّه يمكن إضافة واحدٍ إلى أيّ عددٍ بلغ ما بلغ، وهٰذا الّذي أوقع المادّيّين والملحدين في شبهة إمكان التسلسل، وعدم ضرورة انتهاء الموجودات إلى علّة أولى، بعد أن قاسوها على الحوادث الزمانيّة والأعداد.

القوّة والفعل (*Potentiality and Actuality*):

من المسائل الفلسفيّة الهامّة هي ما اكتشفه الحكماء من أنّ الشيء إمّا موجودٌ بالقوّة أو موجودٌ بالفعل.

ومعنى الوجود بالقوّة هي شأنيّة الوجود، أي وجود استعداده في المادّة القابلة له، كوجود الشجرة في البذرة، أو وجود الإنسان في النطفة، وأمّا الوجود بالفعل، فهو كالإنسان نفسه أو الشجرة نفسها.

وهٰذا الاستعداد يسمّيه الحكماء بالإمكان الاستعداديّ، وهو مقتضى قانون العلّيّة، إذ يمثّل هٰذا الاستعداد العلّة المادّيّة لوجود الشيء، وأيضًا مقتضى قانون السنخيّة، إذ يمثّل خصوصيّة الشيء واستعداده الذاتيّ لتحصيل هويّته الوجوديّة الخاصّة به؛ ولذٰلك نجد أنّ شجرة التفّاح لا تخرج إلّا من بذرتها، لا من بذرة البرتقال، والإنسان لا يخرج إلّا من نطفته، لا من نطفة الفرس مثلًا.

فالتمايز النوعيّ الموجود بين الأنواع الطبيعيّة، والتمايز الشخصيّ بين أفراد كلّ نوعٍ إنّما هو معلولٌ لاختلاف الاستعدادات الخاصّة بها، المستلزم اختلاف صورها النوعيّة أو هويّتها الشخصيّة.

والأمر الجدير بالذكر هنا، أنّ هٰذا الإمكان الاستعداديّ ليس إلّا قابلًا ومميّزًا للوجود الخاصّ، وليس بفاعلٍ له كما يتوهّم المادّيّون والملحدون؛ لأنّ حيثيّة الاستعداد والقبول هي حيثيّة الفقدان، لا الوجدان، وفاقد الشيء لا يعطيه، فالشجرة أو الإنسان غير موجودين في البذرة أو النطفة بالضرورة، وهو أمرٌ واضحٌ بالتشريح والمشاهدة الحسّيّة القطعيّة؛ ولذٰلك فإنّ حصولها للبذرة أو النطفة إنّما يكون من علّة

وجودهما المغايرة لهما، وهي العلّة الإلٰهيّة بالضرورة العقليّة كما سيتبيّن بعد ذٰلك.

وبناءً عليه فكلّ ما يبحث عنه الفيزيائيّون وعلماء الأحياء من نشوء العالم وتطوّره، من أمثال داروين (*Charles Darwin*) وستيفن هوكنج (*Stephen Hawking*) وغيرهم، إنّما هو بحثٌ يتعلّق بكيفيّة النشوء والتطوّر، لا بعلّته ولمّيّته، فافهم ذٰلك جيّدًا.

الممكن والواجب (*Possible and Necessary*):

إنّ اتّصاف أيّ شيءٍ بأيّ وصفٍ كان، إمّا أن يكون هٰذا الوصف من ذاتيّاته الثابتة له، فهو واجب الثبوت له، مثل اتّصاف البياض بالأبيضيّة، فنقول البياض واجب الأبيضيّة، أي أبيض بالضرورة، أو اتّصاف الجسم بالامتداد، فنقول الجسم واجب الامتداد، أو الإحراق للنار، فنقول النار واجبة الإحراق، وهٰذا الوصف الذاتيّ لا يحتاج إلى علّة لثبوته لموضوعه؛ لأنّ نفس موضوعه هو علّة ثبوته لنفسه.

وإمّا أن يكون الوصف عارضًا غريبًا على الموضوع، فيكون ممكن الثبوت له، مثل اتّصاف الماء بالحرارة، فنقول الماء حارٌّ بالإمكان، أو اتّصاف الجسم بالحركة فنقول الجسم ممكن الحركة، ومن البديهيّ أنّ اتّصاف الأشياء بمثل هٰذه الأوصاف العرضيّة، تفتقر إلى علّة خارجيّةٍ؛ ولهٰذا يقول الحكماء كلّ عرضيٍّ معلّلٌ، فالماء يحتاج إلى النار مثلًا ليكون

حارًّا، أو الجسم يحتاج إلى محرّكٍ ليحرّكه من الخارج، سواءٌ كان محرّكًا طبيعيًّا كالجاذبيّة، أو إراديًّا كالإنسان.

وقد استفاد الفلاسفة من هٰذه القاعدة المنطقيّة في مباحث الوجود، إذ نظروا في اتّصاف الأشياء بالوجود، فقسّموا الأشياء بحسب اتّصافها الذاتيّ أو العرضيّ بالوجود، إلى واجبة الوجود وممكنة الوجود.

فالواجب الوجود هو الشيء الّذي يكون الوجود ذاتيًّا له، فلا يحتاج إلى غيره ليعطيه الوجود، وقد جعلوا مصداقه الباري ـ تعالى ـ مبدأ سائر الموجودات كما سيأتي بيانه.

وأمّا الممكن الوجود فهو الشيء الّذي يكون الوجود عارضًا على ذاته كسائر الذوات في هٰذا العالم، إذ إنّ لها معنى غير الوجود، فالإنسان مثلًا إنسانٌ في نفسه سواءٌ كان موجودًا أو معدومًا، بل هو معنًى مستقلٌّ عن الوجود، فالوجود عارضٌ على ذاته، فيحتاج إلى غيره في الاتّصاف بالوجود.

المبدأ الإلٰهيّ وصفاته الكماليّة: وهو من أهمّ وأشرف المطالب الفلسفيّة عند الحكماء، وسنقسّمه إلى مطلبين بنحوٍ يتناسب مع البحث:

الأوّل: إثبات وجود المبدإ الإلٰهيّ:

وقد أقام الحكماء براهين متعدّدةً على إثبات وجود المبدإ الإلٰهيّ، ترجع جميعها في حقيقتها إلى قانون العلّيّة، ونشير إلى ثلاثةٍ منها:

برهان الاختراع (***Demonstration of Creation***): وهو المسمّى ببرهان الحركة (*Demonstration of Movement*) عند أرسطو.

المقدّمة الأولى (حسّيّةٌ): أنّنا نشاهد الأشياء في عالمنا تخرج من القوّة إلى الوجود بالفعل، كخروج الشجرة من البذرة والإنسان من النطفة.

المقدّمة الثانية (عقليّةٌ): إنّ الشيء لا يخرج نفسه من القوّة إلى الفعل، كما سبق وأن أشرنا؛ لأنّ فاقد الشيء لا يعطيه.

المقدّمة الثالثة (عقليّةٌ): لا بدّ من وجود سببٍ خارجيٍّ بالذات لإخراج الأشياء من القوّة إلى فعليّة الوجود، وهي غير الأسباب المعدّة الموجودة في الطبيعة، كالزارع مثلًا، والّتي هي في الواقع من أسباب الحركة لا الوجود كما ذكرنا من قبل.

المقدّمة الرابعة (عقليّةٌ): إنّ هٰذا السبب لو كان أيضًا بالقوّة، لاحتاج إلى سببٍ آخر يخرجه أوّلًا من القوّة إلى الفعل ليخرج غيره بعد ذٰلك، فإمّا أن يتسلسل وهو محالٌ، كما أثبتنا من قبل، وإمّا أن ينتهي إلى سببٍ بالفعل من كلّ الجهات، وهو السبب المجرّد عن المادّة، وهو فاعل الوجود بنفسه.

المقدّمة الخامسة (عقليّةٌ): إنّ هٰذا الفاعل المجرّد للوجود، إمّا أن يكون هو العلّة الأولى وهو الباري تعالى، وهو المطلوب، أو ينتهي إليه في سلسلة الوجود لامتناع التسلسل.

النتيجة: ثبوت المبدإ الإلٰهيّ الأوّل

برهان النظم (*Demonstration of Order*): أو ما يسمّى ببرهان العناية أو البرهان الكونيّ.

المقدّمة الأولى (حسّيّةٌ): إنّنا نشاهد نظاما معقّدًا بديعًا منسجمًا مطّردًا، سواءٌ داخل وجود الإنسان نفسه، أو في عالم الطبيعة المحيط به، أو في العلاقات الموجودة المتبادلة بينها جميعًا.

المقدّمة الثانية (عقليّةٌ): النظام المطّرد لا يمكن أن يكون اتّفاقيًّا أو ناشئًا من الصدفة العمياء، فبناءً على قانون العلّيّة والسنخيّة، لا يخرج النظام بنحوٍ مطّردٍ من اللا نظام، بل يحتاج إلى منظّمٍ عاقلٍ وراء هٰذا العالم.

المقدّمة الثالثة (عقليّةٌ): هٰذا المنظّم العاقل إمّا أن يكون هو المبدأ الأوّل، أو ينتهي إليه منعًا للتسلسل، وهو المطلوب.

برهان الإمكان (*Demonstration of Potentiality*):

المقدّمة الأولى (عقليّةٌ): نحن عندما نحلّل الأشياء في هٰذا العالم بعقولنا، نجد أنّ لها ذواتًا غير الوجود، وبالتالي فالوجود عارضٌ عليها كعروض الحركة على الجسم، وبالتالي فهي ممكنة الوجود، بمعنى أنّ الوجود ليس ذاتيًّا لها.

المقدّمة الثانية (عقليّةٌ): كلّ وصفٍ عارضٍ على الشيء يحتاج الشيء لاتّصافه به إلى الغير، كما سبق وأن بيّنّا، فالأشياء في اتّصافها بالوجود تحتاج إلى سببٍ غيرها خارجٍ عنها.

المقدّمة الثالثة: هٰذا السبب الخارجيّ الّذي أعطاها الوجود إمّا أن يكون واجب الوجود، بمعنى كون الوجود ذاتيًّا له، وإمّا أن يكون أيضًا ممكن الوجود يحتاج إلى غيره في الوجود، فلا بدّ وأن ينتهي إلى واجب الوجود بذاته دفعًا للتسلسل المحال.

امتياز هٰذا البرهان: هٰذا البرهان يمتاز عن غيره من البراهين، أنّه برهانٌ عقليٌّ محضٌ، ويثبت المبدأ الإلٰهيّ بأفضل وصفٍ يتناسب مع شأنه المتعالي، وهو كونه واجب الوجود لذاته بذاته ممّا يسهّل الأمر في معرفة سائر صفاته الكماليّة كما سيأتي في المطلب اللاحق؛ لأنّ معنى كونه كذٰلك، هو أن تكون جميع صفاته وكمالاته الوجوديّة هي عين ذاته، كما أنّ وجوده عين ذاته.

هٰذا بالإضافة إلى أنّ معرفة المبدإ الإلٰهيّ بهٰذا الوصف (واجب الوجود لذاته) يحلّ الشبهة القديمة الجديدة الّتي طالما تمسّك بها المادّيّون والملحدون، من أمثال برتراند راسل (*Bertrand Russell*)، وريتشارد دوكنز في كتابه هٰذا، وهو أنّه إن كان الله ـ تعالى ـ قد خلق العالم، فمن خلق الله؟!

والجواب بكلّ بساطةٍ، إنّ السؤال عن علّة الوجود إنّما تكون للأشياء الّتي يعرضها الوجود، كما في هٰذا العالم، إذ إنّ كلّ عرضيٍّ معلّلٍ كما ذكرنا، وأمّا الشيء الّذي يكون الوجود ذاتيًّا له، فلا معنى للسؤال عن علّة

وجوده؛ لأنّ الذاتي لا يعلّل، كما أنّه لا معنى لأن نسأل عن سبب أبيضيّة البياض أو زوجيّة الأربعة.

الثاني: إثبات صفاته الذاتيّة والفعليّة:

وهو من أهمّ وأشرف المباحث الفلسفيّة، وسنشير إليه أيضًا باختصارٍ بما يسع المقام.

وكما أشرنا سابقًا، فمعرفة صفاته ـ تعالى ـ إنّما هي فرع تصوّر ذاته بالنحو اللائق، والجهل بهٰذا التصوّر يؤدّي إلى الجهل بمعرفته الواقعيّة، وبالتالي سلبه محاسنه الحقيقيّة، ووصمه بصفاتٍ وهميّةٍ خرافيّةٍ، تتنزّه عنها ساحته المقدّسة، لا يبقى معها للإلٰه إلّا اسمه الموهوم الفارغ من محتواه، كما حصل مع أكثر المنتسبين إلى الأديان المختلفة.

وسوف نقسّم الصفات الإلٰهيّة إلى صفاتٍ ذاتيّةٍ، أي له من ذاته من حيث هو، وصفاتٍ فعليّةٍ مترتّبةٍ على أفعاله الخارجيّة:

أوّلًا: الصفات الذاتيّة: وهي الصفات التي يتّصف به الباري ـ تعالى ـ لذاته من ذاته، دون النظر إلى أيّ شيءٍ آخر غيره.

الوحدة (***Oneness***): بمعنى أنّ المبدأ خالق واحدٌ لا شريك له في ملكه.

المقدّمة الأولى: لو كان معه إلٰهٌ آخر لامتاز عنه بصفاتٍ وكمالاتٍ خاصّةٍ، وإلّا لكان هو نفسه، وما تميّز عنه.

المقدّمة الثانية: اختصاص أحدهما بصفاتٍ غير موجودةٍ عند الآخر يستلزم أن يكون أحدهما أو كلاهما ناقصًا وفاقدًا لبعض الكمالات الوجوديّة، وهو ممّا يتنافى مع كونه واجبًا للوجود بذاته، لا يشذّ عنه أيّ كمالٍ وجوديٍّ.

النتيجة: أنّ مبدأ الوجود واجب الوجود لذاته يجب أن يكون واحدًا في ذاته، بل لا يمكن أن نفرض له شريكًا معه، وإلّا لزم خلاف الفرض.

البساطة (*Simplicity*): بمعنى كونه غير مركّبٍ من أجزاءٍ داخليّةٍ:

البرهان: لو كان مركّبًا من أجزاءٍ لافتقر كلّ جزءٍ إلى الآخر، وافتقر هو إلى أجزائه، وقد فرضنا أنّه محض الوجود بذاته، غنيٌّ عن أيّ شيءٍ.

ويجدر الإشارة أنّ البساطة هنا لا تعني الضعف والفقر والسذاجة، كما توهّم ريتشارد دوكنز في هٰذا الكتاب، بل تعني كمال الوجود وكونه وجودًا محضًا غير مركّبٍ من الوجود وغير الوجود، بحيث لا يشوبه أيّ نقصٍ أو ضعفٍ، ولا يشذّ عنه أيّ كمالٍ وجوديٍّ.

العلم (*Knowledge*): بمعنى أنّه عالمٌ بذاته، وبكلّ ما تقتضيه ذاته من موجودات هٰذا العالم.

البرهان الأوّل: العلم كمالٌ وجوديٌّ، وقد ثبت أنّه واجدٌ لكلّ كمالٍ وجوديٍّ بذاته.

البرهان الثاني: نحن مخلوقاته نعلم بذواتنا وبغيرنا، فلو لم يكن الخالق

عالمًا، لكان فاقد الشيء يعطيه، وهو محالٌ.

الحياة والقدرة والإرادة: وتثبت جميعها ببراهين إثبات العلم السابقة، من حيث كونها كمالاتٍ وجوديّةً، وهو ـ تعالى ـ جامعٌ لكلّ كمالٍ وجوديٍّ من ذاته؛ لأنّ هذا معنى كونه واجب الوجود كما قلنا.

ثانيًا: الصفات الفعليّة: وهي الصفات الّتي يتّصف بها الباري ـ تعالى ـ بالقياس إلى غيره من أفعاله في العالم.

الربوبيّة (*Diesm*): بمعنى تدبير العالم بعد خلقه.

البرهان:

المقدّمة الأولى: المعلول الممكن الوجود أصل وجوده من علّته الواجبة، لا من ذاته.

المقدّمة الثانية: كلّ ما كان كذٰلك، فهو محتاجٌ إلى علّته حدوثًا وبقاءً؛ لأنّ وجود المعلول قائمٌ بوجود علّته، وبالتالي فهو مفتقرٌ إليها ليس فقط في حصول وحفظ كماله الأوّل، بل في تحصيل كمالاته الثانية في تمام فترة وجوده في الكون.

وهٰذا معنى كونه ـ تعالى ـ خالقًا، وربّ العالمين، ورازق الخلائق أجمعين.

فمن سخيف القول أن نتوهّم أنّه ـ تعالى ـ قد خلق وترك خلقه، كما يتوهّم الربوبيّون اللا دينيّون (*Deists*)، أو أنّه قد فوّض أمر التدبير إلى غيره

من الملائكة أو الجنّ أو بعض الناس، كما يتوهّم الوثنيّون (*Gentiles*).

الحكمة (*Wisdom*): بمعنى إتقان الفعل، وأنّه ـ تعالى ـ يضع الأمور في مواضعها المناسبة بأسبابها الطبيعيّة.

البرهان:

المقدّمة الأولى: أنّه ـ تعالى ـ بمقتضى علمه التامّ بذاته الكاملة وما تقتضيه، عالمٌ بالنظام الأتمّ الأصلح المسانخ لذاته الكاملة، وهو نظام الحكمة والعناية، بمعنى أن يكون كلّ شيءٍ في موضعه الطبيعيّ، وأن يعمل على مقتضى طبيعته الذاتيّة بنحوٍ منسجمٍ مع ذاته والآخرين.

المقدّمة الثانية: أنّه بقدرته المطلقة قادرٌ على إيجاد ما علمه من النظام الأصلح.

النتيجة: هٰذا العالم هو صورة النظام الأصلح من الناحية التكوينيّة، أي نظام العناية والحكمة، وهو صورة التصميم العظيم المشهود لنا بوضوحٍ في هٰذا الكون، وكما يثبت لنا العلم ذٰلك في كلّ يومٍ.

فهٰذا المبدأ الإلٰهيّ ليس مجرّد إلٰهٍ جبّارٍ مستبدٍّ يفعل ما يحلو له أن يفعل دون أيّ ضوابط أو قوانين، كما يتوهّم الكثير من المنتسبين إلى الدين، فهو وإن كان على كلّ شيءٍ قديرًا، ولٰكنّه أيضًا حكيمٌ؛ لأنّ الحكمة كمالٌ وجوديٌّ، وهو جامعٌ لكلّ كمالٍ بمقتضى وجوب وجوده الذاتيّ.

القضاء والقدر: وهو أيضًا من المباحث الفلسفيّة الهامّة، حيث كانت وما زالت تحوم حولها الشكوك والشبهات:

القضاء هو الحكم الإلٰهيّ المتعلّق بصورة النظام الأصلح منذ الأزل، والمعبّر عنه بالإرادة التكوينيّة، والقدر هو السيناريو التفصيليّ التدريجيّ لتحقّق القضاء الإلٰهيّ في هٰذا العالم.

وقد تعلّقت إرادته ـ تعالى ـ بمقتضى حكمته بأن يعمل كلّ موجودٍ على طبق طبيعته الذاتيّة، وأن يصل إلى أقصى كماله الممكن له بنحوٍ تدريجيٍّ بحسب ظروفه الموضوعيّة في هٰذا العالم.

وقد تعلّقت مشيئته ـ تعالى ـ طبق نظام العناية أن يستكمل الإنسان بإرادته الذاتيّة؛ حتّى يكون مسؤولًا عن أفعاله في هٰذه الحياة، وبالتالي فإنّ إرادة الإنسان واختياره جزءٌ لا يتجزّأ من منظومة القضاء والقدر.

لذٰلك فإنّ ما ذهب إليه المادّيّون والملحدون وبعض المنتسبين إلى الأديان من مبدإ الجبر والحتميّة الميكانيكيّة العمياء، وأنّ الإنسان مقهورٌ ومسلوب الإرادة؛ ليس بصحيحٍ، وإن كان النظام هو نظام الأسباب والضرورة؛ لأنّ إرادة الإنسان واختياره لها أكبر الأثر في جريان الأحداث وتغيّرها، وهي جزءٌ لا يتجزّأ من هٰذه الأسباب الخارجيّة على طبق نظام الحكمة الأصلح.

وجود الشرّ في العالم (*Existence of Evil in The World*):

وهي من المباحث الفلسفيّة الشيّقة والنافعة، والّتي دارت حولها الكثير من الشبهات، بل تمسّك بها الملحدون منذ قديم الزمان في نفي المبدإ الإلٰهيّ.

ونحن سنتعرّض هنا فقط لمجمل بيان الحكماء في هٰذا الموضوع الشائك، في صورة سؤالٍ وجوابٍ:

س 1: لو كان الخالق خيرًا محضًا كما تدّعون، فلماذا خلق الشرور؟

ج 1: إنّ الشرور أمورٌ عدميّةٌ، بمعنى عدم الخير، فمثلًا الفقر هو عدم المال، والمرض عدم الصحّة، والظلم عدم العدل، والزلازل والبراكين عدم استقرار الأرض، وهٰكذا. وبالتالي فإنّ الأمور العدميّة لا تحتاج إلى خلقٍ وإيجادٍ، بل يكفي فيها عدم إفاضة الخير، أو منعه.

س 2: لو سلّمنا أنّ الشرور أمورٌ عدميّةٌ، فالأشرار والمجرمون حتمًا موجودون؟

ج 2: الأشرار من حيث اتّصافهم بالكمالات الوجوديّة من العلم والحياة والقدرة والذكاء، هم خيرٌ في أنفسهم ولأنفسهم، ولٰكن عندما يَسلبون الآخرين كمالاتهم الموجودة كسلبهم الحياة والمال بالقتل والسرقة، أو يمنعونهم من تحصيل كمالاتهم وخيراتهم المفقودة، كأن يمنعونهم من تحصيل أرزاقهم، أو يصادرون حرّيّاتهم، فهم من هٰذه الحيثيّة الإضافيّة أشرارٌ، أي أنّهم يسيئون باختيارهم استغلال النعم الّتي وهبهم الله ـ تعالى

ـ إيّاها. فالنتيجة أنّ شرّ الأشرار هو بالعرض أي بالإضافة إلى الآخرين المتضرّرين، لا بالذات.

س 3: لماذا لا يتدخّل الخالق الّذي هو ـ كما تقولون ـ رؤوفٌ رحيمٌ، وعلى كلّ شيءٍ قديرٌ لمنع أو رفع هٰذه المصائب والبلايا؟

ج 3: لبيان حلّ هٰذه الشبهة نقول:

هو في الواقع يتدخّل دائمًا لحفظ أصل الحياة والنظام في هٰذا الكون، ومنع الكثير من المصائب الّتي من الممكن أن تدمّر العالم بالكلّيّة، ولولا عنايته ولطفه الدائم، ما استمرّت الحياة لحظةً واحدةً، والحكماء والعلماء الطبيعيّون والفلكيّون الحقيقيّون يعلمون ذٰلك جيّدًا، ولو قمنا باستقصاء هٰذه العناية الدائميّة والمستمرّة سواءٌ في انتظام عالم الطبيعة واطّراد قوانينه الدقيقة، والمنسجمة مع النظام الموجود في الإنسان من أجل حفظ حياته في هٰذا العالم ما فرغنا من بيانها على الإطلاق.

بالنسبة للشرور الطبيعيّة الّتي تحدث في هٰذا العالم مثل الزلازل والبراكين والأمراض والأوبئة، فهي أوّلًا أمورٌ جزئيّةٌ قليلةٌ جدًّا إن قيست إلى ما يقابلها من الاستقرار والعناية العامّة والكلّيّة، فالزلازل والبراكين ليست دائميّةً ولا أكثريّةً في كلّ زمانٍ ومكانٍ، بل هي أمورٌ اتّفاقيّةٌ، نادرة الوقوع، والأصحّاء في هٰذا العالم أكثر بكثيرٍ من المرضى، وأكثر المرضى يعانون المرض في زمانٍ أقلّ بكثيرٍ من زمانٍ ما يتمتّعون به من الصحّة.

وثانيًا، هٰذه الشرور من اللوازم الذاتيّة لعالم الطبيعة الّذي هو عالم المادّة والحركة والتغيّر، فلا يمكن رفعها أو منعها إلّا برفع أصل هٰذا العالم، والّذي هو النظام الأصلح، والخير الأكثر، والحكيم لا يترك الخير الأكثر من أجل الشرّ الأقلّ، فالنار مثلًا كم هي منشأ خيرٍ وبركةٍ للإنسان في التدفئة والطبخ والطاقة والصناعات المختلفة، الّتي تتعسّر بل تتعذّر حياة الإنسان بدونها، ولٰكنّها مع ذٰلك قد تتسبّب في إحراق بعض الأبرياء في هٰذا العالم، وكذٰلك سائر أنواع الطاقة الّتي اكتشفها أو اخترعها الإنسان كالطاقة الكهربائيّة، ومع ذٰلك لا يقول عاقلٌ أنّه لا داعي لإنتاج الطاقة الكهربائيّة لأنّها تسبّبت في موت بعض الناس.

أمّا بالنسبة للشرور الإراديّة الّتي يرتكبها الإنسان باختياره في حقّ البشريّة، من الاستبداد والقهر والظلم والفساد، فقد ذكرنا أنّ الإرادة التكوينيّة والحكمة الإلٰهيّة قد تعلّقت باستكمال الإنسان بأفعاله الاختياريّة، أي بأن يكون الإنسان حرًّا في هٰذا العالم؛ ليكون مسؤولًا عن أفعاله في الدنيا والآخرة، وقد وهبه الباري - تعالى - العقل السليم الّذي يميّز به بين الحقّ والباطل، وبين الخير والشرّ، وسلّط إرادته على جوارحه لتطيعه في كلّ ما يشاء أن يفعله، وأرسل إليه الأنبياء هادين ومرشدين، مبشّرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتب السماويّة، الّتي هي منشور العيش الكريم، ودستور العدالة والسلام.

ولٰكنّ الإنسان بسوء اختياره جحد كلّ هٰذه النعم، وأبى إلّا أن يتّبع

هواه وغرائزه الحيوانيّة، وأن يطغى في هٰذه الحياة ويعتدي على إخوانه في الإنسانيّة، ويدمّر الطبيعة، من أجل تحقيق مطامعه الشخصيّة والفئويّة الزائلة.

والباري ـ تعالى ـ وإن كان يتدخّل في الكثير من الأحيان لنصرة المؤمنين والمظلومين، ومعاقبة الظالمين، كما فعل مع الكثير من أنبيائه، ولٰكنّه في الوقت نفسه لا يصحّ منه أن يتدخّل في كلّ شيءٍ لمنع الأشرار عن ارتكاب جرائمهم؛ لأنّ ذٰلك خلاف حكمته ومشيئته الأزليّة في أن يكون الإنسان حرًّا مختارًا، ومسؤولًا عن أفعاله الاختياريّة.

وخلاصة البيان أنّ هٰذه الحياة الدنيا قد جعلها الباري ـ تعالى ـ دار امتحانٍ وابتلاءٍ، وجعل الحياة الأخرى بعد الموت دار حسابٍ وجزاءٍ.

حقيقة الإنسان (*Reality of Man*):

إنّ معرفة الإنسان حقيقة نفسه يُعدّ من أهمّ المعارف في هٰذه الحياة ومن أشرفها؛ إذ إنّها تنعكس بقوّةٍ على معرفته بفلسفة وجوده في هٰذا العالم، وتشخيص كمالاته الحقيقيّة المنسجمة مع طبيعته الذاتيّة، وبالتالي أخلاقه وسلوكه ونمط حياته في هٰذه الدنيا، وفوق كلّ ذٰلك مصيره بعد الموت.

وقد أولى الفلاسفة والحكماء منذ قديم الزمان أهمّيّةً قصوى لهٰذه المسألة، وبحثوا عنها بالتفصيل في علم النفس الفلسفيّ (*Philosophical Psychology*)، وأثبتوا عن طريق براهين عقليّةٍ متعدّدةٍ أنّ النفس والذات

الإنسانيّة مجرّدةٌ عن المادّة، وأنّ لها قوّةً إدراكيّةً وحركيّةً تدبّر بها البدن المادّيّ، الّذي هو مجرّد آلةٍ لاستكمال النفس الإنسانيّة في هٰذه الحياة، وذٰلك عن طريق الجوارح الخمس والمخّ والأعصاب الّتي تؤمّن للقوّة العقليّة الّتي هي أشرف القوى الإنسانيّة، جميع ما تحتاجه من العلوم والمعارف الضروريّة، هٰذا بالإضافة إلى تمكين النفس من تحصيل الفضائل والملكات الأخلاقيّة المختلفة عن طريق الأفعال الاختياريّة، وسوف نشير باختصارٍ إلى بعض هٰذه البراهين بما يتناسب مع البحث هنا، ومن أراد التفصيل فليراجع بحوث علم النفس الفلسفيّ لكبار الفلاسفة الإلٰهيّين[1].

البرهان الأوّل: أنّ إدراك المعاني الكلّيّة العامّة المجرّدة عن المادّة، وغير القابلة للانقسام، كالحرّيّة والعدالة، لا يمكن أن يكون موضوعها مادّيًّا قابلًا للانقسام، فموضوعها المدرك لها مجرّدٌ عن المادّة كذٰلك.

البرهان الثاني: أنّ الإنسان مدركٌ لذاته، ولديه وعيٌ كاملٌ بإدراكاته وانفعالاته المختلفة، لا كالآلة الحاسبة الّتي تعمل بلا وعيٍ، وهٰذا لا يكون إلّا للمجرّد غير المادّيّ؛ لأنّ العلم هو حضور المعلوم للعالم، والنفس المجرّدة قائمةٌ بنفسها لا بالمادّة، فهي حاضرةٌ بنفسها لنفسها، وهٰذا معنى العلم بالذات، وهو الأمر الّذي لم يفهمه المادّيّون والملحدون.

البرهان الثالث: إنّ القوى العقليّة تشتدّ مع تقدّم العمر، إلّا أن

---

(1) نفس الشفاء، ص 288.

يصاب الدماغ الّذي هو آلتها بمرضٍ يتلفه، والجسم يضعف بمرور العمر، فهٰذا دليلٌ على كون العقل غير الجسم المادّيّ الّذي يتقادم ويصاب بالشيخوخة.

البرهان الرابع: لو تصوّر الإنسان نفسه قد وجد دفعةً واحدةً في فضاءٍ مظلمٍ، ليس فيه هواءٌ أو صوتٌ أو رائحةٌ، وهو مغمض العينين، ومفرج الأطراف، بحيث تتعطّل كلّ حواسّه الخمس، فنجده مع ذٰلك يدرك وجود ذاته، ويقول أنا موجودٌ، ممّا يدلّنا على مباينة النفس الإنسانيّة للبدن المادّيّ.

ومن هنا يتبيّن أنّ حقيقة الإنسان إنّما هي بروحه ونفسه المجرّدة، لا بجسمه المادّيّ الزائل.

المعاد (*Returning*):

وهو من أهمّ المسائل الّتي تشغل بال أيّ إنسانٍ عاقلٍ في هٰذا العالم؛ إذ إنّ الموت هو المصير الحتميّ لكلّ إنسانٍ في هٰذه الحياة، لا يشكّ في ذٰلك مؤمنٌ أو ملحدٌ، فيبقى السؤال عن وجود حياةٍ بعد الموت أو عدمها من الأسئلة المصيريّة الّتي لا يمكن للإنسان أن يمرّ عليها مرور الكرام؛ لأنّ الجواب عليه يؤثّر تأثيرًا حتميًّا على سلوك الإنسان في هٰذا العالم، وشتّان بين حياة من يرى الدنيا دار امتحان لما بعدها، وأنّ الآخرة دار حسابٍ وجزاءٍ، وبين من لا يرى في الموت إلّا العدم والفناء.

وقد أثبت الفلاسفة وجود المعاد أيضًا ببراهين متعدّدةٍ نشير إلى بعضها:

البرهان الأوّل: هو تجرّد النفس الإنسانيّة، وأنّ الموجود المجرّد لا يفنى ولا يتحلّل، وبالتالي فهو يبقى بعد انفصاله عن البدن بالموت.

البرهان الثاني: لو لم تكن هناك حياةٌ بعد الموت، لكان الخالق عابثًا وظالمًا لخلقه، إذ إنّنا نشاهد في هٰذه الحياة القصيرة تفاوت أحوال الناس في الصحّة والمرض، والغنى والفقر، والمظالم والمفاسد المختلفة، فهناك الإنسان المؤمن الصالح المطيع لله، وهناك الإنسان الملحد والعاصي، وهناك الإنسان الصادق والنافع للناس، وهناك الكاذب والمخادع والظالم للناس، فلو لم تكن هناك حياةٌ بعد الموت يثاب فيها المحسن، ويعاقب فيه المسيء، ويستردّ المظلوم حقّه، ويُعوّض فيها الفقراء والمرضى على كلّ ما عانوه في هٰذه الحياة الدنيا، لكان كلّ هٰذا الوجود الكبير والتصميم العظيم، والعناية الفائقة بوجود الإنسان، وتسخير ما في الأرض والسماء لحياته في هٰذا العالم، عبثًا ومجرّد مسرحيّةٍ تراجيديّةٍ هزليّةٍ، ولٰكنّا قد أثبتنا حكمة الخالق وعدالته ولطفه وعنايته، فلا بدّ أن تكون هناك حياةٌ بعد الموت ينال فيها الإنسان كلّ ما يستحقّه على أحواله وأعماله في هٰذا الحياة.

الأصل الثالث: فلسفة الأخلاق (*Philosophy of Ethics*)

إنّ أخلاق الإنسان هي مبادئ سلوكه العمليّ في هٰذه الحياة، سواءٌ مع نفسه أو في تعامله مع الآخرين، وفلسفة الأخلاق قائمةٌ على ثلاثة أصولٍ عقليّةٍ وجدانيّةٍ:

أنّ الإنسان كائنٌ مختارٌ، لا يفعل إلّا ما يشاء.

أنّه طالبٌ دائمًا للكمال الموجب لسعادته.

أنّه يمكنه أن يحصّل كماله المنشود بأفعاله الاختياريّة.

وهٰذا السلوك العمليّ تحكمه مبادئ تُمثّل منطلقاته الذاتيّة، الّتي تعيّن طبيعة هٰذا السلوك، ومساراته المختلفة في هٰذه الحياة.

والبحث حول مبادئ السلوك الأخلاقيّ الإنسانيّ هو ما يهمّنا ويعنينا في هٰذا الفصل؛ لكي نستخلص منه بعد ذٰلك باختصارٍ أهمّ مبحثٍ في فلسفة الأخلاق، وهو معرفة المعيار الصحيح للفعل الأخلاقيّ؛ حتّى نتمكّن أن نحكم على كون هٰذا الفعل حسنًا أو قبيحًا، ومن الجدير بالذكر أنّ معرفة الجواب الصحيح له أكبر الأثر على تعيين مسير ومصير الإنسان في هٰذه الحياة الدنيا وما بعدها.

المبدأ الأوّل من مبادئ الفعل الأخلاقيّ الاختياريّ، هو مبدأٌ علميٌّ، وهو معرفة الكمال، أي أنّ هٰذا الفعل فيه كمالٌ للإنسان، فإذا أدرك

الإنسان هٰذا الكمال، اشتاق إلى حفظه أو تحصيله، وهٰذا الشوق يمثّل المبدأ الثاني، فإذا اشتاق إليه، ولم يكن هناك مانعٌ من تحصيله، انبعثت إرادته الجدّيّة لتحريك العضلات نحو الفعل المحصّل للكمال المطلوب، أو دفع ما يمنع حصوله، فالإرادة تمثّل المبدأ الثالث من مبادئ الفعل الاختياريّ.

ومن الواضح أنّ الفعل الحسن ليس هو ما يراه الإنسان مناسبًا له على الإطلاق بنحوٍ شخصيٍّ، وإلّا لانتفى الحسن والقبح الواقعيّان، وعمّت الفوضى وانتفت الحاجة إلى القانون والأخلاق، بل هو ما يكون مناسبًا له في الواقع كإنسانٍ له روحٌ وبدنٌ، لا كحيوانٍ فقط، وأن يكون نافعًا أيضًا أو لا أقلّ غير ضارٍّ بغيره من أفراد المجتمع البشريّ؛ لأنّهم يتمتّعون أيضًا بالحقوق الّتي يتمتّع هو بها كإنسانٍ.

ومن الجدير بالذكر أنّ تشخيص الكمال المناسب للإنسان في الواقع إنّما يتوقّف على تشخيص الرؤية الكونيّة الواقعيّة عن حقيقة الإنسان، ومبدئه ومنتهاه، والفلسفة الوجوديّة للحياة في هٰذا العالم، وبيّنّا أنّ تشكيل هٰذه الرؤية الكونيّة الواقعيّة لا يمكن أن تتحقّق إلّا من خلال التفكير العقليّ المنطقيّ المبتني على المبادئ العقليّة الفطريّة البدهيّة، لا التفكير المبتني على الظنون والأوهام والأعراف والاستحسانات الشخصيّة.

إذن فمعيار الحسن الأخلاقيّ هو أن يكون عقلانيًّا، أي منطلقًا من

الأحكام العقليّة المنطقيّة والرؤية الكونيّة الواقعيّة الّتي تراعي جميع الأبعاد الإنسانيّة المادّيّة والمعنويّة؛ لكي لا يظلم الإنسان نفسه، وكذلك تراعي كمالات الآخرين ومشاعرهم، حتّى لا يظلم الإنسان غيره.

الأصل الرابع: فلسفة العلم ونظرياته: (*Philosophy and Theories of Science*)

وهو من الأصول المهمّة الّتي يستلزم الجهل بها الوقوع في الكثير من الانحرافات الفكريّة، وعلى رأسها الإلحاد والسفسطة (*Sophism*)؛ ولذلك فسنعطيه مزيدًا من الأهمّيّة، إذ يبتني على فهمه الكثير من الأسس النقديّة لهذا الكتاب المسمّى بـ (وهم الإله) الّذي سنبحث فيه من جهاتٍ معرفيّةٍ وفلسفيّةٍ وعلميّةٍ متعدّدةٍ.

صلاحيّة المنهج الحسّيّ التجريبيّ وحدوده المعرفيّة:

إذا أردنا أن نحلّل طبيعة المنهج الحسّيّ التجريبيّ ـ الّذي تعتمد عليه اليوم العلوم الفيزيائيّة والكيميائيّة والبيولوجيّة وغيرها بنحوٍ كلّيٍ وأساسيٍّ، من دون أن يدركوا فلسفته أو صلاحيّته وحدوده العلميّة ـ فسنجد أنّه يقوم على ركنين أساسيّين:

الأوّل: هو تكرار المشاهدة الحسّيّة للظواهر الطبيعيّة، أي تكرار صدور الأثر من المؤثّر، تحت ظروفٍ مختلفةٍ؛ وذلك من أجل استبعاد الأسباب الاتّفاقيّة الخارجة عن طبيعة المؤثّر، وإحراز العلاقة الذاتيّة بين الأثر والمؤثّر.

الثاني: هو الاعتماد على قانون العلّيّة العقليّ في أنّ الأثر الاتّفاقيّ لا يكون دائميًّا ولا أكثريًّا

وبضمّ هٰتين المقدّمتين إلى بعضهما البعض نصل إلى نتيجة مفادها أنّ هٰذه الظاهرة معلولةٌ لذات العلّة بالذات، وبالتالي نتمكّن من تعميم هٰذه النتيجة في المستقبل بنحوٍ كلّيٍّ.

فمثلًا في التجارب الطبّيّة، عندما نجرّب دواءً معيّنًا من المفترض أنّه يسكّن الصداع، فعندما نجده كذٰلك مرّاتٍ عديدةً تحت ظروفٍ مختلفةٍ، نحصل على اعتقادٍ يقينيٍّ بأنّ هٰذا الدواء مسكّنٌ لكلّ صداعٍ في المستقبل دائمًا أو في أغلب الأحيان؛ وذٰلك بالاعتماد على قانون العلّيّة العقليّ.

فمن الواضح إذن أنّ المنهج الحسّيّ التجريبيّ أو ما يسمّونه بالمنهج العلميّ، ليس منهجًا حسّيًّا محضًا كما يتوهّم المادّيّون والوضعيّون، بل هو في الواقع مركّبٌ من مقدّمةٍ حسّيّةٍ ومقدّمةٍ عقليّةٍ محضةٍ، وهي أصل العلّيّة، ولولا هٰذه القاعدة العقليّة المحضة، ما كان عندنا مسوّغٌ علميٌّ منطقيٌّ لتعميم أحكام التجربة المحدودة إلى المستقبل، وهٰذا هو منهج الحكماء، وليس الأمر كما توهّم علماء الغرب المحدثون في أنّ أرسطو والحكماء الماضين كانوا يعتمدون على العقل التأمّلي المحض في مباحثهم الفيزيائيّة، وأنّهم لم يكونوا يراعون المشاهدات الحسّيّة! كما يزعم العالم الفيزيائيّ المعاصر ستيفن هوكنج حينما يقول: «**والتراث الأرسطيّ يؤمن أيضًا بأنّ المرء يستطيع أن يستنبط كلّ القوانين الّتي تحكم الكون بالفكر**

الصرف، **فليس من الضروريّ التحقّق بواسطة المشاهدة**»[1]، وهٰذا افتراءٌ عظيمٌ على أرسطو الّذي يعدّ بحقٍّ مؤسّس علم الطبيعيّات، كما تشهد بذٰلك كتبه في علم الفلك والنبات والحيوان والطبّ، كما أنّه افتراءٌ كبيرٌ على الحكماء الّذين كانوا يمارسون الطبّ، ويعالجون المرضى، ويتنبّؤون بالأحوال الفلكيّة من الكسوف والخسوف. وهل كانت كلّ هٰذه العلوم والإنجازات بمحض الحدس العقليّ، دون المشاهدة الحسّيّة؟! وهل بطلان بعض نظريّاتهم العلميّة بتطوّر العلم وأدواته دليلٌ على عدم اعتمادهم على المنهج التجريبيّ، وهل بطلان بعض نظريّات نيوتن (*Isaac Newton*) ـ أبي الفيزياء الحديثة ـ في الزمان المطلق، أو بطلان نسبيّة إينشتاين (*Albert Einstein*) ـ أعظم علماء القرن العشرين ـ في عالم ما دون الذرّة، هو نتيجةٌ لعدم اعتماد نيوتن وإينشتاين على المنهج التجريبيّ؟!

ولٰكنّ للأسف، فإنّ العلماء المحدثين في الغرب بعد تنكّرهم للمنهج العقليّ المحض، واعتمادهم على صرف المشاهدات الحسّيّة والفروض الظنّيّة، أوقعوا أنفسهم في مشكلةٍ حقيقيّةٍ في كيفيّة تعميم النتائج التجريبيّة، بعد إنكارهم لقانون العلّيّة على يد أمثال ديفيد هيوم، وكانط (*Immanuel Kant*) وكونت (*Auguste Xavier Comte*)، ومن جاء من بعدهم من أصحاب الوضعيّة المنطقيّة وحلقة فيينا وغيرهم، من

---

(1) تاريخٌ موجزٌ للزمان، ص 25.

المشكّكين الّذين أحيوا رسوم الشكّ والسفسطة.

ونحن هنا لا نريد أكثر من أن ننبّههم على هٰذا الخطإ الفادح، وأنّه بدون التسليم بتلك الأحكام العقليّة الأوّليّة المحضة، تفقد التجربة حجّيّتها، وصلاحيّتها العلميّة.

وفي الختام نودّ أن نؤكّد أيضًا على نكتةٍ مهمّةٍ، وهي الحدود المعرفيّة لهٰذا المنهج العلميّ التجريبيّ المحدود بحدود آليّاته الإدراكيّة، وهي الحواسّ الخمس بارتباطها المباشر مع ظواهر الأجسام الخارجيّة، وهو عاجزٌ عن تجاوز هٰذه الظواهر المادّيّة؛ لكونها حدودًا واقعيّةً تكوينيّةً، وبالتالي فلا معنى للفيزيائيّ أو البيولوجيّ من حيث هو كذٰلك أن يبحث عن مباحث فلسفيّةٍ كحقائق الأشياء وعللها البعيدة، أو أن يُفتينا بالرؤية الكونيّة للوجود، لوقوعها في مجال وراء مجال هٰذا المنهج الحسّيّ، بل تحتاج إلى منهجٍ آخر مسانخٍ لها، وهو المنهج العقليّ الميتافيزيقيّ. وهٰذا هو الفرق بين العالم ـ بإصطلاح اليوم ـ وبين الفيلسوف الحقيقيّ.

يقول الفيلسوف البريطانيّ الشهير سير أنتوني فلو الّذي كان من رموز الملحدين قبل إيمانه بالله في كتابه (هناك إلٰهٌ): «**فعند دراسة التفاعل بين اثنين من الأجسام المادّية، على سبيل المثال، أو اثنين من الجسيمات ما دون الذرّة، فإنّك تتحدّث في العلوم، وعندما تسأل كيف وُجدت تلك الجسيمات ما دون الذرّة ـ أو أيّ شيءٍ مادّي ـ ولماذا، فأنت تتحدّث في الفلسفة. عندما تستخرج**

استنتاجاتٍ فلسفيّةً من البيانات العلميّة، فأنت عندئذٍ تفكّر كفيلسوف»[1].

ثمّ يضيف: «فلو عرضوا آراءهم حول اقتصاديّات العلوم، مثل تقديم ادّعاءات حول عدد الوظائف الّتي تمّ إنشاؤها بواسطة العلم والتكنولوجيا، عندئذٍ سيتعيّن عليهم تقديم قضيّتهم في محكمة التحليل الاقتصاديّ. وبالمثل، سيتعيّن على العالم الّذي يتحدّث كالفيلسوف أن يقدّم قضيّةً فلسفيّةً. وكما قال ألبرت إينشتاين نفسه: (رجل العلم فيلسوفٌ مسكينٌ)»[2].

ويُنقل عنه قوله أيضًا: «فالفيلسوف هو الّذي يخرج من المعلومات العلميّة باستنتاجاتٍ معرفيّةٍ، وربّما لا يعرف الكثيرون من علماء الأحياء عن هٰذه الاستنتاجات أكثر ممّا يعرف بائع الآيس كريم عن القواعد الّتي تحكم البورصة وقوانين السوق الحرّة»[3].

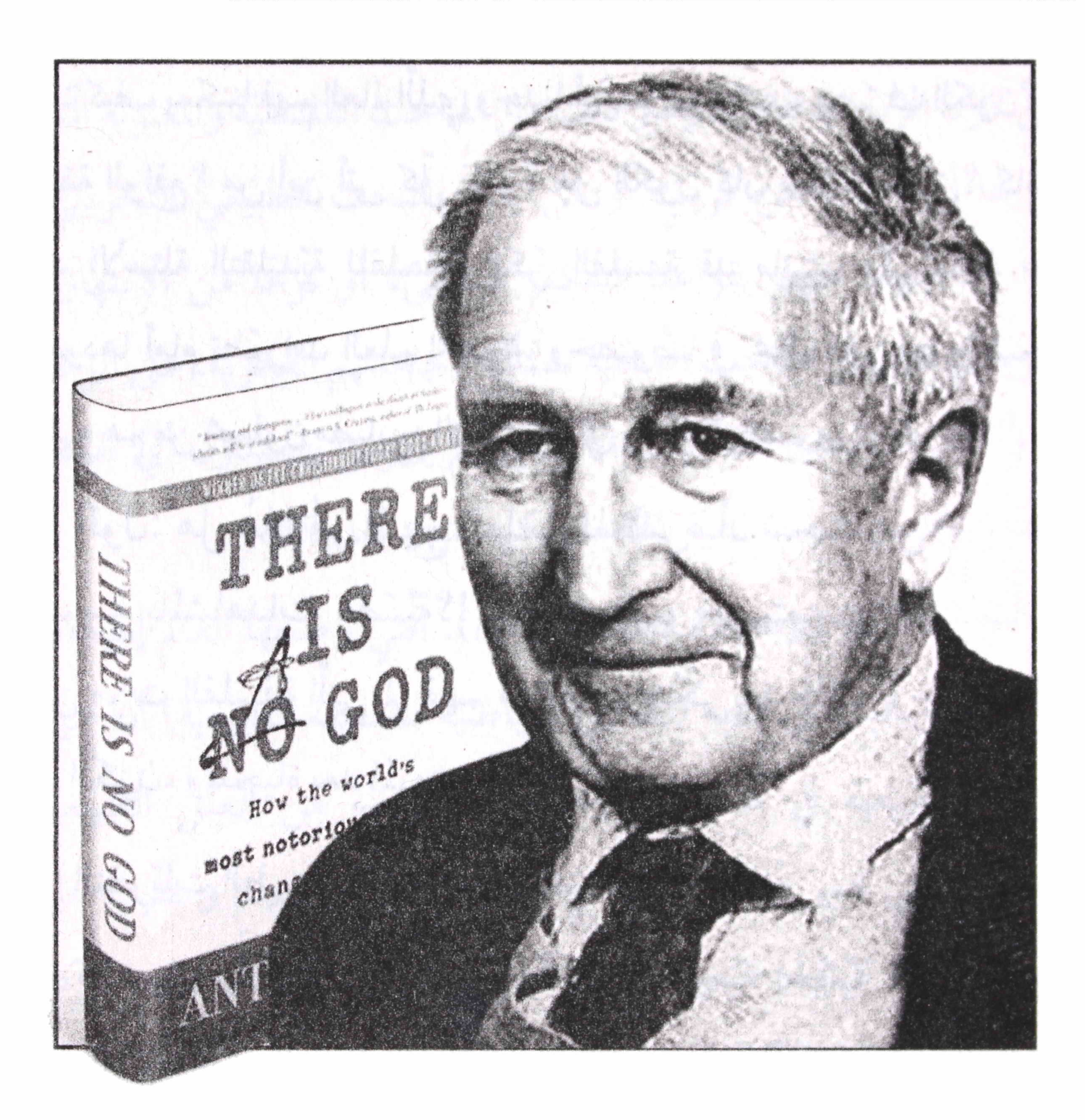
ولٰكنّنا للأسف نجد الفيزيائيّ المعاصر ستيفن هوكنج يطلّ علينا مرّةً أخرى، ويعلن موت الفلسفة، وأنّ الفيزيائيّين قد أصبحوا ورثة الفلاسفة، وأنّهم هم المعنيّون بالإجابة على كلّ الأسئلة الفلسفيّة بما لديهم من علومٍ ومعارف طبيعيّةٍ: «عادةً ما يسأل الناس عددًا من الأسئلة،

---

(1) There is a god,p13

(2) There is a god.115

(3) رحلة عقلٍ، ص 76.



أنطوني جيرارد نيوتن فلو (Antony Garrard Newton Flew) (1923 - 2010)

فيلسوف بريطانيّ، أكثر مؤلّفاته حول فلسفة الأديان، كان طول حياته ملحدًا، وألّف العديد من الكتب الّتي تنفي وجود الإله، وكان أشهرها كتابه (ليس هنالك إلهٌ There is no god)، ولكنّه في أواخر حياته وبعد تفحّص عميق للأدلّة ألّف كتابًا نسخ فيه كلّ كتبه الإلحاديّة السابقة الّتي تتجاوز الثلاثين كتابًا، وبنفس عنوان كتابه الشهير إلّا أنّه رفع كلمة (ليس no) ليكون عنوانه (هنالك إلهٌ There is a god)، وقد تعرّض إثر ذلك إلى حملة تشهيرٍ كبيرةٍ في المواقع الإلحادية في العالم.

مثل: كيف يمكننا فهم العالم الّذي وجدنا أنفسنا فيه؟ كيف يتصرّف الكون؟ ما حقيقة الواقع؟ من أين أتى كلّ ذٰلك؟ هل الكون كان بحاجةٍ لخالق؟ كانت تلك الأسئلة التقليديّة للفلسفة، لٰكنّ الفلسفة قد ماتت، ولم تحافظ على صمودها أمام تطوّرات العلم الحديثة، وخصوصًا في مجال الفيزياء، وأضحى العلماء هم من يحملون مصابيح الاكتشاف في رحلة التنقيب وراء المعرفة»[1].

أقول: هل هٰذا هو المنهج العلميّ المنطقيّ، أن نبحث عن أمورٍ غير محسوسةٍ بالمشاهدات الحسّيّة؟! وبالتالي فليس بمستغربٍ بعد ذٰلك أن يعلن موت الفلسفة الّتي لم يفهم معناها، ويتنكّر بعد ذٰلك لوجود خالق هٰذا الكون، وللحياة بعد الموت.

النظريّات الطبيعيّة ذات الآثار الفلسفيّة:

كما سبق وأن بيّنّا أنّ حريم المباحث الطبيعيّة الحسّيّة مباينٌ لحريم المباحث العقليّة الفلسفيّة، ولٰكن هناك بعض الاكتشافات العلميّة الطبيعيّة قد تمّ تفسيرها - للأسف - بنحوٍ فلسفيٍّ منافٍ للواقع؛ إذ استغلّت من قبل بعض العلماء والمفكّرين المادّيّين، الّذين لم يطّلعوا حتّى على مبادئ المنطق والفلسفة، فذهبوا إلى التشكيك في الأحكام العقليّة الضروريّة، أو في نفي وجود المبدإ الإلٰهيّ، أو في سلب الإرادة الإنسانيّة

(1) التصميم العظيم، ص 13.

ونفي كون الإنسان مختارًا، وغير ذٰلك من المباحث الفلسفيّة والمعنويّة الّتي ليس لها أيّ علاقةٍ من قريبٍ أو من بعيدٍ بالبحث الطبيعيّ التجريبيّ، وهٰذا إمّا جهلًا منهم بقواعد التفكير المنطقيّ، أو نوعًا من الانتهازيّة الفكريّة في تسييس المباحث العلميّة لصالح اتّجاهاتهم الفكريّة، على الرغم من أنّ أكثر أصحاب النظريّات الأصليّين لم يكونوا يقصدون أيّ تفسيرٍ من هٰذه التفسيرات الفلسفيّة اللاحقة، كما سنبيّن بعد ذٰلك:

النظريّة الآليّة (*Mechanical Theory*): الّتي وضعها العالم إسحاق نيوتن، الّذي أثبت في كتابه (**المبادئ الرياضيّة للفلسفة الطبيعيّة**) أنّ جميع الظواهر الطبيعيّة في هٰذا العالم محكومةٌ بسلسلةٍ من العلل الطبيعيّة الضروريّة الّتي تدير هٰذا العالم بنحوٍ آليٍّ ميكانيكيٍّ منسجمٍ ومطّردٍ، على أساس قوانين ثابتةٍ وحتميّةٍ، وقد لخّص هٰذا الأمر في قوانين الحركة الثلاثة، وقانون الجاذبيّة العامّ.

هٰذه النظريّة العلميّة قد استغلّها اللا دينيّون لنفي العناية والتدبير الإلٰهيّ واستغلّها الملحدون لنفي وجود المبدإ الإلٰهيّ، مع أنّه لا شكّ أنّ إسحاق نيوتن نفسه ـ حتّى باعتراف الملحدين ـ كان رجلًا مؤمنًا ومتديّنًا، ولم يتطرّق إلى ذهنه أمثال هٰذه الشكوك والأوهام.

والإنسان العاقل ـ لا سيّما بعد ما بيّنّاه من فلسفة العناية الإلٰهيّة ـ يدرك بكلّ سهولةٍ أنّه لا يوجد أيّ تنافٍ بين وجود العناية الإلٰهيّة، ووجود

منظومة الأسباب الطبيعيّة، بل هٰذه المنظومة تؤكّدها، إذ أثبت الحكماء أنّ الحكمة الإلٰهيّة تقتضي أن تجري الأشياء بأسبابها الطبيعيّة المنتظمة، وليست بالفوضى والعشوائيّة، أو عن طريق الجنّ والشياطين، كما ينسب ذٰلك المادّيّون والملحدون إلى المتدينيّن. نعم هناك خرافاتٌ وأوهامٌ فارغةٌ كان يظنّها بعض عوامّ المتديّنين، لا سيّما في القرون الوسطى في الغرب، وبعض المنتسبين إلى الأديان القديمة في الهند والصين وأفريقيا السوداء، ولٰكن لا علاقة لها بواقع الدين الإلٰهيّ الحقيقيّ من قريبٍ أو من بعيدٍ.

وقد سبق وأن أشرنا إلى أنّ الخلط بين الأسباب القريبة والبعيدة يوقع الجاهل في الإلحاد، فلم يدّع أحدٌ من الفلاسفة أو الأنبياء أنّ الله ـ تعالى ـ يدير الكون مباشرةً بلا أسبابٍ، بل إنّ أرسطو قد أثبت منذ أكثر من ثلاثةٍ وعشرين قرنًا أنّ الخالق ـ تعالى ـ هو المحرّك البعيد للأشياء، وسمّاه بالمحرّك الأوّل، فتدبيره العالم بواسطة الأسباب الطبيعيّة، لا ينفي العناية الإلٰهيّة، فضلًا عن وجود المبدإ الإلٰهيّ.

كما أنّه قد سبق وأن أثبتنا أنّ سلسلة الأسباب الطبيعيّة الحادثة تستوجب بحسب قانون العلّيّة وامتناع التسلسل أن تنتهي إلى علّةٍ أولى بعيدةٍ هي المبدأ الإلٰهيّ.

نظرية الكوانتم (*Quantum Theory*): وهي المسمّاة بميكانيكا الكمّ ، وهي من أعظم النظريّات الفيزيائيّة في القرن العشرين، الّتي أحدثت

الثورة الإلكترونيّة، والّتي كانت لها آثارٌ كثيرةٌ في اختراع الحاسوب والتلفاز والهاتف النقّال والأقمار الصناعيّة.

وهي في الواقع سلسلة نظريّاتٍ لعدّة علماء من أمثال ماكس بلانك *(Max Planck)*، ونيلز بور *(Niels Bohr)*، وهاينزبرج *(Werner Karl Heisenberg)*، وشرودنجر *(Erwin Schrödinger)*، وديراك *(Paul Dirac)*، حيث ساهم كلّ واحدٍ من هٰؤلاء في تطوير هٰذه النظرية، والّتي تتعلّق بعالم ما دون الذرّة.

وقد اكتشف هٰؤلاء أنّ العالم الكموميّ، أو ما دون الذرّة من الإلكترونات والبروتونات والنيترونات وغيرها، لا تخضع للقوانين الطبيعيّة المشهورة لنيوتن وإينشتاين، وأنّها ذات طبيعةٍ احتماليّةٍ وليست حتميّةً. وقد رفض إينشتاين هٰذا الادّعاء، وأرجعه إلى نقص معلوماتنا عن هٰذا العالم الصغير، وأنّه سيتبيّن في المستقبل أنّ هٰذا العالم كغيره من العوالم الكبيرة محكومٌ بقوانين طبيعيّةٍ يمكن التنبّؤ بها، وأطلق عبارته المشهورة «**إنّ الله لا يلعب بالنرد**».

والّذي يهمّنا هنا أنّه بعد التجربة المشهورة لإطلاق الإلكترونات على لوحةٍ معدنيّةٍ ذات فتحتين وراءها لوحٌ حسّاسٌ، وظهور علاماتٍ غير متوقّعةٍ على الشاشة الخلفيّة لا يتناسب مع ما هو متوقّعٌ من المسارات المستقيمة لعددٍ معيّنٍ من الإلكترونات، قام بعض العلماء من أمثال

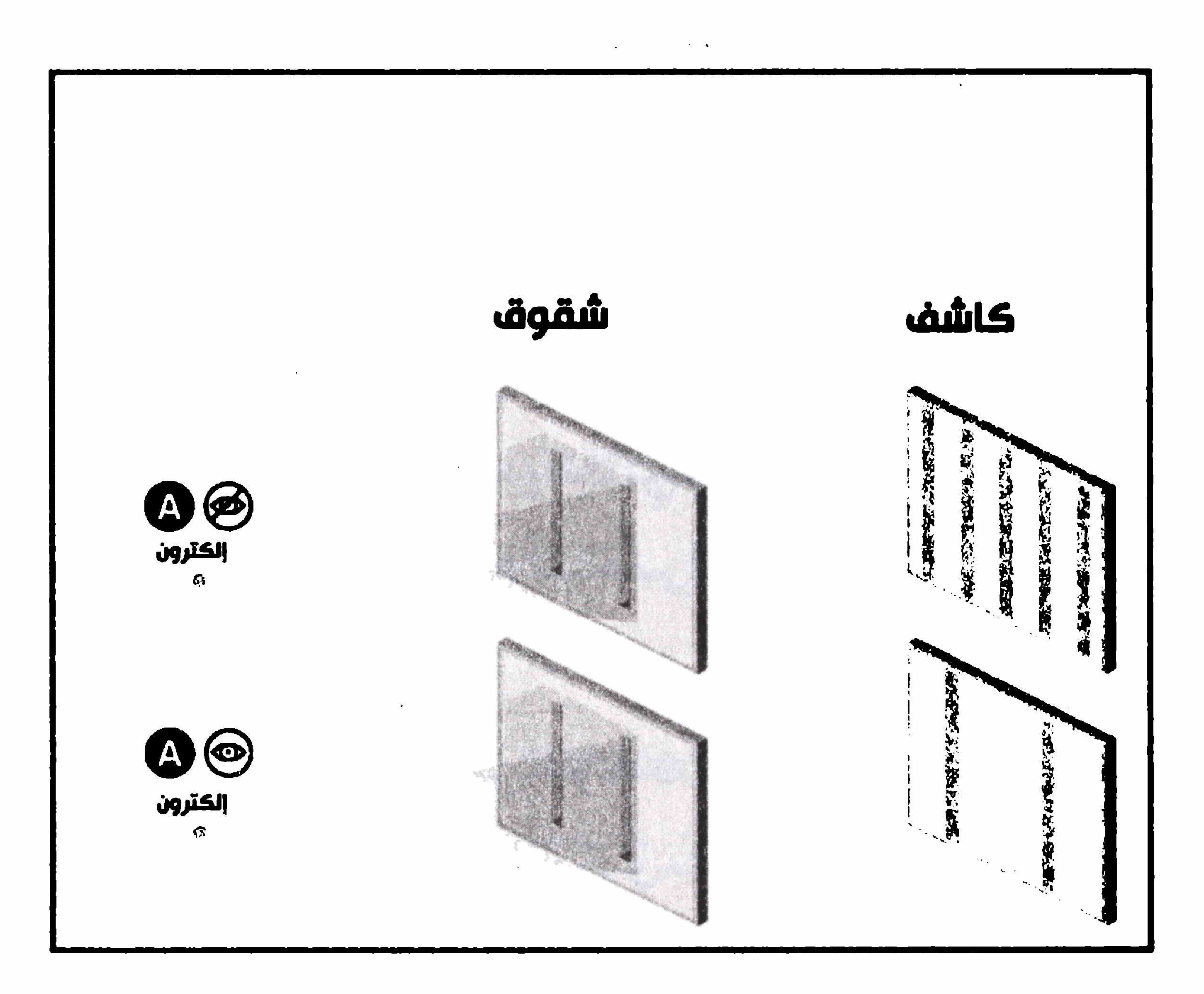
هايزنبرج وفاينمان (*Richard Phillips Feynman*) بتفسيراتٍ غريبةٍ ومنافيةٍ للأحكام العقليّة الضروريّة، مثل كون الإلكترون يقطع عدّة مساراتٍ كثيرةٍ في نفس الوقت.

وقد استغلّ الفيزيائيّ المشهور **ستيفن هوكنج** هٰذه التفسيرات الغريبة في إثبات أنّ العالم الكموميّ قد خرج من العدم بنفسه، أو أنّه قد خلق نفسه! كما يشير إلى ذٰلك من كتابه (التصميم العظيم *The Grand Design*).

قال هوكنج: **«إذا كانت بداية الكون حدثًا كموميًّا، فيجب أن توصف بدقّةٍ بواسطة محصّلة فاينمان عبر التواريخ... لقد رأينا في الفصل الرابع كيف أنّ جسيمات المادّة الّتي يتمّ إطلاقها على شاشةٍ ذات فتحتين قد تظهر شكل تداخلٍ كما تفعل موجات الماء، وقد أوضح فاينمان أنّ هٰذا يحدث لأنّ الجسم ليس له تاريخٌ استثنائيٌّ، بما يعني أنّه أثناء تحرّكه من النقطة (أ) إلى نقطة النهاية (ب) فإنّه لا يتّخذ مسارًا واحدًا محدّدًا، وبالتالي فإنّه يتّخذ بالتزامن كلّ مسارٍ يحتمل أن يصل بين هٰتين النقطتين، ومن وجهة النظر تلك فإنّ التداخل لا يثير الدهشة؛ لأنّ الجسيم على سبيل المثال يمكنه الانتقال خلال تلك الفتحتين في الوقت نفسه وأن يتداخل مع نفسه»**[1].

---

(1) التصميم العظيم، ص 166.



تجربة شقّي يونغ:

هي إحدى أهمّ التجارب الفيزيائيّة الّتي أسهمت في البحث في طبيعة الضوء وإثبات طبيعته الموجيّة، ثمّ استخدمت في إثبات وجود خاصّيّة موجيّة لكلّ الجسيمات مثل الإلكترونات وغيرها.

تعتمد تجربة شقّي يونغ على انعراج الضوء عند شقّين رفيعين في حاجز مانع للضوء، حيث يقوم الانعراج بتحويل كلا الشقّين إلى منبعين ضوئيّين متشابهين مترافقين، وينتج عنها عند استقبال الضوء على حاجز أمامهما أنماط تداخل تتميّز بأهداب ضوئيّة شديدة الإنارة، وأهداب عاتمة، وهذا ما يشابه ظاهرتي التداخل البنّاء والتداخل الهدّام في الأمواج. تمّ الحصول أيضاً على نتائج مشابهة عند استبدال الحزم الضوئية (حزم الفوتونات) بحزم إلكترونيّة؛ ممّا كان أحد إثباتات التصرّف الثنائي للجسيمات دون الذرّيّة (الموجة - جسيم).

وهٰذا كما هو واضحٌ فإنّه تفسيرٌ مخالفٌ للضرورات العقليّة الّتي تبتني صحّة التجربة عليها كما أسلفنا، ومستلزمٌ لاجتماع النقيضين.

ثمّ قال بعد ذٰلك: «**فإنّ الكون يمكنه أن يخلق نفسه من لا شيءٍ، وسوف يفعل ذٰلك بالطريقة الّتي تمّ وصفها في الفصل السادس، والخلق التلقائيّ هو السبب في أنّ هناك شيئًا بدلًا من اللا شيء، فلماذا يوجد الكون؟ ولماذا نوجد نحن؟ ليس من الضروريّ أن نستحضر إلٰها لإشعال فتيل الخلق، ولضبط استمرار الكون**»[1].

أقول ياللعجب! أيمكن للإنسان الّذي يدّعي العلم والمعرفة أن ينزلق إلى هٰذا الحدّ من التدنّي الفكريّ، ليتفوّه بمثل هٰذا الكلام الّذي لا يصدر حتّى من الإنسان الأمّي! فكيف يمكن للشيء أن يخلق نفسه، حتّى بناءً على مبدإ الاحتمالات العشوائيّة للنظريّة الكمّيّة، وتفسيراتها الغريبة في كون الجسم في أكثر من مكانٍ في نفس الوقت، فلا بدّ أن توجد الأشياء أوّلًا لكي تتصرّف بعد ذٰلك بعشوائيّةٍ، لا أنّها تفعل ذٰلك في العدم! ثمّ إذا كانت الأشياء يمكن أن تصدر من العدم، فما الداعي للفيزيائيّ أن يبحث عن أسباب الظواهر الطبيعيّة، ولماذا أجهد هٰذا الرجل نفسه في كتابه (التصميم العظيم *The Grand Design*) للبحث حول كيفيّة نشوء

(1) المصدر نفسه، ص 216.

الكون، وأسباب وجودنا؟!

أليس صدور مثل هٰذه الهذيانات من مثل هٰذا العالم الكبير دليلًا على الخلل الكبير في النظام التعليميّ الأكاديميّ، وعدم عقلانيّته، وأنّه في حاجةٍ ماسّةٍ للإصلاح الجذريّ؛ من أجل أن نتمكّن من تخريج شخصيّاتٍ علميّةٍ متكاملةٍ ومنسجمة الأبعاد، لا شخصيّاتٍ كاريكاتوريّةٍ مشوّهةٍ، قد تضخّمت وتورّمت في بعض أعضائها، مع ضمور البعض الآخر.

نظريّة الانتخاب الطبيعيّ (*Natural Selection*): الّتي وضعها داروين، وتُعدّ من أهمّ النظريّات الّتي تمّ استغلالها من قبل المادّيّين والملحدين لنفي وجود المبدإ الإلٰهيّ، كما سيتبيّن ذٰلك من طيّات كتاب (وهم الإلٰه)، حيث أفرط صاحبه ريتشارد دوكينز في الاستناد إليها في كلّ فصول الكتاب أكثر من استناد المتدينيّن إلى الكتب السماويّة، مع أنّه ليس لها أدنى علاقةٍ بنفي المبدإ الإلٰهيّ، كما سيتبيّن.

ومن أجل ذٰلك فسوف نعطي هٰذه النظريّة مزيدًا من العناية في التنقيب والبحث العلميّ، بالاستناد إلى نصوص كتاب داروين المشهور والمختصّ بهٰذه النظريّة، والمعروف بـ (أصل الأنواع *Origin of Species*)؛ لكي يتبيّن لنا في النهاية أنّه لا يصحّ الاستناد إلى هٰذه النظريّة في نفي المبدإ الإلٰهيّ بأيّ حالٍ من الأحوال، وهو ما لا يرضاه داروين نفسه.

وسوف نتعرّض لهٰذه النظريّة من عدّة محاور متعدّدةٍ:

الأوّل: معنى الانتخاب الطبيعيّ (*Natural Selection*): ذهب داروين إلى أنّ أصل الأنواع كلّها مرجعها إلى خليّةٍ حيوانيّةٍ واحدةٍ، وأنّ هٰذه الخليّة قد حدث فيها بمرور مئات ملايين السنين، وبسبب تغيّر الظروف المحيطة في العالم تغييراتٌ جينيّةٌ متمايزةٌ بنحوٍ تدريجيٍّ اتّفاقيٍّ، بعضها نافعٌ للنوع، بمعنى أنّه أكثر تكيّفًا مع الطبيعة المحيطة، وبعضها ضارٌّ به، ثمّ تشرع الطبيعة الحيّة بطبعها التلقائيّ والاقتضائيّ بالإبقاء على التمايزات النافعة والتخلّص من الضارّة، ثمّ يتمّ توارث هٰذه الجينات الجديدة الّتي تصبح بدورها مبادئ لأنواعٍ متعدّدةٍ، وهٰذا هو معنى الانتخاب الطبيعيّ المستلزم لتكثّر وتطوّر الأنواع على مرّ التاريخ.

قال داروين: «**وهٰذا الحفاظ على الاختلافات والتمايزات الفرديّة المواتية، والتدمير للاختلافات والتمايزات الفرديّة الضارّة قد أطلق عليه مصطلح الانتقاء الطبيعيّ أو البقاء للأصلح**»[1].

ولم يبيّن لنا داروين العلاقة الذاتيّة بين تغيّر الظروف وحدوث هٰذه الطفرات الجينيّة، وأيضًا توريث هٰذه الصفات المكتسبة للأجيال اللاحقة بحيث يبقى الأصلح ويفنى غيره، وداروين يعترف بعجزه عن بيان ذٰلك،

---

(1) أصل الأنواع، ص 161.

مع أنّ هٰذا يعني أنّ هٰذه التمايزات إنّما حصلت وتحصل على الدوام بسبب أسبابٍ اتّفاقيّةٍ، وهو على خلاف قانون العلّيّة كما سبق وأن أشرنا، حيث لا يكون الاتّفاقي دائميًّا ولا أكثريًّا، هٰذا بالإضافة إلى أنّ عالم الوراثة المشهور جريجور مندل (*Gregor Johann Mendel*) قد أثبت بنحوٍ قطعيٍّ أنّ الصفات المكتسبة لا تورّث، وهٰذا يعني أنّ حصول التمايزات وانتقالها إلى الأجيال اللاحقة إنّما هو معلولٌ للصدفة ولأسبابٍ عشوائيّةٍ، وليست غير ذٰلك كما يزعم ريتشارد دوكينز في كتابه.

الثاني: صعوبة التصديق بهٰذه النظريّة باعتراف داروين نفسه: يقرّ داروين بكلّ إنصافٍ أنّه مع إيمانه بصحّة فرضيّته، إلّا أنّ صحّتها تواجه صعوباتٍ كثيرةً في قبولها، بل يعترف بأنّها في كثيرٍ من الموارد تخالف العقل والمنطق.

يقول: «**قبل أن يصل القارئ إلى هٰذا الجزء من العمل الّذي أقوم بتقديمه، فإنّ مجموعةً كبيرةً من الصعوبات ستكون قد واجهته، والبعض منه صعوباتٌ في منتهى الجدّيّة، إلى درجة أنّني اليوم أجد صعوبةً في إمعان التفكير فيها، بدون الشعور بدرجةٍ ما من الذهول**»[1].

ثمّ يضيف قائلًا: «**لكي يفترض أنّه من الممكن أن تكون العين بكلّ ما فيها من أجهزةٍ فذّةٍ، من أجل ضبط الطول البؤريّ للمسافات المختلفة، ومن**

(1) المصدر نفسه، ص 276.

أجل السماح بدخول كمّيّاتٍ مختلفةٍ من الضوء، ومن أجل تعديل الزيغ الكرويّ واللونيّ، قد تكوّنت عن طريق الانتقاء الطبيعيّ، فإنّ ذٰلك يبدو ـ وأنا أعترف بذٰلك ـ كشيءٍ منافٍ للعقل إلى أعلى درجةٍ»[1].

ومن هنا يتبيّن للعاقل أنّ هٰذه النظريّة، هي مجرّد فرضيّةٍ ظنّيّةٍ، تواجه صعوباتٍ جمّةً وثقيلةً، وتكاد ـ باعتراف صاحبها ـ أن تخالف العقل إلى أقصى حدٍّ، فهل يجوز للعاقل أن يتعصّب لها، ويستند إليها في أساس رؤيته للحياة، ويبني عليها كلّ اعتقاداته ومصيره، ويضرب من أجلها كلّ البراهين العقليّة، وما جاء به كلّ الأنبياء والمرسلين؟!

الثالث: الاعتقاد الّذي تبطله هٰذه النظريّة على فرض صحّتها:

وهو أمرٌ مهمٌّ للغاية، حيث إنّ هٰذه النظريّة على فرض صحّتها، إنّما تثبت وحدة أصل الأنواع، وأنّها قد نشأت جميعًا من خليّةٍ حيّةٍ واحدةٍ كانت تعيش في إحدى البحيرات، وبالتالي تُبطل الاعتقاد القائل بخلق الأنواع الكثيرة منذ البداية بنحوٍ ثابتٍ، وغير متطوّرٍ كما كان شائعًا قبل داروين، لا أنّها تبطل وجود الخالق، فمحلّ النزاع بين النظريّتين هو في كيفيّة الخلقة، هل ترجع أنواع الموجودات إلى أصلٍ واحدٍ متطوّرٍ، أو إلى أصولٍ متعدّدةٍ ثابتةٍ، لا في أصل وجود الخالق تعالى، لٰكن كان هناك دائمًا من يصطاد في الماء العكر!

---

(1) المصدر نفسه، ص 293.

الرابع: عدم التنافي بين صحّة هٰذه النظرية ووجود المبدإ الإلٰهيّ الحكيم:

وهٰذا ما أشرنا إليه سابقًا، فهٰذه النظريّة لاعلاقة لها بكيفيّة نشأة أصل الكون، أو الحياة فوق هٰذا الكون، وهٰذا ما يؤكّد عليه داروِن نفسه في أكثر من موردٍ من كتابه، فيقول: «**وأنا لا أرى أيّ سببٍ وجيهٍ في أن تُسبّب الآراء الّتي تمّ تقديمها في هٰذا الكتاب أيّ صدمةٍ للمشاعر الدينيّة الخاصّة بأيّ فردٍ**»[1].

بل قد صرّح في مكانٍ آخرب ضرورة وجود خالقٍ لهٰذا الكون البديع والمعقّد فقال[2]:

«**وإنّه لمن المشوّق أن نتفكّر في منحدرٍ متشابكٍ، مكسوٍّ بالكثير من النباتات من أصنافٍ عديدةٍ، مع وجود طيورٍ تغنّي على الأجمات، مع وجود العدد الكبير المختلف من الحشرات الّتي تنتقل في كلّ مكانٍ، مع وجود الديدان الزاحفة في خلال الأرض الرطبة، وأن نتأمّل في أنّ تلك الأشكال المشيّدة بشكلٍ متقنٍ، والمختلفة بهذا الشكل عن بعضها بعضًا، والّتي تعتمد على بعضها الآخر بطريقةٍ في غاية التعقيد، قد تمّ إنتاجها جميعًا عن طريق قوانين تعمل حولنا، وهذه القوانين، عند أخذها بأوسع المعاني، تتكوّن من: النموّ مع التكاثر، والوراثة المتضمّنة تقريبًا مع التكاثر، والقابليّة للتمايز الناتجة عن المفعول المباشر وغير**

(1) المصدر نفسه، ص 766.

(2) المصدر نفسه، ص 777.

المباشر للظروف الخاصّة بالحياة، والناتجة عن الاستخدام وعدم الاستخدام، ومعدّلٍ خاصٍّ بالزيادة مرتفعٍ إلى هذه الدرجة يؤدّي إلى التنازع من أجل الحياة، ونتيجة لذلك إلى الانتقاء الطبيعيّ، ويتضمّن التشعّب في الطابع والانقراض للأشكال الأقلّ تحسّنًا، وبهذا الشكل، فإنّه نتيجةً لحرب الطبيعة، ونتيجةً للمجاعة والموت، فإنّ أرفع الأشياء الّتي نجد أنفسنا قادرين على تخيّلها، وهو بالتحديد، الإنتاج الخاصّ بالحيوانات العليا، قد كان هو النتيجة المباشرة. وإنّ هناك شيئًا من الفخامة في هذا المنظور للحياة، بالاشتراك مع قدراتها العديدة المختلفة، في أنّه قد تمّ نفخها بواسطة الخالق بداخل العدد القليل من الأشكال أو في شكلٍ واحدٍ، وأنّه بينما كان هذا الكوكب يدور بناء على القانون الثابت للجاذبيّة».

الخامس: أنّ داروين يصرّح في سيرته الذاتيّة بأنّه مؤمنٌ بالله ـ تعالى ـ مصمّمًا ذكيًّا لهٰذا العالم، وأنا أنقل عبارته بالنصّ الانجليزيّ، ثم أترجمها للعربيّة:

قال داروين[1]:

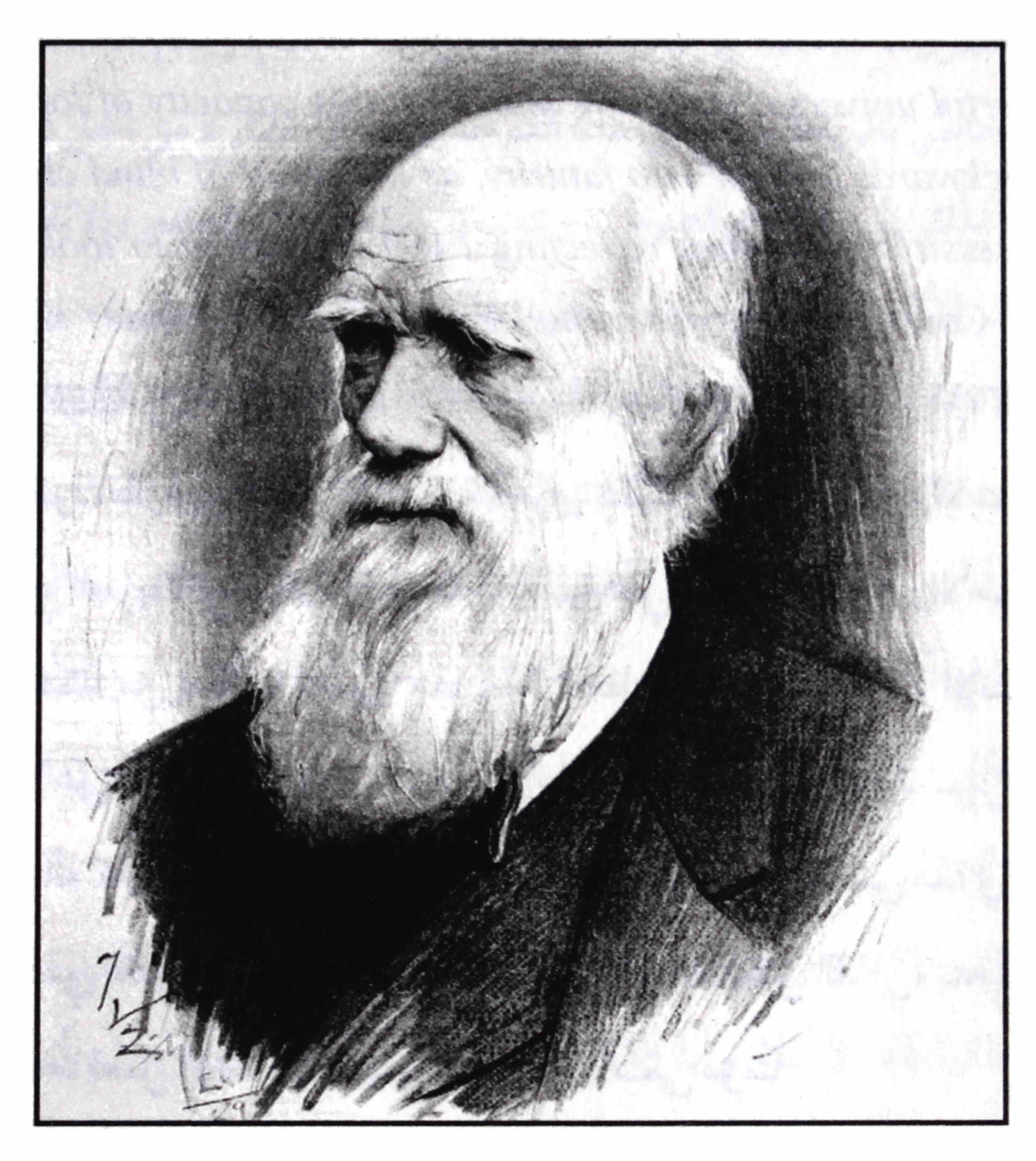
Another source of conviction in the existence of God, connected with the reason and not with the feelings, impresses me as having much more weight. This follows from the extreme

---

(1) Autobiography of Charles Darwin, Nora Barlow, p 92-93.

difficulty or rather impossibility of conceiving this immense and wonderful universe, including man with this capacity of looking far backwards and far into futurity, as the result of blind chance or necessity. When thus reflecting I feel compelled to look to a First Cause having an intelligent mind in some degree analogous to that of man; and I deserve to be called a Theist.

يقول داروين: «وهناك طريقةٌ أخرى تطمئنّ إليها نفسي في إثبات وجود الله، هي الطريقة العقليّة، لا الطريقة العاطفيّة الّتي تخضع للشعور والأحاسيس، وهٰذه تنشأ من صعوبة تصوّر هٰذا العالم العظيم والبديع - بما فيه الإنسان ذو القدرة على النظر إلى الزمان الماضي واستشراف المستقبل البعيد - بل امتناع تصوّر أنّه كان نتيجة صدفةٍ عمياء أو ضرورةٍ ما! وعندما ينعكس هٰذا في ذهني، أجد نفسي مضطرًّا للنظر إلى السبب الأوّل صاحب العقل الذكيّ، بنحوٍ مشابهٍ إلى حدٍّ ما لعقل الإنسان، وحينها أستحقّ أن أُسمّى مؤمنًا».



تشارز روبرت داروين (Charles Robert Darwin) (1809 -1882)

عالم تاريخ طبيعي وجيولوجي وبيولوجي بريطاني، اكتسب شهرته كمؤسس لنظرية التطور التي تنص على أن كل الكائنات الحية على مر الزمان تنحدر من أسلاف مشتركة ، وأن عملية التطور في الكائنات الحية نتجت عن عملية وصفها بالانتقاء (الانتخاب) الطبيعي، وكان يعتقد أن هذه النظرية لا تتقاطع ابدا مع الإعتقاد بوجود إله للعالم، وكان مما قاله في ذلك: (إنه من العبث الشك في قدرة الإنسان على الجمع بين الإيمان بالله ونظرية التطور في نفس الوقت)، وقال كذلك: (لم أنكر أبداً فكرة وجود إله لهذا الكون).

الأصل الخامس: فلسفة الدين (*Philosophy of Religion*):

تعريف الدين: الدين هو مظهر الإرادة التشريعيّة للباري تعالى، ويتضمّن الرؤية الكونيّة عن الإنسان ومبدئه ومعاده، وكيفيّة سلوكه في الحياة، المنسوبة إلى خالق الكون الحكيم، والنازلة عن طريق الوحي السماويّ النازل على رسله وأنبيائه، والمدوّنة في الكتب السماويّة المقدّسة، والمشروحة في روايات المرسلين.

الغاية من الدين: الغاية من إنزال الكتب السماويّة وبعث الأنبياء والمرسلين هو تحقيق العدالة الشاملة، بمعنى إعطاء كلّ ذي حقٍّ حقّه، أي ما يستحقّه من الكمال. ولا شكّ أنّ العدل بمقتضى العقل والحكمة هو المعيار الوحيد والحقيقيّ لحسن الفعل الإنسانيّ؛ لكون حسنه ذاتيًّا، ولكون الغاية من الفعل الاختياريّ للإنسان هو تحصيل الكمال لنفسه أو لغيره، فإمّا أن يكون هٰذا الفعل عادلًا فيكون حسنًا، أو لا يكون فيكون قبيحًا.

وقد ثبت في الحكمة الإلٰهيّة أنّ الباري ـ تعالى ـ لمّا اقتضت إرادته التكوينيّة في النظام الأصلح استكمال الإنسان بأفعاله الاختياريّة، تعلّقت إرادته التشريعيّة المتمثّلة في الشريعة الإلٰهيّة بأفعال الإنسان الاختياريّة؛ ليهديه إلى تحصيل كمالاته الحقيقيّة في إطار نظام العدالة الإلٰهيّة الشامل للحقوق كافّةً، سواءٌ حقّ الإلٰه الخالق من العبادات أو حقوق الناس من

المعاملات.

ومن هنا نعلم أنّ التكليف الإلٰهيّ القائم على الحكمة والعدالة، إنّما هو في الواقع تشريفٌ للإنسان والمجتمعات البشريّة، وليس استبدادًا أو مصادرةً للحرّيّات كما يتوهّم العلمانيّون والملحدون.

تحريف الدين: إنّ الدين الصحيح ليس هو كلّ ما نسبه الناس إلى السماء من أفكارٍ وعقائد ونصوصٍ وطقوسٍ، بل هو المطابق في أصوله ومبادئه لأحكام العقل البرهانيّ اليقينيّة، كما أثبتها الحكماء في الحكمة الإلٰهيّة، وكما بيّنّا ذٰلك من قبل.

ومن الطبيعيّ أن يسعى الأشرار على مرّ التاريخ إلى تحريف الأديان الإلٰهيّة المنافية لمصالحهم غير المشروعة، وأن يجدوا من الجهلة والانتهازيّين من رجال الدين من يعينهم على ذٰلك؛ فنحن بطبيعة الحال أيضًا غير معنيّين بأيّ نصوصٍ دينيّةٍ أو تفاسير أو قراءاتٍ بشريّةٍ تخالف العقل السليم، وليس للملحدين أن يتمسّكوا بمثل هٰذه المذاهب الدينيّة الموهومة أو التفاسير المزيّفة ليحتجّوا بها علينا؛ لأنّ حجّتنا الأولى الّتي عرّفنا بها المبدأ الإلٰهيّ، وتعرّفنا بها على الدين الصحيح من خلال العقل السليم المبتني على القواعد المنطقيّة الواقعيّة، وليست الموروثات العرفيّة، ومجرّد آراء الرجال المنتسبين إلى العلم أو الدين.

الأصل السادس: دوافع الإلحاد (*Causes of Atheism*):

بعد الفراغ من تقديم الأصول العقليّة الفلسفيّة والعلميّة السابقة، يتبيّن لنا أنّ الجهل بهٰذه الأصول لعب دورًا مهمًّا في الوقوع في الإلحاد والتنكّر لوجود المبدإ الإلٰهيّ، هٰذا بالإضافة إلى العوامل النفسيّة الّتي كان لها الدور الأكبر في نشوء الإلحاد، لا سيّما بين طبقات الشباب.

ونحن سنكتفي هنا بالتعرّض بنحوٍ عامٍّ ومختصرٍ لهٰذه الدوافع؛ لكونها معلومةً ممّا تقدّم، ولكون البحث عنها بحثًا تمهيديًّا، وإلّا فهي تحتاج في الواقع إلى بحثٍ تفصيليٍّ مستقلٍّ لا يناسب هٰذا الكتاب.

1ـ أسبابٌ منطقيّةٌ (*Logical Causes*):

- **اعتماد المنهج الحسّيّ بنحوٍ أصيلٍ**، إذ يتعاملون مع المباحث الفلسفيّة الغيبيّة تعاملهم مع المباحث الفيزيائيّة المحسوسة.
- **الأحكام الوهميّة**، وهي من لوازم الذهنيّة الحسّيّة الخياليّة غير المجرّدة، إذ يجعلون كلّ ما أمكن في أوهامهم ممكنًا في الواقع، وكلّ ما امتنع تصوّره في خيالهم ممتنعًا في الواقع، فيتوهّمون خصائص عالم ما وراء الطبيعة المجرّد عن المادّة، ويجعلونها كخصائص عالم الطبيعة المادّيّ، كما ستبيّن في مطاوي كتاب (وهم الإلٰه).
- **الجهل بالمنهج العقليّ**، نتيجة عدم اطّلاعهم على قواعد المنطق العقليّ بنحوٍ سليمٍ، والناس أعداء ما جهلوا.

- **أخذ ما بالعرض مكان ما بالذات**، وذٰلك عندما يحكمون على حقيقة الإنسان ووعيه الذاتيّ المجرّد عن المادّة، بعوارضه الخارجيّة المادّيّة من التفاعلات الكيميائيّة، والنبضات الكهرومغناطيسيّة.
- **الجهل بالفرق بين عدم العلم بالشيء الّذي هو من الجهل بالشيء**، وبين العلم بعدم الشيء الّذي هو من العلم، فيتعاملون مع عدم العلم بالإلٰه كالعلم بعدمه؛ وأيضًا بين الامتناع الذاتيّ المحال الوقوع، وبين الشيء المستبعد حصوله، وإن كان ممكن الوقوع، فينتقلون من استبعادهم لوجود موجودٍ في غاية التعقيد كمصمّمٍ لهٰذا العالم، إلى استحالة وجوده، وهٰذا كلّه مرجعه إلى الجهل بالمنطق، والاستئناس بالحسّ والعرف العامّ الاجتماعيّ.

2ـ أسبابٌ فلسفيّةٌ (*Philosophical Causes*):

- الجهل بأصل العلّيّة، وهو أهمّ سببٍ على الإطلاق للإلحاد الّذي جعلهم يتوهّمون عدم احتياج العالم إلى سببٍ إلٰهيٍّ، وخروجه من العدم إلى الوجود، أو من القوّة إلى الفعل بنفسه، وهو ممّا بيّنّا امتناعه.
- الخلط بين الأسباب القريبة والبعيدة.
- الخلط بين العلّة المعدّة، والعلّة بالذات.
- الجهل بمعنى الاتّفاقيّ.
- الجهل بالتسلسل.
- الجهل بمعنى واجب الوجود.
- الجهل بصفات الباري ـ تعالى ـ الذاتيّة والفعليّة.

- الجهل بفلسفة الدين والتشريع والأخلاق الدينيّة.
- الجهل بفلسفة الشرّ في العالم.

3ـ أسبابٌ علميّةٌ (*Scientific Causes*):

- الجهل بمبادئ المنهج العلميّ التجريبيّ وحدوده.
- توهّم التضادّ بين نظريّة التطوّر ونظريّة الخلق.
- توهّم التضادّ بين الدين والعلم، وطرح العلم كبديلٍ للدين.

4ـ أسبابٌ نفسيّةٌ (*Psychological Causes*):

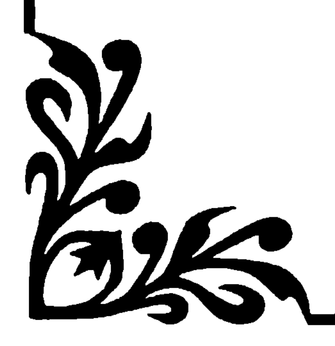
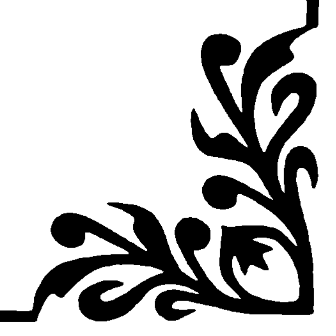
- عدم الرغبة في التديّن بالأحكام الشرعيّة، والتحلّل من القيود الأخلاقيّة، كما هو عند الكثير من الشباب.
- سوء تصرّف بعض رجال الدين المتسبين إلى الدين لجهلهم بالدين الأصيل، أو اتّباعهم لأهوائهم.
- التأثّر السلبيّ بالمصادر المحرّفة للدين عند أرباب الملل والنحل المختلفة.
- التأثّر السلبيّ بالمصاديق الدينيّة المتطرّفة، والمتعصّبة من ذوي الميول التكفيريّة والإرهابيّة.
- التعزّز ببعض العلماء والمفكريّن الملاحدة، والتغاضي عن الأغلبيّة الساحقة من الحكماء والعلماء المتدينيّن.




كتاب

(وهم الإله)

(The God Delusion)

كتاب

(*The God Delusion* وهم الإله)

«صدر كتاب (وهم الإلٰه) لمؤلّفه ريتشارد دوكينز في أكتوبر عام 2006 وأثار الكتاب الكثير من الجدل بين مؤيّدٍ ومعارضٍ، وألّفت العديد من الكتب للردّ عليه. باعت النسخة الإنجليزيّة من الكتاب حتّى شهر نوفمبر من عام 2007 أكثر من 1.5 مليون نسخة، ومليوني نسخة في جانفي 2010، وارتفع هٰذا الرقم ليصل إلى 3 ملايين نسخةٍ سنة 2014، وتُرجم إلى 31 لغةً ومنها إلى العربيّة بواسطة الكاتب والمترجم بسام البغداديّ عام 2009، ممّا جعله الكتاب الأكثر شعبيّةً من بين جميع كتب دوكينز»[1].

والكتاب الّذي ترجمه إلى العربيّة بسام البغدادي، مؤلّفٌ من مقدّمةٍ وعشرة فصولٍ، وسنشير أوّلًا وباختصارٍ إلى مقدّمة المترجم، ثمّ مقدّمة المؤلّف، لندخل بعدها لاستعراض المقتطفات المفصليّة المهمّة من فصول الكتاب العشرة الّتي تستحقّ الإشارة، ونتعرّض لها بالنقد العلميّ الموضوعيّ، بناءً على ما قدّمناه من قواعد وأصولٍ عقليّةٍ منطقيّةٍ، ومبادئ

---

(1)ar. wikipedia. org/wiki/كتاب_الإله_وهم

فلسفيّةٍ وعلميّةٍ، لندع بعدها الحكم للقارئ الكريم؛ ليقرّر على أساسه، وبكلّ حرّيّةٍ اتّجاهه ومسيره في الحياة باختياره، فلا إكراه في الدين، بعد أن تبيّن الرشد من الغيّ، وتميّزت الحقيقة عن الوهم.

مقدمة المترجم:

بسّام البغداديّ وهو «مخرجٌ و كاتبٌ وناقد أديانٍ ومنظّرٌ ملحدٌ عراقيٌّ، ولد في سنة 1977 في مدينة بغداد عاصمة العراق، ودخل إلى كلّيّة الفنون الجميلة جامعة بغداد في سنة 1995، منع فلمه (المواطن عباس) من النشر في سنة 1998 لأسبابٍ سياسيّةٍ، وهاجر إلى السويد سنة 1999، أكمل دراسته في فنّ كتابة السيناريو السينمائيّ في معهد ستوكهولم، واستمرّ في دراسة الإنتاج السينمائيّ في معهد فورسا شمال السويد، قام بترجمة كتاب (وهم الإله) لعالم الأحياء البريطانيّ ريتشارد دوكينز إلى العربيّة، والكتاب صدر في بغداد بتأريخ 14 شباط 2012. يهتمّ بسّام بكتابة الشعر والقصّة القصيرة ومقالاتٍ متعدّدةٍ في نقد الأديان والفكر والفلسفة الإنسانيّة، ناشطٌ ميدانيٌّ في منظّمة الصليب الأحمر الدوليّ، ناشطٌ ميدانيٌّ في منظّمة العفو الدوليّة (*International Amnesty*)»[1].

من الواضح أنّ المترجم هو مجرّد فنّانٍ، صناعته الشعر والخيال، ومع تقديرنا واحترامنا للفنّ والأدب، إذ اهتمّ بهما الحكماء أيضًا في الماضي، فهو

---

*(1)ar. wikipedia. org/wiki/*بسام_البغدادي

ليس له أدنى خبرةٍ أو اطّلاع بصناعة المنطق والفلسفة، أو أقلّ درايةٍ بمنهج العقل أو الدين، ومع كلّ هٰذا نجد أنّه قد نصّب نفسه حاكمًا ومدافعًا عن الكتاب ومؤلّفه، فهل هٰذا هو المنطق العقليّ؟! وهل هٰذا هو المنهج العلميّ؟! يقول بسام في مقدّمة ترجمته للكتاب:

«عندما يتناول ريتشارد دوكنز نقد الأديان في كتابه الرائع، بل الأكثر من رائع (وهم الإلٰه) فإنّ الله بكلّ عظمته وجلاله يقف وجهًا لوجهٍ أمام عالم الطبيعة والفلسفة دوكنز على خطّ النار وفي الأرض الحرام. الله يقدّم ما عنده من أنبياء وكتبٍ ودوكنز يقدّم ما عنده من أدلّةٍ و براهين علميّةٍ لا تقبل الشكّ في دراما علميّةٍ ومنطقيّةٍ رائعةٍ تتخطّى كلّ ما قرأت سابقًا من كتبٍ تناولت نقد الأديان».

وهٰذا يؤكّد على المأساة العلميّة واللا عقلائيّة، الّتي سبق وأن أشرنا إليها في ترجمة مؤلّف هٰذا الكتاب، وهو إقحام الإنسان نفسه فيما لا شأن له به، والفتوى بلا علمٍ أو خبرةٍ. وإلّا فكيف بالله عليكم أيقن البغداديّ خرّيج الفنون الجميلة، الّذي عاش حياته بين الشعر والمشاعر والخيال، صحّة ما يسمّيه (البراهين العلميّة) الّتي استدلّ بها (دوكينز) في هٰذا الكتاب، مع كونها أدلّةً مزيّفةً خالف فيها جميع ما جاء به الأنبياء الإلٰهيّون من آياتٍ بيّناتٍ، وناقض فيها براهين الفلاسفة العظام أمثال أرسطو والفارابيّ وابن سينا؟! أليست هٰذه مهزلةً؟! وهل اطّلع بنحوٍ علميٍّ

موضوعيٍّ على براهين الفلاسفة والحكماء المتخصّصين في كتبهم في إثبات المبدإ والمعاد، حتّى يتمكّن من أن يحاكم بينهم، وهو الّذي ربّما لم يقرأ كتاب منطقٍ أو فلسفةٍ إلٰهيّةٍ في حياته، أم هو التصديق بما يهواه ويحبّ أن يصدّقه، والّذي سمّاه فرانسيس بيكون بأوهام القبيلة، وهل يعقل ـ ولو بنحوٍ إجماليٍّ ـ أن نرجّح استدلالات الجاهلين بعلم الفلسفة والدين، على استدلالات المتخصّصين من الفلاسفة وعلماء الدين؟! وهل هٰذا إلّا انسلاخٌ عن الفطرة العقليّة الإنسانيّة، وخروجٌ على السيرة العقلائيّة.

أمّا توصيفه للكتاب بأنّه **«دراما عقليّةٌ ومنطقيّةٌ رائعةٌ»** فهو قولٌ متناقضٌ، لامتناع اجتماع البحث المنطقيّ العقليّ الجادّ مع البيانات الشعريّة الخياليّة، ولٰكنّه في الوقت نفسه يعكس واقع هٰذا الكتاب، ويدلّ على أنّ ما كتبه (دوكينز) في هٰذا الكتاب، هو مجرّد قصّةٍ دراميّةٍ، نسجها من وحي خياله، وليست بحثًا فلسفيًّا علميًّا حقيقيًّا من نور العقل والعلم، وهٰذا أمرٌ واقعٌ سيراه القارئ بعينيه أثناء مطالعته للكتاب، إذ اكتظّت ثناياه بالقصص التراجيديّة الحزينة والكوميديّة الساخرة، الّتي اعتمد عليها المؤلّف لإثبات اعتقاداته الإلحاديّة، وإبطال العقائد الدينيّة بأيّ قيمةٍ.

مؤلف كتاب (وهم الإله)

ريتشارد دوكنز: ولد في 26 آذار 1941 في نيروبي بكينيا، وهو عالمٌ

في الأحياء التطوريّة (*Evolutionary Biology*) وعلم سلوك الحيوان (*Ethology*) وكاتب أدبيّاتٍ علميّةٍ بريطانيٌّ.

من أبرز أعماله التأكيد على الدور الرئيسيّ للجينات كقوّةٍ دافعةٍ للتطوّر، إلى جانب أعماله في البيولوجيا التطوّريّة، دوكينز يقدّم نفسه على أنّه ملحدٌ، إنسانيٌّ، علمانيٌّ، شكوكيٌّ، وعقلانيٌّ علميٌّ، مع ذٰلك فقد قدّم نفسه على أنّه مسيحيّ الثقافة، هو معروفٌ بآرائه في الإلحاد (*Atheism*) ونظريّة التطوّر (*The Theory of Evolution*)، كما أنّه من أبرز منتقدي[1] نظريّة الخلق ونظريّة التصميم الذكيّ (*Intelligent Design*).

وهنا أودّ أن أشير إلى شيءٍ طالما أثار همومي وأحزاني، وعانى منه العلم والإنسانيّة على مرّ التاريخ، وهو تدخّل الإنسان فيما لا يعلم، وتلبّس الجاهل بلباس علمٍ هو ليس من أهله، ومع أنّنا نرى أنّ سيرة العقل والعقلاء في كلّ زمانٍ ومكانٍ قد انعقدت على ضرورة مراجعة الجاهل للعالم، وعدم تدخّل أصحاب علمٍ معيّنٍ في شؤون علمٍ آخر، فلا يتدخّل المهندسون في شؤون الأطبّاء، ولا يتدخّل الطبيعيّون في شؤون الأمن أو الاقتصاد، طالما أنّ ذٰلك ليس من مهنتهم ولا تخصّصهم، بل حتّى المتخصّصين في علمٍ معيّنٍ كالطبّ مثلًا، لا يسمحون لغير المتخصّصين في نفس هٰذا العلم من الأطبّاء العامّيّين بالتدخّل في

---

(1) ar.wikipedia.org/wiki/دوكنز_ريتشارد

تخصّصهم. وجميع العقلاء يعدّون هٰذا النحو من التدخّل قبيحًا، ونوعًا من الاحتيال والتعدّي على الآخرين، ويستلزم المؤاخذة القانونيّة في بعض الأحيان. ولٰكن للأسف، فإنّ هٰذه السيرة العقلائيّة المشهورة، نجدها معطّلةً، ولا تجري في علومٍ مهمّةٍ وخطيرةٍ كالمنطق والفلسفة والعلوم الدينيّة، حيث أضحت ساحةً لكلّ من هبّ ودبّ، مع كونها من أشرف العلوم وأجلّها؛ لأنّ موضوعها هو الإنسان، ونتائجها تؤثّر على مسير ومصير الإنسان في الحياة، وهو في الواقع سلوكٌ ليس له أيّ مبرّرٍ علميٍّ أو عقليٍّ أو عقلائيٍّ، وسيظلّ بالنسبة لي ولكلّ إنسانٍ عاقلٍ لغزًا محيّرًا، لا نجد له أيّ مبرّرٍ منطقيٍّ، اللّٰهمّ إلّا بدافع متابعة الأوهام والأهواء النفسيّة، وردود الأفعال العكسيّة.

فهٰذا الرجل ريتشارد دوكينز عالم الأحياء الكبير المتخصّص في الأبحاث الجينيّة (*Genetic Research*)، الّذي ـ بحسب سيرته الذاتيّة ـ ليس لديه أيّ تخصّصٍ فلسفيٍّ أو دينيٍّ، وليس لديه أيّ بحوثٍ فلسفيّةٍ معتبرةٍ تكشف حتّى عن أدنى مستوًى له فيها، بل الرجل ليس له سوى بحوثه البيولوجيّة، وبعض الدراسات الأدبيّة والروائيّة، الّتي لا علاقة لها بالمنطق أو الفلسفة أو الدين، ومع ذٰلك نجد أنّه قد نصّب نفسه لمجادلة أهل هٰذه العلوم الّتي يجهل حتّى موضوعاتها ومبادئها العلميّة، بل يسخر منهم ويتطاول عليهم، ويُقحم نفسه فيما لا شأن له به، فأين علم الطبيعة (*Physics*) الحسّيّ التجريبيّ وأين علوم ما وراء الطبيعة (*Metaphysics*)

العقليّة غير المحسوسة؟! وهما متباينان في الموضوع والمنهج والغاية، فمثل الّذي يريد أن يخوض في العلوم الميتافيزيقيّة غير المحسوسة بالمنهج العلميّ الحسّيّ، كمثل من يريد أن يسمع بعينيه ويرى بأذنيه!

وهل يقبل دوكينز نفسه، أن يتدخّل علماء المنطق والفلسفة الإلٰهيّة أو علماء الدين في علم الأحياء؟! وإذا لم يقبل تدخّلهم فلم يحلّل لنفسه ما يحرّمه على الآخرين؟! وإذا رفض اعتبارهم علماء مع وجود آلافٍ مؤلّفةٍ من كتبهم وبحوثهم وتصنيفاتهم العلميّة في المكتبات والجامعات العلميّة والمراكز الأكاديميّة على مرّ التاريخ، فكيف يعدّ نفسه عالمًا بها؟! مع فقدانه أدنى تخصّصٍ أو بحوثٍ معتبرةٍ فيها! وإذا لم ير تلك العلوم الدقيقة والشريفة علمًا يستحقّ البحث فيه، فلم يسعى للبحث عنها والخوض فيها؟! وكان من الممكن له أن يلتزم الصمت ـ كما فعل معظم زملائه من علماء الأحياء في أنحاء العالم ـ وأن يكتفي ببحوثه العلميّة البيولوجيّة الّتي يتقنها جيّدًا، ويمكن أن ينفع العلم والناس بها، بدلًا من أن يورّط نفسه فيما لا يعلم، ويُحمّل نفسه ما لا طاقة له به؛ إذ لا يوجد أدنى ارتباطٍ بين العلوم الطبيعيّة البيولوجيّة الّتي يعلمها دوكينز، وبين تلك العلوم الإنسانيّة والعقليّة الّتي تحتاج إلى تخصّصٍ مستقلٍّ. وقد كنّا قد نقلنا في أثناء هٰذه المقدّمة قول الفيلسوف البريطانيّ المعروف سير أنتوني فلو، والّذي كان من أعاظم الملحدين، أنّه لا فرق بين علماء الأحياء وبائعي الآيس كريم في جهلهم بالفلسفة.

مقدمة المؤلف:

افتتح دوكينز مقدّمة كتابه بكلمةٍ شعريّةٍ منقولةٍ عن الروائيّ البريطانيّ المعاصر دوغلاس آدمز (*Douglas Adams*)، وهي:

«**ألا يكفي النظر لروعة الحديقة وجمالها... لماذا يجب علينا الاعتقاد بأنّ هناك جنيّاتٍ خلفها أيضًا؟!**»[1].

أقول: نحن هنا لا شأن لنا بنقد كلمات دوغلاس آدمز؛ لأنّه أديبٌ وشاعرٌ، ينبعث كلامه من عواطفه وخياله الرقيق، وليست غايته من حيث هو كذلك معرفة الحقّ أو الحقيقة، بل مجرّد جمال العبارة بنحوٍ يحرّك مشاعر الآخرين، وكما يُقال: «**إنّ الشعر أعذبه أكذبه**».

ولكنّ كلامنا مع المؤلّف الّذي استشهد بهذه العبارة الخياليّة الرومانسيّة في مقدّمة كتابٍ يبحث فيه عن أخطر قضيّةٍ مصيريّةٍ في حياة الإنسان، وهي قضيّة وجود المبدإ الإلهيّ لهذا العالم، وهو يزعم أنّه في مقام البحث عن الحقيقة، وهو بطبيعة الحال ما افتتح بها كتابه هنا لمجرّد إعجابه بها، بل لأنّها تعبّر بدقّةٍ عن طريقة تفكيره السطحيّ، ومزاجه النفسيّ الوهميّ، ودوافعه نحو الإلحاد، وفي نفس الوقت أرادها أن تكون بدايةً ساخرةً من المتدينيّن؛ لتشويه صورتهم أمام الآخرين، كما هو دأبه دائمًا في

---

(1) ص 4.

هٰذا الكتاب؛ ومن أجل ذٰلك يستوجب علينا من هٰذه الزاوية أن ننظر إلى هٰذه العبارة بجدٍّ، ونحللها بمرآة العقل السليم من الناحية المعرفيّة، فنقول:

أوّلًا: إنّ هٰذه العبارة تدعو بكلّ بساطةٍ إلى الاستمتاع بظواهر العالم، دون أيّ محاولةٍ للخوض في استكشاف أحكامه وحقائقه، وهي وإن كانت تنسجم مع طبيعة التفكير الخياليّ الشعريّ السطحيّ غير العلميّ، غير أنّها مرفوضةٌ من جانب أهل العلم والبحث والتدقيق، المعنيّين بالبحث العلميّ الفلسفيّ العميق.

ثانيًا: نحن نسأل ريتشارد دوكينز بوصفه باحثًا طبيعيًّا وعالم أحياءٍ كبيرٍ، إن كان يؤمن بهٰذا الكلام الشعريّ فلماذا أفنى عمره هو وزملاؤه من الطبيعيّين وعلماء الأحياء في البحث والتنقيب عن أسباب الظواهر الطبيعيّة، والغوص في أعماق الطبيعة إلى عالم الذرّة وما وراء الذرّة، ولم يكتفوا بالجلوس والاستمتاع بهٰذه الظواهر الطبيعيّة الخلّابة؟! بل اكتشفوا أنّ وراء هٰذا العالم الطبيعيّ الجميل طاقةً نوويّةً هائلةً ومدمّرةً، بناءً على المعادلة الشهيرة لإينشتاين: $E=MC^2$، أي أنّ الطاقة النوويّة الكامنة داخل هٰذه الأجسام الجميلة تساوي مقدار كتلتها في مربّع سرعة الضوء.

وأدّى هٰذا الاكتشاف المرعب إلى صنع القنبلة النوويّة المدمّرة، الّتي قتلت أكثر من 220 ألف إنسانٍ بريءٍ في هيروشيما وناكازاكي، هٰذا

بالإضافة إلى مئات الآلاف من المشوّهين لعدّة أجيالٍ لاحقةٍ، وما زال إنتاج الصواريخ الباليستيّة (*Ballistic Missiles*) والبيولوجيّة (*Biological Missiles*) والكيميائيّة (*Chemical Missiles*) ذات القدرة التدميريّة الهائلة يتضاعف؛ نتيجةً لهٰذه البحوث الطبيعيّة المتطوّرة، والجهود العلميّة الكبيرة الّتي يبذلها ريتشارد دوكينز وأمثاله من الفيزيائيّين وعلماء الأحياء.

ثالثًا: من حقّنا أن نسأل السيّد دوكينز مرّةً أخرى، لماذا لم يكتف هو بمشاهدة هٰذا العالم الجميل والاستمتاع بهٰذا النظام البديع وهو مرتاح البال؟ بل نجده قد سعى سعيًا حثيثًا في البحث والتفلسف عن حقيقة الكون ونشأته، وفي إبطال براهين الفلاسفة المثبتة لوجود الله ـ تعالى ـ كما في الفصل الثالث من هٰذا الكتاب، ثمّ تكلّف بعدها لإيجاد رؤيةٍ فلسفيّةٍ مادّيّةٍ بديلةٍ عن الرؤية الفلسفيّة الدينيّة، كما فعل في الفصل الخامس من الكتاب؛ كي ينفي وجود مبدإٍ إلٰهيٍّ وراء هٰذا العالم، وكرّس بقيّة حياته إلى اليوم في الترويج لرؤيته الفلسفيّة عن العالم، والاصطدام مع مليارات المؤمنين بالمبدإ الإلٰهيّ، وقد كان بوسعه أن يريّح نفسه من كلّ هٰذا التعب، ويرضى بأن يكون من اللا أدريّين (*Agnostics*).

رابعًا: إنّ روعة الإبداع والتصميم في نظر الأطفال والبلهاء، لا تعني شيئًا سوى ما تحدثه في خيالهم ونفوسهم من انفعالاتٍ جميلةٍ ومؤثّرةٍ، أمّا في نظر الإنسان البالغ العاقل، فهي تحرّك عقله للبحث العلميّ والفلسفيّ العميق عن هٰذا الصانع البارع والمهندس الحكيم، الّذي أخرج هٰذا

التصميم الرائع العظيم من العدم إلى الوجود؛ لكي يشكر نعمته، ويتعرّف على غايته، ويستضيء بنور هدايته في حياته في هٰذا العالم الواسع والمعقّد.

خامسًا: إنّ التعبير عن الله وملائكته المكرَّمين المدبّرين لهٰذا العالم بحكمته ـ تعالى ـ وعنايته، والحافظين لنظامه على أحسن صورةٍ، بالجنّ والشياطين هو أمرٌ مجحفٌ، ومخالفٌ للواقع تمامًا؛ لما أثبته الفلاسفة والحكماء بالبراهين العقليّة المتقنة، ودوكينز يعلم جيّدًا أنّ من يروّج لمثل هٰذه الخرافات والأوهام هم شرذمةٌ قليلةٌ من جهلة العوامّ الّذين نقلوا عقائدهم الوثنيّة والأسطوريّة إلى الدين، فليس من الحقّ والإنصاف أن نحمّل الدين الإلٰهيّ القويم ما ألصقه به بعض العوامّ المنتسبين إليه بخيالهم وأوهامهم المريضة.

سادسًا: إنّ ريتشارد دوكينز نفسه يصرّح في أحد لقاءاته التلفازيّة بأنّه لا يستبعد وجود بعض الكائنات الفضائيّة وراء تصميم هٰذا العالم البديع[1]، وهي خرافةٌ صريحةٌ لم يقم عليها أيّ دليلٍ علميٍّ أو فلسفيٍّ، كما أنّه يعلم جيّدًا من هم عبدة الشياطين الحقيقيّين، ومن يؤمن بوجود كائناتٍ خارقةٍ خارج هٰذا العالم، أو في باطنه، ولها أكبر التأثير على مجرياته، وهم من المؤسّسات والشخصيّات المتنفّذة في مراكز اتّخاذ القرار في

---

(1) *https://www.youtube.com/watch?v=H0A320svRB4*

الغرب، الّتي تمسك بمقاليد الأمور السياسيّة فيه. ومن أراد التوسّع فليراجع ما صرح به وزير الدفاع الكنديّ في البرلمان[1].

ثمّ قال دوكينز أيضًا في المقدّمة: «**هٰذا الكتاب المراد به لفت الانتباه لحقيقة أنّ الإلحاد تطلّعٌ واقعيٌّ وشجاعٌ ورائعٌ، ومن الممكن أن تكون ملحدًا سعيدًا ومتوازنًا، ومقتنعًا فكريًّا ومعنويًّا بشكلٍ كاملٍ**»[2].

أقول: وصفه للإلحاد بأنّه أمرٌ واقعيٌّ وشجاعٌ ورائعٌ، هو ـ وكما سيتبيّن من خلال البحث ـ أمرٌ مخالفٌ للواقع تمامًا؛ لأنّ الفكر الواقعيّ ينبغي أن يكون يقينيًّا أوّلًا، وهو يعترف بأنّ نفي المبدإ الإلٰهيّ هو الاحتمال الأكبر كما في الفصل الرابع من الكتاب، أي مظنونٌ وليس بيقينيٍّ، كما ينبغي أن يكون الاعتقاد الواقعيّ مبتنيًا على البراهين العقليّة القطعيّة كما بيّنّا ذٰلك في الأصل الأوّل من المقدّمة، وهو يبني إلحاده على فرضيّة (داروين)، وقد أثبتنا في الأصل الرابع عدم صلاحيّة الاستدلال بها أصلًا. أمّا وصفه للإلحاد بالشجاعة، فقد اختلط عليه الأمر بين الشجاعة والتهوّر؛ لأنّ الّذي ينكر وجود مبدإٍ إلٰهيٍّ لهٰذا الكون قامت عليه البراهين القطعيّة لعظماء الفلاسفة، لمجرّد أدلّةٍ ظنّيّةٍ، مع احتمال وجوده في الواقع عنده، ووجود عالمٍ آخر للحساب والجزاء بعد الموت، حتّى ولو كان

---

(1) https://www.youtube.com/watch?v=AzzqWHuqQvI

(2) ص 4.

احتماله عنده ضعيفًا، فإنّ قوّة المحتمل وخطورته عند العقل تستوجب التوقّف لتجنّب العواقب الوخيمة جدًّا عند وقوع هٰذا الاحتمال، كمن احتمل وجود سمٍّ مهلكٍ في طعامه، فإنّه يجتنّبه بالتأكيد مهما كان الاحتمال ضعيفًا.

فالإنسان الشجاع هو الّذي ينطلق في أفعاله من عقله، لا من هواه وردود أفعاله.

أمّا قوله إنّ الملحد يمكنه أن يكون سعيدًا ومتوازنًا، ففرقٌ كبيرٌ بين السعادة الوهميّة والحقيقيّة، فالّذي يتعاطى المخدّرات يشعر بسعادةٍ غامرةٍ رغم الضرر الشديد لصحّته، والمريض الّذي يتعاطى الدواء المرّ قد يشعر بالألم والمعاناة مع تحسّن صحّته وتماثله للشفاء، وقد يشعر مريض السرطان في مراحلة الأوّليّة بالراحة والسعادة، مع كون السرطان يتفشّى تدريجيًّا في جسده؛ ومن أجل ذٰلك ينصح الأطبّاء جميع الناس، حتّى الّذين لا يشعرون بأيّ مرضٍ أو خللٍ، بأن يقوموا بإجراء فحصٍ دوريٍّ (*Check up*)؛ من أجل اكتشاف الأمراض الخطيرة الكامنة، الّتي يمكن أن تهدّد حياة الإنسان في المستقبل. فالشعور بالصحّة هو أمرٌ غير الصحّة الواقعيّة، وكذٰلك الشعور بالسعادة فهو غير السعادة الواقعيّة.

وأيضًا قد يستمتع الطالب البليد باللعب واللهو طول العام الدراسيّ، ولٰكنّه يرسب في الامتحان في نهاية العام، ويفشل في حياته.

والحال أنّ الطالب المجدّ قد يتعب ويعاني في حياته الدراسيّة، ولكنّه يتفوّق وينجح في نهاية الدراسة. والأعمال بعواقبها يا سيّد دوكينز!

وقوله إنّ الملحد متوازنٌ، فالتوازن لا يتحقّق إلّا مع الانسجام الواقعيّ بين الإنسان ونفسه من جهةٍ، وبينه وبين الناس والعالم من جهةٍ أخرى، والّذي يستبدل بخالقه اللطيف الحكيم صانع الساعات الأعمى[1]، وينظر إلى عقله ووعيه الإنسانيّ وروحه المعنويّة السامية على أنّها مجموعةٌ من النبضات الكهربائيّة والتفاعلات الكيميائيّة (*Neuro-Transmmiters*)، ويشبّه الإنسان سيّد الكائنات بالجمادات والآلات الحاسبة، كيف يكون واقعيًّا متوازنًا؟!

ثمّ قال: «**تخيّل مع جون لينون**[2] **عالمًا بدون دينٍ، عالمًا بدون انتحاريّين، أو تفجيرات 11 أيلول، بلا تفجيرات لندن أو حملاتٍ صليبيّةٍ، بدون تقسيمٍ للهند أو حربٍ فلسطينيّةٍ إسرائيليّةٍ**»[3].

أقول: إنّ المغالطة الأساسيّة لدوكينز السارية في كلّ فصول هٰذا الكتاب، الّتي تخرجه تمامًا عن عنوانه (وهم الإله)، هو أنّه يتحدّث في أغلبه بلسان اللا دينيّين (*Deists*) لا الملحدين (*Atheists*)، فكتابه هٰذا

---

(1) عنوان كتابٍ لريتشارد دوكينز.

(2) مغنّي بيتلز مشهورٌ له أغنيةٌ باسم (تخيّل).

(3) ص 5.

المقصود منه نفي وجود المبدإ الإلٰهيّ أوّلًا وبالذات، لا نفي الدين، وإن كان نفي المبدإ يستلزم نفي الدين، ولٰكن دون العكس، فاللا دينيّون يؤمنون بوجود مبدإٍ إلٰهيٍّ حكيم خلق هٰذا الكون وصمّمه، ولٰكنّهم ينكرون الأديان كلّها، كما أنّ مئات الملايين من العلمانيّين (*Secularists*) من اليهود والنصارى والمسلمين الّذين يؤمنون بالله ورسله واليوم الآخر، يرون الدين مجرّد علاقةٍ شخصيّةٍ بين المؤمن وربّه، وأنّ الدين لا دخل له لا في السياسة ولا في الحياة الاجتماعيّة، ويعيشون تقريبًا نفس نمط الحياة الّتي يعيشها دوكينز، إذن فخصومه ليسوا فقط المؤمنين المتدينيّن، بل سائر اللا دينيّين والعلمانيّين.

فتركيزه الدائم خلال فصول كتابه على السلوك الشائن لبعض المتدينيّن المتطرّفين المنتسبين إلى الدين، أو على بعض المشاكل المنطقيّة لظواهر النصوص الدينيّة أو المنسوبة للكتب السماويّة، لكي ينفي بها وجود المبدإ الأوّل للكون؛ هو مغالطةٌ منطقيّةٌ صريحةٌ، وخروجٌ عن محلّ البحث الأصليّ.

ولٰكنّه كطبعه دائمًا لا يبالي بما يقول، أو إلى أين يذهب، والمهمّ عنده هو فرض رؤيته الإلحاديّة على الآخرين بشتّى الطرق التراجيديّة والكوميديّة، دون مراعاة أيّ قوانين أو ضوابط منطقيّةٍ أو علميّةٍ.

قال دوكينز في نهاية مقدّمته: «**إذا كان فعل الكتاب كما أتصوّره أنا، فإنّ القارئ المتديّن الّذي سيفتح هٰذا الكتاب سينهيه وقد أصبح ملحدًا**»[1].

وأنا أقول بكلّ تواضع: إذا كان فعل انتقادي وتفنيدي هنا لهٰذا الكتاب كما أتصوّره أنا، وكما هو في الواقع، فأنا مطمئنٌّ بإذن الله تعالى، بأن كلّ من سيقرأ هٰذا البيان الساطع من إخواني الشباب الأعزاء الّذين غرّر بهم دوكينز بهٰذا الكتاب، واستغلّ ظروفهم النفسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة المتدهورة، وأوقعهم في مستنقع الإلحاد، والّذين أكنّ لهم كلّ المودّة والعناية والشفقة، وأمدّ لهم يد العون والمساعدة؛ سينهون كتابي هٰذا وقد أصبحوا عقلاء واقعيّين مؤمنين بإلٰه الكون الحكيم، ولٰكن بشرط أن يحرّروا عقولهم أوّلًا من كلّ ما لحقها من أوهام ومغالطاتٍ وظنونٍ فاسدةٍ من جانب الملحدين، وأن يحرّروا أنفسهم وانفعالاتهم ثانيًا من كلّ العقد النفسيّة الّتي أصابتهم بحقٍّ، من الجهلة والحمقى والمتعصّبين والانتهازيّين من المنتسبين إلى الدين؛ ليكونوا باحثين عن الواقع والحقيقة بعقولهم، لا بأوهامهم وانفعالاتهم، وليقرأوا بتأمّلٍ وعنايةٍ كلّ الأصول المنطقيّة الستّة الّتي قدّمناها هنا، والّتي سنبني عليها نقدنا لهٰذا الكتاب، مع تمنّياتي القلبيّة للجميع بالتوفيق والرشاد.

---

(1) ص 9.




الفصل الأوّل

«غير مؤمن بعمقٍ»




الفصل الأوّل

«غير مؤمن بعمقٍ»

في الواقع أنا لا أرى في هٰذا الفصل أيّ مسألةٍ علميّةٍ تستحقّ التعليق، ولا أدري ما علاقته بالمسألة الرئيسة في هٰذا الكتاب، وهي نفي المبدإ الإلٰهيّ؟!

فبدلًا من أن يبدأ السيّد دوكينز كتابه بتأسيس أصولٍ علميّةٍ منطقيّةٍ يبني عليها مدّعاه في نفي المبدإ الإلٰهيّ ـ كما فعلنا نحن هنا ـ نجده يفتح موضوعاتٍ هي مجرّد قصصٍ وحكاياتٍ كثيرةٍ، يرويها عن أصدقائه أو من نسج خياله، قصصٍ وحكاياتٍ لا يصلح سردها إلّا في المقاهي العامّة (كافي شوب) لبسطاء الناس، أو التسلّي بها حول نار المدفأة في ليالي الشتاء الباردة، ولا علاقة لها من قريبٍ أو بعيدٍ بأصل الموضوع، أو بأسلوب البحث العلميّ المنطقيّ.

وهٰذا هو أسلوبه العامّ الساري في كلّ فصول الكتاب، فلا يمكن أن يكون هٰذا السلوك منه اتّفاقيًّا، ومن الواضح أنّ الدافع له وراء كلّ ذٰلك هو أوّلًا تشتيت ذهن القارئ للكتاب، بحيث يمنعه من التركيز على

هشاشة منطلقاته وادّعاءاته، وثانيًا من أجل دغدغة خيال ومشاعر القارئ بنحوٍ يدفعه إلى التعاطف مع أفكاره الإلحاديّة، والنفور من أفكار خصومه من المتديّنين.

ومن أجل ذلك فلن أتوقّف كثيرًا عند هذا الفصل، بل سأكتفي بالمواجهة بالمثل؛ لكي أبيّن له فقط ركاكة منطقه، وأنّه لا يجوز له أن يستعمل سلاحًا ذا حدّين، من الممكن أن ينعكس عليه.

قسّم دوكينز هذا الفصل إلى قسمين، وقد عنون الأوّل منه باسم **(احترامٌ مستحقٌّ)**، والثاني **(احترامٌ غير مستحقٍّ)**.

في **القسم الأوّل** حاول أن يتعزّز بأقوال بعض العلماء الملحدين، وعلى رأسهم إينشتاين، بعد أن نسبه كذبًا إلى الإلحاد

قال: «**الكثير من اللغط والحيرة سببه الفشل في التمييز بين ما نسمّيه الدين الأينشتايني من الدين الغيبيّ، استعمال إينشتاين لكلمة الله ـ وهو ليس الملحد الوحيد الّذي فعل ذلك ـ بتضرّعٍ، كان وما زال سببًا لسوء الفهم من العديد من الغيبيّين المتديّنين والمتلهّفين لسوء الفهم؛ ليستطيعوا الادّعاء بأنّ هذا العالم اللامع كان واحدًا منهم**»[1].

أقول: أوّلًا أنا لست في صدد إثبات تديّن أو إلحاد إينشتاين؛ لأنّه

(1) ص 16.

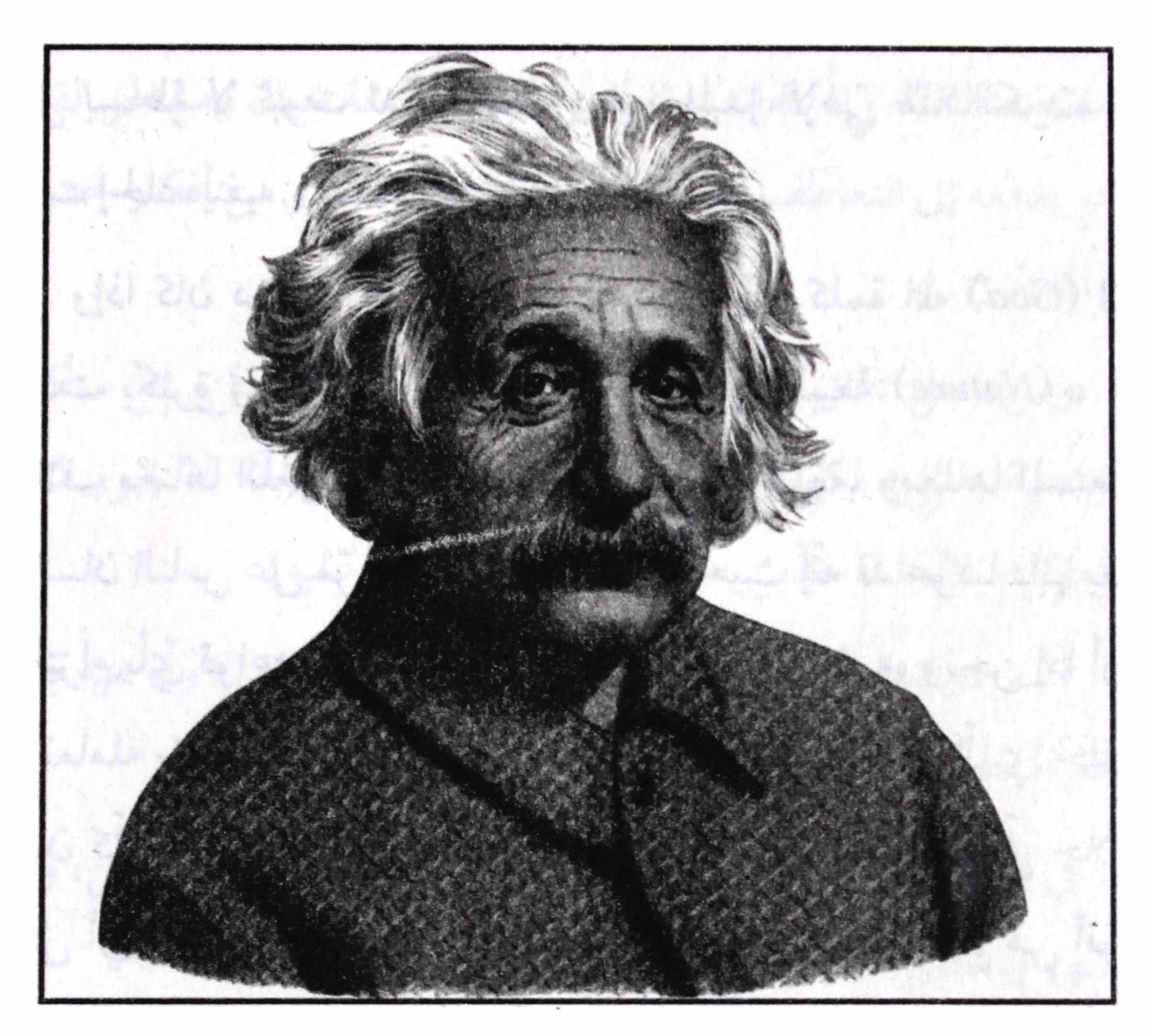
بكلّ بساطةٍ لا ثبوت تديّنه يثبت وجود المبدإ الإلٰهيّ لهٰذا الكون، ولا ثبوت إلحاده ينفيه.

وإذا كان دوكينز قد سمح لنفسه بأن يؤوّل كلمة الله (*God*) الّتي وردت بكثرةٍ في كلمات إينشتاين، بأنّها تعني الطبيعة (*Nature*) ، على خلاف معناها اللغويّ الموجود في كلّ قواميس اللغة، ومعناها المستعمل في لسان الناس على مرّ التاريخ؛ فهٰذا شأنه، حيث إنّه قد عوّدنا دائمًا بعدم الالتزام بأيّ قواعد منطقيّةٍ تحول بينه وبين تحقيق غرضه، ونحن إذا أردنا أن نعامله بالمثل، فيمكننا أيضًا أن ندّعي بأنّ معنى الطبيعة الّذي جاء في لسان كلّ العلماء الطبيعيّين الملحدين كان المقصود منها الله جلّ جلاله، وعلى أيّ حالٍ فمن أراد أن يتعرّف على حقيقة إيمان إينشتاين من أقواله الموثقة، فيمكنه مراجعة الموقع الأمريكيّ الموجود في الهامش[1]، الّتي يُفهم من مجموعها أن إينشتاين لم يكن ملحدًا، وأنّه كان يؤمن بنوعٍ من وحدة الوجود الإلٰهيّة (*Pantheism*)، أو كما يصرّح هو بنفسه، وكما نقل عنه دوكينز في الكتاب: (بأنني أؤمن بإلٰه سبينوزا).

وثانيًا: إن تعزّز هو ببعض العلماء والمفكرّين الملحدين، فنحن يمكننا أيضًا أن نتعزّز بالمئات من الفلاسفة والعلماء المؤمنين على مرّ التاريخ، وإلى

---

(1) http://www.stephenjaygould.org/ctrl/quotes_einstein.html



ألبرت إينشتاين (Albert Einstein) (1879 -1955)

عالم فيزياء ألمانيّ المولد، سويسريّ وأمريكيّ الجنسيّة، واضع النظريّة النسبيّة الخاصّة والنظريّة النسبيّة العامّة، وكانت هتان النظريّتان تشكّلان اللبنة الأولى للفيزياء النظريّة الحديثة. حاز إينشتاين على جائزة نوبل في الفيزياء عام 1921م، وقد أدّت استنتاجاته المبرهنة إلى تفسير العديد من الظواهر العلميّة الّتي فشلت الفيزياء الكلاسيكيّة في تفسيرها، حصلت بينه وبين نيلز بور مجموعةٌ من المناظرات العلنيّة في نظريّة ميكانيكا الكمّ، ويعدّان من أشهر مؤسّسيها، عرفت تلك المناظرات بـ (مناظرات بور - إينشتاين) وقد دوّن نيلز بور مجموعةً من تلك المناظرات في مقالة نشرها تحت عنوان «نقاشاتٌ في استيعاب مشاكل الفيزياء الذرّيّة». وعندما قال ماكس بورن إنّ الميكانيكا يمكن فهمها بالاحتمالات وليس بمحاولات العلماء لشرحها ضمن قوانين ثابتة، رفض إينشتاين هذا التفسير بشكل قاطع. وفي رسالة لماكس بورن عام 1926 كتب إينشتاين قائلاً: «أنا على قناعةٍ قطعيّةٍ أنّ الله لا يلعب النرد God doesn't play dice».

يومنا هٰذا، والّذين لا شكّ في إيمانهم وتديّنهم، أو على الأقلّ في عدم إلحادهم.

ولك أن تبدأ بأساطين الحكماء اليونانيّين الّذين أقاموا صرح الحكمة والعلم والفضيلة، وقطعوا دابر الشكّ والسفسطة، ونسفوا أسس الإلحاد والمادّيّة، كسقراط (Socrates) وأفلاطون (Plato) والمعلم الأوّل أرسطو (Aristotle)، ثمّ أفلوطين (Plotinus) وفرفوريوس (Porphyry)، وعظماء الفلاسفة والحكماء في العالم الإسلاميّ كالكنديّ والفارابيّ وابن سينا والطوسيّ والسهرورديّ، وابن رشدٍ وابن باجه وابن الطفيل، والسيّد الداماد والملا صدرا وغيرهم من الفلاسفة والحكماء إلى يومنا هٰذا.

وكذٰلك معظم العلماء الكبار الّذين قامت على أكتافهم الثورة العلميّة والصناعيّة في أوروبّا، والّتي نقلت أوروبّا من العصور الوسطى إلى العصور التكنولوجيّة الحديثة، من أمثال كوبرنيكوس (Nicolaus Copernicus) وجاليليو (*Galileo Galilei*) ومؤسّس الفيزياء الحديثة النابغة إسحاق نيوتن، وباسكال (*Blaise Pascal*) وبويل (*Robert Boyle*) وفاراداي (*Michael Faraday*) وماكسويل (*James Clerk Maxwell*)، ووليام تومسون (*William Thomson*) الّذي وصفه دوكينز

نفسه في هٰذا الكتاب بأنّه عمود الفيزياء البريطانيّة في القرن التاسع عشر[1]، ومندل، وباستور (*Louis Pasteur*)، وإينشتاين.

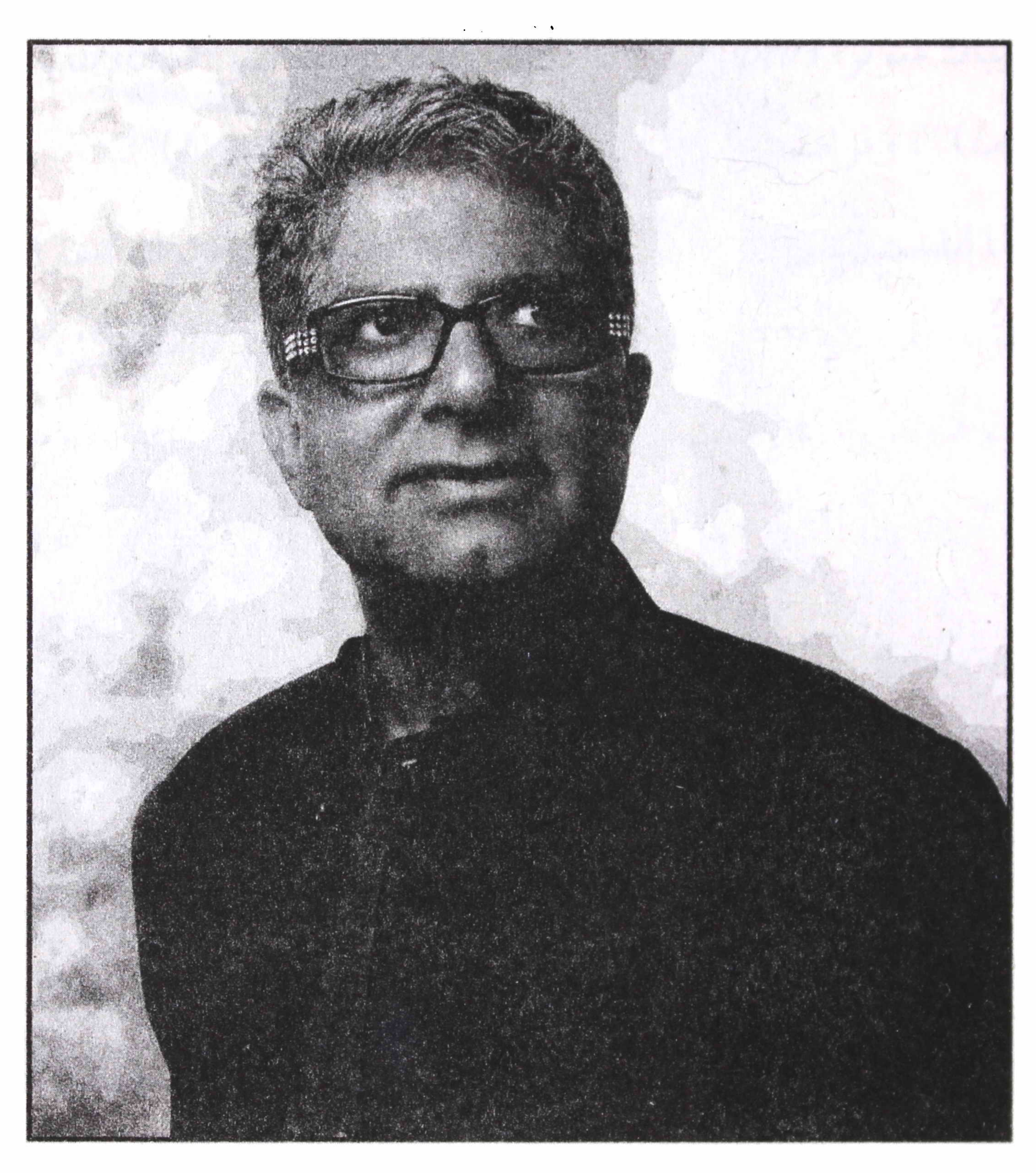
وكذٰلك العلماء النوابغ من أصحاب فيزياء الكمّ الذرّيّة والحاصلين على جوائز نوبل من أمثال ماكس بلانك، ونيلز بور وهيزنبرج وشرودينجر (*Erwin Schrödinger*) وبول ديراك، غيرهم من الكثير من العلماء المعاصرين.

وكذٰلك كبار علماء المخّ والأعصاب الحاصلين على جوائز نوبل العلميّة، والّذين قامت على أكتافهم معرفة بنية المخّ الإنسانيّ ووظائفه البيولوجيّة من أمثال روجر سبيري (*Roger Wolcott Sperry*) وويلدر بينفيلد (*Wilder Graves Penfield*) وتشارلز شرينجتون (*Charles Scott Sherrington*) وجون إكلز (*John C. Eccles*) وغيرهم.

كما أنّ معظم الحاصلين على جائزة نوبل العلميّة هم من العلماء المؤمنين كما جاء في كتاب (ذكرى 100 عام على جائزة نوبل).

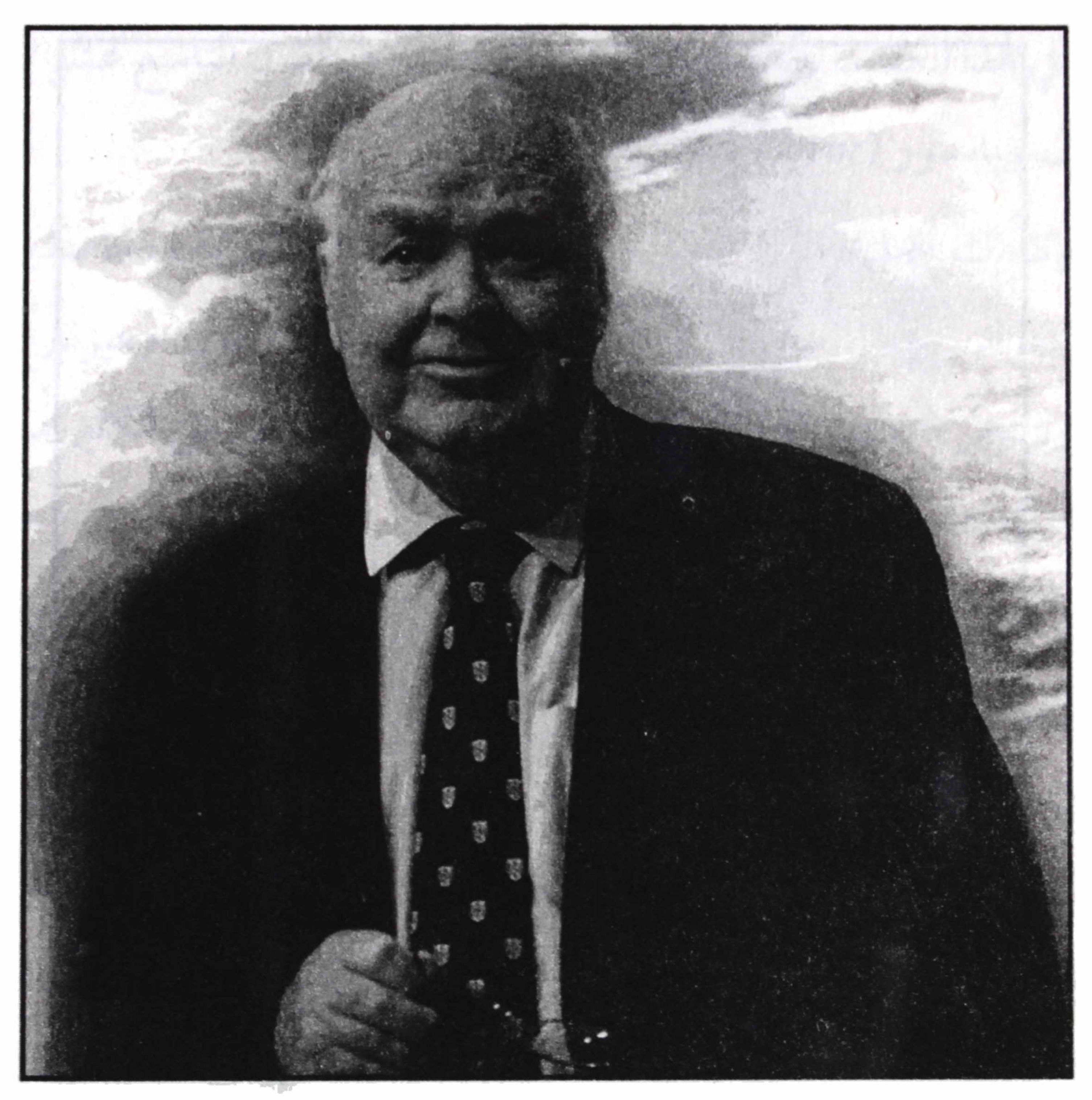
كما لا يمكن لدوكينز أن ينسى كبار علماء الأحياء والرياضيّين المؤمنين بالله الّذين تصدّوا له وأحرجوه بشدّةٍ في مناظراتهم العلميّة معه

(1) ص 101.



ديباك شوبرا (Deepak Chopra)

طبيبٌ وكاتبٌ أمريكيٌّ، هنديّ الأصل والمولد، من مواليد 1946. ألّف العديد من الكتب. وهو مؤسّس مركز شوبرا للصحّة في كاليفورنيا عام 1995، معروف بهجومه المستمرّ على الملاحدة من العلماء، واصفًا إيّاهم بأنّهم لم يقدّموا شيئًا مهمًّا يساهم في تحقيق السعادة للبشريّة، له كتابٌ هو روايةٌ عن نبيّ الإسلام ﷺ، وعن التغيير الهائل الّذي أحدثه في تشكيل العالم من خلال الأبعاد الروحيّة والأخلاقيّة الّتي ينبغي أن يتعرّف عليها العالم الغربيّ، أسمى كتابه (محمّدٌ.. قصّة خاتم الأنبياء Muhammad, A Story of the Last Prophet).



جون كارسون لينكس (John Carson Lennox)

عالمٌ بريطانيٌ في الرياضيّات وفلسفة العلوم من مواليد 1945، ويعدّ مؤيّدًا للمسيحيّة، ويعمل أستاذًا في الرياضيات في جامعة أكسفورد، وهو محاورٌ وكاتبٌ معروف في قضيّة العلاقة بين العلم والإيمان.
شارك في العديد من المناظرت العامّة ضدّ أشخاص مثل ريتشارد دوكنز، وهتشنز ولورنس كراوس، ومايكل شريمر، وفي العام 2007 ناظر لينكس دوكنز في جامعة آلاباما في بيرمنغنهام (University of Alabama at Birmingham) بخصوص ما طرحه في كتابه (وهم الإله)، ثمّ تابع لينكس ودوكنز النقاش في 2008 في كلية ترنتي في أوكسفور (Trinity College, Oxford)؛ لتتمّة بقيّة النقاط التي لم تتداول في النقاش السابق.

مثل ديباك شوبرا (*Deepak Chopra*)[1] وجون لينوكس (*John Carson Lennox*)[2]، وفرانسيس كولينز (*Francis Sellers Collins*)[3].

أمّا القسم الثاني من هٰذا الفصل الّذي وضعه تحت عنوان احترامٌ غير مستحقٍّ، فقد كرّسه كعادته في السخريّة من الدين والمتدينيّن، حيث يتعجّب فيه من هٰذا الاحترام والتقديس المتميّز للدين دون غيره، وهو أمرٌ - كما ذكرنا مرارًا - لا علاقة له بأصل موضوع الكتاب، وهو نفي المبدإ الإلٰهيّ، ولٰكنّه يلجأ إليه دائمًا لتحريك عواطف القارئ، والتأثير على مشاعره بحيث يؤهّله بعد ذٰلك لقبول أدلّته وادّعاءاته الواهية في نفي المبدإ الإلٰهيّ.

قال: «لا أفهم سرّ هٰذه الامتيازات غير المنطقيّة الّتي يتمتّع بها الدين في ما نسمّيه بمجتمعاتنا العلمانيّة!

على كلّ السياسيّين أن يعتادوا رؤية رسوم ساخرةٍ لوجوههم، ولا أحد يهتزّ للدفاع عنهم، فما هو الشيء المميّز للدين، والّذي يجعلنا نعطيه نوعًا فريدًا من الاحترام؟!»[4].

---

(1) *https://www.youtube.com/watch?v-pMv4XK38ZO8*

(2) *https://www.youtube.com/watch?v-1TmsMRtPICY*

(3) *https://www.youtube.com/watch?v-JPxGnN7RV1Y*

(4) ص 31.

أقول: إنّ حالة الاحترام يا سيّد دوكينز الموجودة لدينا جميعًا تجاه بعض الأشخاص، إنّما مرجعها إلى مقدار تعظيمنا لهم، فكلّما ازددت درجة التعظيم ازدادت درجة الاحترام، وهٰذه حالةٌ نفسانيّةٌ عامّةٌ يفهمها علماء النفس، كما يفهمها دوكينز جيّدًا.

ومن هنا نسأل دوكينز نفسه، هل احترامك وتقديرك لوالديك، كاحترامك لأصدقائك؟! وهل تقبل أن يسخر أحدٌ من والديك كما تقبل أن يسخر البعض من زملائك؟! والجواب واضحٌ، لأنّ الوالدين لهما منزلةٌ ومكانةٌ خاصّةٌ وعظيمةٌ عند كلّ إنسانٍ، طالما كان من أبناء الحلال. وهل احترامك يا دوكينز لأساتذتك الّذين علّموك في الجامعة، كاحترامك لتلامذتك الّذين علّمتهم؟ وهل احترامك لزملائك من العلماء الفيزيائيّين، كاحترامك لعلماء الدين الّذين تصفهم دائمًا بالجهلة والمتخلّفين، مع أنّهم بشرٌ مثلك، ولهم سمعتهم وكرامتهم؟ وهٰذا أمرٌ نتفهّمه منك جيّدًا، وسببه واضحٌ، وهي رؤيتك الحسّيّة التجليليّة الخاصّة للفيزيائيّين، دون رجال الدين؛ ولذٰلك نجدك تتأذّى بشدّةٍ لاضطهاد العلماء الطبيعيّين على مرّ التاريخ، ولكلّ إساءةٍ يتعرّضون لها، ولا تبالي بما تعرّض له رجال الدين، بل ولا حتّى الأنبياء من الظلم والاضطهاد على أيدي الوثنيّين والملحدين.

والمؤمنون بصفةٍ عامّةٍ يا سيّد دوكينز، سواءٌ كان إيمانهم واقعيًّا أو وهميًّا كما تزعمون، فإنّهم يرون أنّ ما يؤمنون به من إلٰهٍ وخالقٍ ورازقٍ

عظيمٍ، وكذٰلك من أنبياء ورسلٍ معصومين، ومنزّهين، هي موجوداتٌ لها منزلتها الخاصّة جدًّا، وتستحقّ أعظم درجات الاحترام والتقديس، ولا يمكن أن نتوقّع منهم بناءً على رؤيتهم الدينيّة أن يُعاملوا إلٰهم وأنبياءهم، كما يعاملون سائر الناس؛ لأنّ ذٰلك سيكون خلاف معتقداتهم الّتي يؤمنون بها. نعم أنت ومن هو مثلك ممّن لا يرى في الإلٰه الخالق إلّا كونه موجودًا وهميًّا، ويرى الأنبياء مجرّد أشخاصٍ مدّعين وخدّاعين، ولا يرى الدين إلّا نوعًا من المرض والجنون، فلا نتوقّع منكم بطبيعة الحال أدنى احترامٍ للرموز الدينيّة، وهو أمرٌ ينسجم تمامًا مع رؤيتكم المادّيّة.

ولٰكن في الوقت نفسه ينبغي أن يراعي الإنسان العاقل هٰذه القدسيّة الموجودة في نفوس المؤمنين، حتّى ولو كانت وهميّةً، وقد سمعنا أنّ ملكة بريطانيا العظمى عندما سافرت إلى الهند، وشاهدت بقرةً أمامها، نزلت من سيّارتها، وأظهرت كامل الخشوع والاحترام لها؛ لأنّ هٰذه البقرة، وإن كانت مجرّد حيوانٍ في نظرنا ونظرها، بيد أنّها إلٰهٌ مقدّسٌ عند الهنود، فينبغي احترامها احترامًا لمشاعرهم.

وفي النهاية أرجو أن يكون ما قدّمناه كافيًا لتنبيهكم على تميّز الرموز الدينيّة عن غيرها من الناس، وأنّ المسألة ليست لغزًا محيّرًا كما تظنّون.




الفصل الثاني

«فرضيّة الإله»




الفصل الثاني

«فرضيّة الإلٰه»

يفتتح دوكينز هٰذا الفصل ـ وكما عوّدنا دائمًا ـ بنقل بعض أقوال الساخرين من الدين ومن المبدإ الإلٰهيّ، من أمثال توماس جيفرسون (*Thomas Jefferson*) الرئيس الأمريكيّ السابق، ومؤسّس الحزب الديمقراطيّ، وهو من أكبر رموز الماسونيّة العالميّة في القرن التاسع عشر، وعضوٌ بارزٌ في جمعيّة المتنوّرين، ومن المتآمرين الّذين فتحوا أبواب السياسة والاقتصاد على مصراعيها أمام نفوذ الجمعيّات الماسونيّة، وتسلّطها على المؤسّسات الأمريكيّة، كما يشرح ذٰلك الكاتب الأمريكيّ المعروف مايرون فاغان (*Myron. C. Fagan*)[1].

ونحن لا شأن لنا بمسرحيّات دوكينز الكوميديّة؛ لأنّ مثل هٰذه الأمور غير العلميّة لا تستحقّ عناء الردّ عليها، وإن كان من الممكن جدًّا مواجهتها بكوميديا مضادّةٍ، كما تعلمون وكما يعلم دوكينز ذٰلك أيضًا،

---

(1) مخطّط المتنوّرين، ص 14.

ولكن ليس هذا شأننا.

ثمّ يقول بعد ذلك: **«هذا الكتاب سيدافع عن وجهة نظرٍ أخرى، ألا وهي، أيّ قدراتٍ على الخلق بتعقيدٍ كافٍ أو بتصميم أيّ شيءٍ، لا تأتي إلّا نتيجة تراكمٍ تدريجيٍّ طويل الأمد لعمليّةٍ تطوّريّةٍ، وأيّ تطوّراتٍ للقدرات الخلقيّة يجب أن تكون بالضرورة قد حصلت في وقتٍ متأخّرٍ من تاريخ الكون، وبالتالي لا يمكن أن تكون مسؤولةً عن تصميمه، وبهذا المعنى فإنّ الإله سيكون وهمًا»**[1].

أقول: إنّ الوهم الرئيسيّ الّذي يهيمن على ذهنيّة دوكينز، وتفكيره خلال معظم فصول هذا الكتاب، والّذي دعاه لقبول فرضيّة التطوّر لداروين كبديلٍ لنظريّة المبدإ الإلهيّ في نشأة الكون، وهو ما أرجو أن يتنبّه إليه القارئ الكريم، هو أنّه يتوهّم أنّ المحالات العقليّة إنّما تمتنع فقط إذا كانت بنحوٍ كبيرٍ ودفعيٍّ، ولكنّها يمكن أن تتحقّق في الواقع إذا كانت على نحوٍ صغيرٍ وتدريجيٍّ، وهو حكمٌ وهميٌّ بامتيازٍ. فعلى سبيل المثال، فإنّ خروج الفيل من خليّةٍ صغيرةٍ بنفسه دفعةً واحدةً، أو في زمانٍ قصيرٍ أمرٌ محالٌ عند دوكينز، ولكنّ خروج النملة بنفسها من خليّةٍ صغيرةٍ بنحوٍ تدريجيٍّ خلال ملايين السنين أمرٌ ممكنٌ جدًّا!

---

(1) ص 33.

ولكن بناءً على ما بيّنّاه في الأصل الثاني، من استحالة خروج الشيء بنفسه من العدم إلى الوجود أو من القوّة إلى الفعل، فإنّ هذا أمرٌ محالٌ في نفسه؛ لاستلزامه اجتماع النقيضين مباشرةً، وهٰذا الامتناع لا علاقة لها البتّة بالكمّيّة أو الكيفيّة، أو الزمان والمكان. هٰذا بالإضافة إلى أنّ نظريّة داروين، لا علاقة لها أصلًا ببيان مبدأ الكون أو الحياة، وإنّما تتعلّق بكيفيّة تطوّر الأنواع الحيّة من خليّةٍ واحدةٍ، كما بيّنّا في الأصل الرابع.

ثمّ يطرح دوكينز بعد ذٰلك سؤالًا غريبًا تحت عنوان تعدّد الآلهة، فيقول: «**ليس من الواضح لماذا يعدّ الانتقال من نظامٍ تعدّديٍّ للآلهة إلى التوحيد خطوةً تطوّريّةً بشكلٍ بديهيٍّ واضحٍ لا يحتاج إلى نقاشٍ؟!**» [1]، ثمّ ينقل عن البعض ويصفه بالنباهة قوله: «**إنّ التوحيد بنفسه سيصاب بنفس نكبة إنقاص عدد الآلهة واحدًا آخر ليصبح إلحادًا**»[2].

يعني يريد أن يقول إنّ الإلحاد أسهل مؤونةً من التوحيد؛ لأنّ التوحيد قد حذف آلهةً كثيرةً ومتعدّدةً، والإلحاد لم يحذف إلّا إلٰهًا واحدًا!

وأنا أترك للقارئ الكريم التعليق على هٰذه المهزلة الفكريّة، حيث أصبحت الأدلّة العلميّة عند دوكينز من باب حمل الأثقال، ويغفل أو يتغافل عن أنّ الأدلّة العقليّة القطعيّة الّتي أثبتت وجود المبدإ الإلٰهيّ، هي

(1) ص 33.

(2) الصفحة نفسها.

الّتي أثبتت كونه واحدًا، كما بيّنّا في الأصل الثاني، حيث تتنافى التعدّديّة مع الطبيعة الإلٰهيّة للخالق تعالى.

ثمّ استمرّ دوكينز بعد ذٰلك كعادته في نقل أقوال الساخرين من الدين والمبدإ الإلٰهيّ، وفي مقدّمتهم زعيم المتآمرين الماسونيّين توماس جيفرسون، وهي كلّها مملوءةٌ بالسباب والسخريّة من الدين والمتدينيّن. وأنا في الواقع لا أدري ما علاقة كلّ هٰذه الأقوال والقصص والحكايات بأصل البحث المتعلّق بنفي المبدإ الإلٰهيّ، وهل يعدّ دوكينز اعتقادات أمثال هٰؤلاء الأشرار والحاقدين وأقوالهم دليلًا منطقيًّا على نفي المبدإ الإلٰهيّ الحكيم؟!

ولٰكنّه أوردها، وأفرط في نقلها من أجل تنفير القارئ من الدين والمبدإ الإلٰهيّ، وهي مغالطةٌ وسفسطةٌ صريحةٌ، بل هي سبيل العاجز.

وتحت عنوان: (هل يستطيع العلم أن ينفي وجود الله؟) وفي نقده الساخر لكلام عالم الأحياء اللا أدريّ (*Agonist*) ستيفان جاي جولد (*Stephen Jay Gould*) لقوله: «**أقولها لكلّ الزملاء وللمرّة المليون، العلم بكلّ بساطةٍ لا يستطيع الحكم في قضيّةٍ إذا ما كان الله قائمًا على الطبيعة، فلا نؤكّده ولا ننفيه، بل بكلّ بساطةٍ نقول إنّه ليس لدينا كعلماء القدرة للتعليق على هٰذا الموضوع**».

فيقول دوكينز: «**لماذا لا يحقّ لنا التعليق على الله بصفتنا علماء؟ فإنّ كونًا**

مع خالقٍ مشرفٍ عليه، سيكون حتمًا نوعًا مغايرًا للكون بدون خالقٍ، لماذا الحكم بأنّ هٰذا ليس سؤالًا علميًّا؟»[1].

أقول إنّ هٰذا الجواب من دوكينز يكشف عن جهله الشديد بأصول مناهج البحث العلميّ، وعن جهله بموضوعات العلوم الفيزيائيّة والبيولوجيّة، مع كونه عالما بيولوجيًّا معروفًا!

فقد بيّنا في الأصل الرابع حدود صلاحيّة المنهج الحسّيّ التجريبيّ المستعمل في العلوم الطبيعيّة، والّذي يعتمد قبل كلّ شيءٍ على تكرار المشاهدات الحسّيّة، وبالتالي انحصار أحكامه في الموضوعات المادّيّة المحسوسة، ولا سبيل له إلى إثبات أو نفي الموضوعات الميتافيزيقيّة غير المحسوسة، الّتي تقع فقط في نطاق العقل البرهانيّ التجريديّ. ومن المعلوم عند الكلّ أنّ موضوع علم الفيزياء العامّة هو ظواهر الأجسام الطبيعيّة، وموضوع علم الأحياء هو الأجسام الحيّة، فكيف لعالمٍ فيزيائيٍّ كستيفن هوكنج مثلًا، أو عالمٍ بيولوجيٍّ كالسيد دوكينز أن يسوّغ لنفسه من حيث هو كذٰلك، أن يبحث عن خالق الكون غير المحسوس بالمنهج العلميّ الحسّيّ؟! وهل هٰذا إلّا نوعٌ من الجنون؟! فإما أن يكون دوكيز جاهلًا بموضوع علمه ومنهجه، أو يكون باحثًا عن إلٰهٍ مادّيٍّ وهميٍّ في

---

(1) ص57

ذهنه، وكيف يكون خالق الطبيعة من الطبيعة؟!

نعم يمكن لأيّ إنسانٍ عاقلٍ أن يتأمّل في الطبيعة، وفي هٰذا النظام البديع المطّرد، والقوانين الطبيعيّة الثابتة، والعناية الفائقة بالكون والإنسان؛ ليستنتج بكلٍ سهولةٍ وجود مهندسٍ ذكيٍّ وخالقٍ عظيمٍ لهٰذا العالم، وهٰذا نوعٌ من التأمّل الفلسفيّ الكلّيّ في الطبيعة للتعرف على حقيقتها ومبدئها البعيد، وليس تأمّل فيزيائيٍّ سطحيٍّ للبحث عن الأسباب القريبة للظواهر الطبيعيّة. وقد سبق وأن نقلنا عن الفيلسوف البريطانيّ الملحد سابقًا سير أنتوني فلو قوله: «**فعند دراسة التفاعل بين اثنين من الأجسام المادّية، على سبيل المثال، أو اثنين من الجسيمات ما دون الذرّة، فإنّك تتحدّث في العلوم، و عندما تسأل كيف وُجدت تلك الجسيمات ما دون الذرّة ـ أو أيّ شيءٍ مادّي ـ ولماذا، فأنت تتحدّث في الفلسفة. عندما تستخرج استنتاجات فلسفية من البيانات العلمية، فأنت عندئذٍ تفكّر كفيلسوف**».

ثمّ يقول: «**فالفيلسوف هو الّذي يخرج من المعلومات العلميّة باستنتاجاتٍ معرفيّةٍ، وربما لا يعرف الكثيرون من علماء الأحياء عن هٰذه الاستنتاجات أكثر ممّا يعرف بائع الأيس كريم عن القواعد الّتي تحكم البورصة وقوانين السوق الحرّة**»[1].

---

(1) رحلة عقلٍ، ص 76.

ثمّ يروي دوكينز كلمات الفيزيائيّ النابغة في جامعة كامبريدج مارتين ريس (*Martin John Rees*) عندما يقول: «**السؤال البارز والغامض عن سبب الوجود بشكلٍ عامٍّ، وعمّا ينفخ الحياة في المعادلة الكونيّة، ويجعلها حقيقةً، سؤالٌ كهٰذا لا يقع في نطاق العلم، بل هو في مجال الفلاسفة وعلماء الدين**»[1].

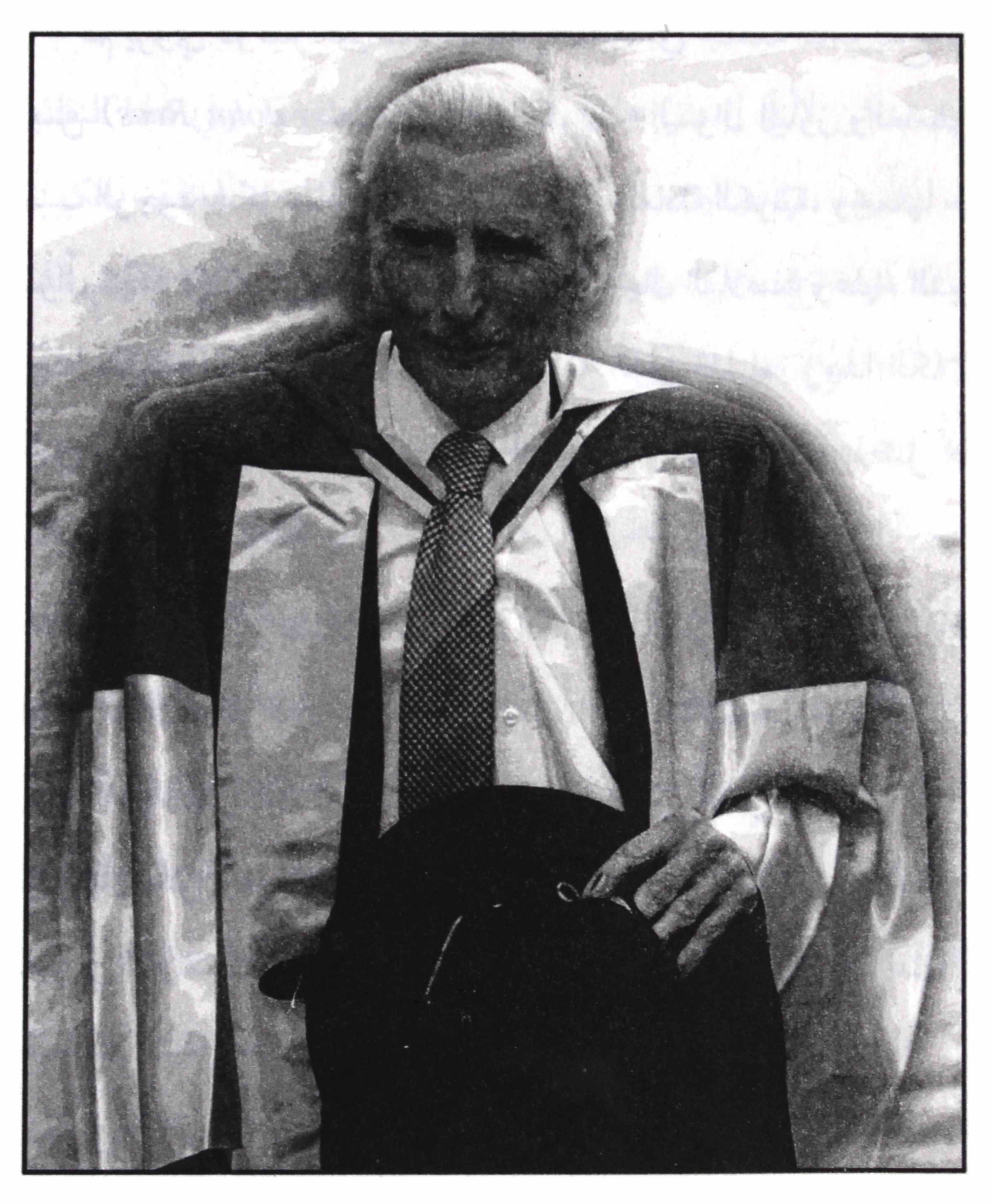
وهٰذا الكلام شبيهٌ بكلام سير أنتوني فلو الّذي نقلناه، وهٰذا الكلام هو الّذي ينبغي أن يصدر عن العلماء الحقيقيّين، وهم الأكثريّة بفضل الله، لا المنتسبين إلى العلم.

ويعلّق دوكينز بصلافةٍ على هٰذا الكلام العلميّ المتين بقوله: «**ولٰكن أنا أفضّل القول إنّه لو كان خارج نطاق العلم، فهو بالتأكيد خارج نطاق الدين... وشيءٌ ما يدفعني لأن أعجب من السبب الحقيقيّ الّذي يعطي الحقّ لرجال الدين بأن يكون لديهم نطاقٌ أساسًا! ما هي مجالات الخبرة الّتي يقدّمها علماء الدين في الدراسات الكونيّة العميقة، الّتي لا يستطيع العلماء الإجابة عنها؟!**»[2].

---

(1) ص 58.

(2) الصفحة نفسها.



مارتن جون ريس (Martin John Rees) ولد سنة 1942م

عالمٌ بريطانيٌّ في الكونيّات والفيزياء الفلكيّة، وهو فلكيٌّ ملكيٌّ منذ عام 1995، حاصل على الماجستير من كلية ترينيتي في كامبرج (Trinity College, Cam-bridge)، كان رئيس الجمعيّة الملكيّة (2005 - 2010)م.

أقول: قوله هٰذا يكشف عن جهله أيضًا بحقيقة الدين والعلوم الدينيّة، ونحن كنّا قد بيّنا فلسفة الدين في الأصل الخامس، وقلنا إنّ الدين ليس هو ـ كما يتوهّم دوكينز ـ مجرّد القصص والأساطير الخرافيّة الّتي يرويها عامّة الناس، فإنّها بهٰذا النحو ليست علمًا، بل هي شعوذةٌ وخرافةٌ، بل الدين الأصيل هو الرؤية الكونيّة الفلسفيّة التفصيليّة الواقعيّة، ومنظومة القيم الأخلاقيّة الإنسانيّة الّتي جاء بها وحي السماء، وأثبت أصولها الفلاسفة بالبراهين العقليّة في علم الفلسفة وعلم الأخلاق الفلسفيّ؛ فالدين الأصيل والعلوم الدينيّة الحقيقيّة قائمةٌ على أصولٍ ومبادئ عقليّةٍ فلسفيّةٍ واقعيّةٍ ومتينةٍ.

ثمّ يعود ويكرّر هنا أيضًا نفس النغمة السابقة الكاشفة عن جهله بأصول العلم ومبادئه الأوّليّة، عندما يدّعي أنّ العلم يبحث عن حقائق الكون العميقة فيقول: «**الكليشة المتكرّرة بمللٍ وتقول إنّ العلم يبحث في أسئلةٍ من نوع كيف، بينما الدين هو المجال الوحيد المهيّأ للإجابة عن لماذا، وما هو تعريف (السؤال لماذا) بحقّ السماء؟ لا يمكن اعتبار كلّ عبارةٍ تبدأ بكلمة "لماذا"، سؤالًا شرعيًّا**»[1].

---

(1) الصفحة نفسها..

أقول: إنّ الفرق الفارق بين العلم من جهة والفلسفة والدين من جهةٍ أخرى، هو أنّ العلم يبحث عن العلل الطبيعيّة القريبة للظواهر الطبيعيّة في هٰذا العالم، أو بعبارةٍ أخرى عن كيفيّة نشوئها، بالمنهج الحسّيّ التجريبيّ، كالبحث عن أسباب الزلازل والبراكين، وكيفيّة نشوء الأمراض من أسبابها القريبة، وهٰذا هو أساس ما يسمّونه بالمنهج العلميّ الّذي روّج له فرانسيس بيكون، ولوك، وبرتراند رسل، والوضعيّة المنطقيّة، وحلقة فيينا في القرون الأخيرة، وسدّوا باب البحث عمّا وراء الأسباب الطبيعيّة القريبة، وعدّوا البحث عن العلل الفاعليّة الميتافيزيقيّة والعلل الغائيّة من المباحث الخرافيّة الّتي هي من مخلّفات القرون الوسطى، وهٰذا أمرٌ يعرفه دوكينز جيّدًا، ويقرّه في أكثر من موردٍ في كتابه هٰذا.

أمّا الفلسفة العقليّة الإلٰهيّة والدين الصحيح التابع لها فهما معنيّان بالبحث عن عالم الغيب والميتافيزيقا، ويبحث الفيلسوف عنها بالمنهج العقليّ البرهانيّ التجريديّ، إذ يبحث عن الأسباب البعيدة الّتي تمثّل المبادئ الأولى لأصل هٰذا العالم، ولأصل الحياة فيه، وعن حقائق الأشياء في نفسها، وهي كلّها أمورٌ غير خاضعةٍ للبحث العلميّ التجريبيّ القائم على المشاهدة الحسّيّة السطحيّة، الّتي تبقى سطحيّةً وإن نفذت إلى أعماق الذرّة أو نهاية العالم بالأجهزة الحديثة، فشتّان بين نفوذ النظر الحسّيّ البصريّ بالاستعانة بالأجهزة الرصديّة، وبين نفوذ النظر العقليّ!

ومّما تقدّم يتّضح المقصود من أنّ العلم يبحث عن (كيف هو؟) أي عن الأسباب الطبيعيّة القريبة، وأنّ الفلسفة والدين يبحثان عن (لماذا هو؟) أي الأسباب البعيدة غير الطبيعيّة.

أمّا قوله إنّه لا يمكن اعتبار كلّ عبارةٍ تبدأ بـ (لماذا) سؤالًا شرعيًّا، فكلامٌ صحيحٌ، ولٰكن طبيعة المقصود من السؤال بـ (لماذا) هو الّذي يعيّن كونه علميًّا أو فلسفيًّا دينيًّا، فإن كان يسأل عن الأسباب القريبة للظواهر الطبيعيّة، فهو سؤالٌ علميٌّ، لا علاقة له بالدين أو الفلسفة، وأمّا إن كان يسأل عن الأسباب البعيدة الميتافيزيقيّة، فهو سؤالٌ فلسفيٌّ دينيٌّ، لا علاقة له بالعلم ولا بعلماء الطبيعة يا مستر دوكينز.

ثم يعود دوكينز ليناقض نفسه، ويعترف في الفصل نفسه بعدم أهليّة العلم في بيان القيم الأخلاقيّة!

يقول: «**نتّفق جميعًا على الأقلّ على أنّ أهليّة العلم لنصحنا فيما يتعلّق بالقيم الأخلاقيّة فيها مشكلةٌ أيضًا، ولٰكن هل يريد "جولد" حقًّا أن يعطي الحقّ للدين للفصل بين الجيّد والسيّئ... وأيّ دينٍ سنصغي إليه في هٰذه الحالة؟**»[1].

أقول: اعترافه بعجز العلم عن بيان القيم الأخلاقيّة، يجعله أعجز عن

---

(1) ص 59.

بيان الرؤية الكونيّة الكلّيّة عن حقيقة المبدإ والمعاد، وحقيقة الإنسان؛ لأنّ ملاك العجز فيهما واحدٌ، وهي كونها أمورًا معنويّةً تقع وراء الحسّ والتجربة، مع كون الأخلاق مبادئ عمليّةً تتعلّق بسلوكٍ ظاهريٍّ يمكن مشاهدته بالحسّ، على خلاف الرؤية الكونيّة الفلسفيّة.

أمّا سؤاله عن أيّ دينٍ يمكن أن نرجع إليه، فهو كما بينّا في الأصل الخامس، الدين الموافق في أصوله ومبادئه للأصول العقليّة الّتي ثبتت في الفلسفة الإلٰهيّة، وليس أيّ دينٍ أو مذهبٍ أو قراءةٍ يدّعيها أصحابها على خلاف العقل، فإنّها في حكم الخرافة.

ثمّ عاد دوكينز مرّةً أخرى إلى نقده الساخر للدين والمتديّنين، تحت عنوان **"تجربة الدعاء الكبرى"**

وقبل مناقشة كلامه، ينبغي الإشارة إلى منهجيّته الفكريّة الخاطئة وغير المنطقيّة في التعامل مع الفكر الفلسفيّ أو الدينيّ، الّتي تسري في كلّ فصول الكتاب، ولا تخدع إلّا السذّج من العوام والبسطاء، ولٰكنّها لا تثير إلّا السخرية عند العلماء والخبراء.

من البديهيّ أنّ طبيعة موضوع أيّ علمٍ تحدّد طبيعة المنهج الباحث عنه، فالموضوعات المادّيّة كالفيزياء تحتّم علينا استعمال المنهج الحسّيّ التجريبيّ، والموضوعات التاريخيّة لا يمكن البحث فيها إلّا عن طريق

المنهج النقليّ، والموضوعات الفلسفيّة الميتافيزيقيّة لا يمكن البحث عنها إلّا بالمنهج العقليّ التجريديّ المسانخ لها، وهٰذه أمورٌ يعلمها كلّ إنسانٍ مطّلعٍ على مبادئ المنطق.

ونحن نسأل السيّد دوكينز: هل تقبل أن ينقد أحدٌ من علماء الدين نظريّاتك العلميّة البيولوجيّة على أساس أنّها مخالفةٌ للنصوص الدينيّة، كما كانت تفعل الكنيسة في الماضي ـ للأسف ـ مع العلماء الطبيعيّين مثل جاليليو وكوبرنيكوس؟ فإذا كان الجواب بالنفي، فعلماء الدين أيضًا لا يقبلون منك أن تنتقد آراءهم الدينيّة الغيبيّة، بمنهجك الحسّيّ المادّيّ، فإذا لم تعترف بأنّ العلوم الدينيّة علومٌ معتبرةٌ، فهٰذا تعصّبٌ وتعنّتٌ لا دليل لكم عليه، بل إنّنا قد أثبتنا في الأصول العقليّة السابقة بأنّ تلك العلوم الدينيّة ـ وإن كانت نقليّةً في نفسها ـ تقوم على أسس فلسفةٍ عقليّةٍ عميقةٍ، مبتنيةٍ على المنهج العقليّ القويم، الّذي هو أقوى وأمتن من المنهج الحسّيّ التجريبيّ.

والآن نعود إلى كلام دوكينز عن الدعاء، يقول: «**إحدى التجارب المسلّية ـ إن لم نقل المثيرة للشفقة ـ عن المعجزات، كانت تجربة الدعاء الكبرى،**

هل تساعد الصلاة المرضى على شفائهم؟»[1].

ينقل دوكينز تجربةً عجيبةً وغريبةً قام بها أحد العلماء المتديّنين في بريطانيا على مجموعةٍ من المرضى، إذ قسّمهم إلى ثلاث فئاتٍ، الأولى تلقّت الدعاء من المؤمنين، دون أن تعلم بذٰلك، والثانية لم تتلقّ أيّ دعاءٍ، والثالثة تلقّت الدعاء مع علمها بذٰلك؛ لاختبار التأثير النفسيّ للدعاء، ثمّ جاءت النتيجة بعدم وجود أيّ فرقٍ بين الفئات الثلاث، بل إنّ الفئة الثالثة الّتي كانت تعلم بأنّ المؤمنين يدعون لها قد تدهورت صحّتها.

وأنا أقول: إنّ هٰذه التجربة هي في الواقع مسرحيّةٌ هزليّةٌ، ومن قام بها إنسانٌ سخيفٌ، ضعيف العقل والإيمان، جاهلٌ بفلسفة الدين، وحكمة الدعاء الّذي هو من أرقى مظاهر العبادة.

فهو يريد أن يضع قدرات الخالق العظيم لهٰذا الكون والإنسان على المحكّ في محلّ اختبارٍ صغيرٍ لأمرٍ تافهٍ، يمكن أن يقوم به أصغر الأطبّاء، وهو علاج المرضى، ودوكينز يعلم جيّدًا أنّ نجاح مثل هٰذه التجربة في شفاء المرضى الّذين نالوا الدعاء لا يثبت وجود الباري تعالى؛ لاحتمال أن يكون الأطبّاء هم سبب الشفاء، وفشلها في شفاء هٰؤلاء المرضى لا ينفي

---

(1) ص63

وجود الباري تعالى؛ لاحتمال أن يكون ذٰلك بسبب أخطاء الأطبّاء؛ فلا أدري لماذا نقلها دوكينز هنا في هٰذا الكتاب، مع عدم صلاحيّتها للنفي أو الاثبات، ولٰكن يبقى السبب هو نفسه دائمًا، وقد أشرنا إليه مرارًا في هٰذا البحث، وهو السخرية من المتديّنين؛ لتنفير القارئ وإضعاف اعتقاده بالمبدإ الإلٰهيّ، فهٰذه هي بضاعته المزجاة في هٰذا الكتاب، ونحن بالإمكان أن ننقل له الآلاف القصص والحكايات الّتي تواترت الأخبار بوقوعها من المعجزات والكرامات الّتي جرت على أيدي الأنبياء والأولياء على مرّ العصور، والّتي ما زلنا نشاهد الكثير منها في زماننا المعاصر، وفي مقدّمتها شفاء الكثير من الأمراض المستعصية الّتي يأس منها الأطباء، ولٰكن ليس من شأننا أن نفعل ذٰلك؛ لأنّ المقام في مثل هٰذه المسائل الاعتقاديّة المصيريّة هو أن نعتمد فقط على الأدلّة والبراهين العقليّة القطعيّة الكلّيّة، لا أن نعتمد على مثل هٰذه التجارب الجزئيّة السخيفة، أو على نقل القصص والحكايات وحسب، بل أقول أكثر من ذٰلك للسيد دوكينز الّذي لا يؤمن إلّا بالعلم وقول العلماء، عليه أن ينصت لما يقوله كبار الأطباء النفسانيّين في أمريكا في الوقت الحاضر، بأنّ التديّن والدعاء له أكبر الأثر في مقاومة الأمراض، وسرعة شفاء المرضى[1]، وهو أمرٌ لم

---

(1)Strawbridge WJ, Cohen RD, Shema SJ, Kaplan GA. Frequent

يعرفوه إلّا بعد تجارب علميّةٍ طويلةٍ، وليس عن طريق القصص والحكايات كما يحلو لدوكينز أن يفعل دائمًا.

وفي النهاية أقول إنّ فلسفة الدعاء لمن فهمها هي أعمق بكثيرٍ من الّتي توهّمها دوكينز، أو هٰذا العالم الساذج في تجربته المضحكة، وهو أنّ الدعاء في حقيقته ليس علّةً تامّةً لتحقّق المطلوب، بل جعله الباری ـ تعالى ـ سببًا من الأسباب، مثل الدواء للمريض، فكما أنّه ليس كلّ من تناول الدواء حصل له الشفاء، كذٰلك ليس كلّ من قام بالدعاء يستجاب له بالشفاء، بل إنّ الله ـ تعالى ـ قد أخبرنا على لسان أنبيائه، بأنّ الدعاء قد يُجاب بصورٍ مختلفةٍ، إمّا في صورة قضاء حاجة المؤمن الّتي طلبها ـ وهٰذا كثيرًا ما يحصل، لا دائمًا ـ وإمّا أن يؤخّرها زمانًا ما، وإمّا أن يدفع عنه بلاءً آخر، أو

---

attendance at religious services and mortality over 28 years. Am J Public Health. 1997;87:957–961.

Yates JW, Chalmer BJ, St James P, Follansbee M, McKegney FP. Religion in patients with advanced cancer. Med Pediatr Oncol. 1981; 9: 121– 128.

Harris RC, Dew MA, Lee A, Amaya M, Buches L, Reetz D. Coleman C. The role of religion in heart-transplant recipients› long-term health and well-being. Journal of Religion and Health. 1995;34(1):17–32.

أن يرفع درجته في الآخرة، أو غير ذٰلك من صور الاستجابة.

والدعاء في الواقع من أعظم مظاهر العبادة الروحيّة الّتي يرتبط بها المؤمن بربّه بمقتضى إيمانه، إذ يشعر بوجود موجودٍ عليمٍ قديرٍ يمكن أن يلتجئ إليه في أوقات الشدّة؛ ليحلّ له مشاكله أو يهوّن عليه مصائبه. ومجرّد الشعور بهٰذه الحالة النفسيّة من المواساة له آثارٌ إيجابيّةٌ كثيرةٌ على روح الإنسان في خضمّ مشاكل هٰذه الحياة المعقّدة، حتّى لو لم يُستجب طلبه مباشرةً، كما نقلنا عن الأطبّاء سابقًا، وأنا لا أدري إلى من يلجأ دوكينز في حالات المرض والشدّة والضيق، وما هو شعوره عند تراكم أمراض الشيخوخة واقتراب الأجل، هل يملك إلّا أن يندب حظّه العاثر، أو يتناول الأقراص المنوّمة، أو المخدر العام، كما سيقول في نهاية الكتاب[1]؟!

(1) ص362




الفصل الثالث

«الدليل على وجود الإله»




الفصل الثالث

«الدليل على وجود الإلٰه»

في هٰذا الفصل يخلع دوكينز ـ عالم الأحياء ـ عنه لباس القصّاص والممثّل المسرحيّ، ليرتدي لباس الفلاسفة والحكماء؛ ليمارس سيناريو من نوعٍ آخر، ويتصدّى لردّ البراهين الفلسفيّة الّتي أوردها الفيلسوف المتكلّم **توما** الأكوينيّ (*Thomas Aquinas*). وهٰذا الفصل الثالث كان ينبغي أن يكون هو الفصل الأوّل بحسب الترتيب المنطقيّ لطبيعة موضوع البحث، وهو نفي المبدإ الإلٰهيّ، ولٰكنّه آثر أن يُقدّم عليه فصلين روائيّين دراميّين طويلين، استهلكا أكثر من ثمانين صفحةً من الكتاب، واستنزفا ذهن القارئ في موضوعاتٍ قصصيّةٍ ساخرةٍ من الدين والمتديّنين، وما فعل هٰذا إلّا من أجل تحريك وجدان القارئ ومشاعره ضدّ الدين والإيمان، وإرهاق ذهنه بنحوٍ يجعله يتقبّل استدلالات دوكينز الواهية لنفي المبدإ الإلٰهيّ، وطرح البديل المادّيّ الطبيعيّ في هٰذا الفصل، والفصل الذي يليه.

افتتح دوكينز هٰذا الفصل ـ كما هي عادته ـ بعنوانٍ صحفيٍّ مثيرٍ، لا

علاقة له من قريبٍ أو بعيدٍ بموضوع الفصل؛ وذٰلك نقلًا عن الماسوني المتآمر توماس جيفرسون، عندما كان رئيسًا للولايات المتّحدة، ولا أدري في الواقع سرّ إعجابه الشديد بهٰذا الرجل، بحيث أفرط في النقل عنه، وهٰذا العنوان الغريب هو (**أستاذ في علم اللاهوت لا ينبغي أن يكون له محلٌّ في دستورنا**)[1]! وأنا أترك للقارئ الكريم التأمّل والتعليق على هٰذه العبارة، الّتي تتنافى مع أوليّات حقوق الإنسان وحقّ المواطنة، وتعبرعن الحالة الإقصائيّة الشديدة لقائلها وناقلها، مع أنّ دوكينز يزعم أنّه يحترم الآخر ويقبل الآخر، وينتقد بشدّةٍ الحالة الإلغائيّة عند بعض المتطرّفين الدينيّين.

ولماذا لا يكون لأستاذٍ فيلسوفٍ أكاديميٍّ محترمٍ، ربّما يكون له عشرات ملايين الأتباع من الشعب الأمريكيّ المسيحيّ الّذين يكنّون له كلّ الاحترام والتبجيل - مهما اختلفنا معه في الرأي - أيّ اعتبارٍ في الدستور الّذي هو وثيقة شرفٍ جماهيريّةٍ بين الحاكم والمحكومين؟! وهل الاختلاف في الرأي جريمةٌ يُعاقب عليها القانون؟! وكيف يسمح لنفسه كرئيس دولةٍ عظمى كأمريكا، يمثّل المتديّنون الغالبيّة المطلقة فيها، أن يتلفّظ بهٰذا الكلام الاستفزازيّ؟!

---

(1) ص 78.

وهٰذا إنّ دلّ على شيءٍ فيدلّ على نواياه السيّئة تجاه شعبه، وخيانته للأمّة الّتي انتخبته، لصالح أسياده من الماسون، كما يقول الكاتب الأمريكيّ المشهور **مايرون فاغان**.

والآن نعود إلى الانتقادات الّتي وجهها السيّد دوكينز إلى البراهين الفلسفيّة الّتي استدلّ بها توما الأكويني لإثبات وجود المبدإ الإلٰهيّ، وهٰذه الانتقادات ـ كما سنبيّن ـ تكشف بوضوحٍ عن المستوى المنطقيّ الفلسفيّ المأساويّ لدوكينز؛ إذ ورّط نفسه في ميدانٍ ليس هو من رجاله، وأقحم نفسه في صناعةٍ ليس من أهلها.

وهٰذا ما كنت قد حذّرت منه قبل ذٰلك في مقدّمة الكتاب، عندما تحدّثت عن شخصيّة دوكينز، ومترجم كتابه بسام البغدادي، ولٰكن للأسف، هٰذا هو قدَر الفلسفة الإلٰهيّة الّتي كانت في يومٍ من الأيّام أصل العلوم وتاجها، ثمّ أضحت علي يد أعداء العقل والإنسانيّة شريعةً لكلّ واردٍ، ومطيّةً لكلّ من هبّ ودبّ.

قال دوكينز: «**الأدلّة الخمسة الّتي عرضها توما الأكوينيّ في القرن الثالث عشر، لا تدلّ حقيقةً على أيّ شيءٍ، ومن السهل نقضها**»[1].

أقول: إذا أمكن أن ينقض دوكينز البيولوجيّ نظريّات الفلاسفة

---

(1) ص 79.

بسهولةٍ كما يدّعي، فمن الممكن أن نصدّق أن ينقض علماء اللاهوت بسهولةٍ نظريّة داروين في التطوّر، ونظريّة النسبيّة لإينشتاين، وميكانيكا الكمّ لنيلز بور، وأن ينقض المهندسون نظريّات الأطبّاء، وأن ينقض الأدباء نظريّات المهندسين!

ولٰكن دع عنك كلّ هٰذا، ولننظر هل استطاع دوكينز بالفعل أن يفعل المعجزة، ويقوم بهٰذا العمل الخارق في ردّ براهين الفلاسفة، كما يتوهّم أتباعه وضحاياه المساكين الّذين لم يدرسوا مثله مبادئ المنطق أو الفلسفة؟

يذكر دوكينز الأدلّة الخمسة المشهورة لتوما الأكوينيّ، والّتي هي في الواقع مأخوذةٌ من براهين الفلاسفة قبله مثل أرسطو وابن سينا، ولٰكنّه للأسف نقلها بأسلوبٍ مُحرَّفٍ، وركيكٍ، ومشوّشٍ، كما سيتبيّن ذٰلك بكلّ وضوحٍ من نقلنا لكلام توما الأصليّ مباشرةً من كتابه الأصليّ (الخلاصة اللاهوتيّة *Summa Theologica*)، وهٰذا إن دلّ على شيءٍ، فإنّما يدلّ - إن أحسنّا الظنّ به - على عدم فهمه لها، وهو أمرٌ طبيعيٌّ لمن هو ليس من أهل الصناعة؛ ومن أجل ذٰلك نجد أنفسنا مضطرّين أن ننقل هٰذه الأدلّة من مصدرها الأصليّ في كتاب الأكوينيّ **(الخلاصة اللاهوتيّة)**[1] أوّلًا، ثمّ نقل تقرير دوكينز لها ثانيًا؛ ليتبيّن لنا مدى تحريفه لها، ثمّ نقوم ثالثًا

(1) الخلاصة اللاهوتيّة، ج 1، ص 23 و24.

بصياغتها بنحوٍ مختصرٍ وواضحٍ أمام القارئ الكريم.

قال توما: «إنّ وجود الله يمكن إثباته من خمسة مناهج:

المنهج الأوّل والأوضح من جهة الحركة، فمن المحقّق الثابت بالحسّ أنّ في عالمنا هٰذا أشياء متحرّكةً، وكلّ متحرّكٍ فهو يتحرّك من آخر؛ لأنّه ليس يتحرّك شيءٌ إلّا باعتبار كونه بالقوّة إلى ما يتحرّك إليه، وإنّما يحرك شيءٌ باعتبار كونه بالفعل؛ إذ ليس التحريك سوى إخراج شيءٍ من القوّة إلى الفعل وإخراج شيءٍ إلى الفعل لا يمكن أن يتمّ إلّا بموجودٍ بالفعل، كما أنّ الحارّ بالفعل كالنار يجعل الخشب الّذي هو حارٌّ بالقوّة حارًّا بالفعل، وبذٰلك يحرّكه ويغيّره. لٰكن ليس يمكن لشيءٍ واحدٍ بعينه أن يكون بالقوّة والفعل معًا باعتبارٍ واحدٍ، بل باعتباراتٍ مختلفةٍ؛ لأنّ ما هو حارٌّ بالفعل ليس يمكن أن يكون من هٰذه الجهة حارًّا بالقوّة أيضًا، بل هو من هٰذه الجهة باردٌ بالقوّة.

فإذن ليس يمكن أنّ شيئًا يكون محرّكًا ومتحرّكًا أي محرّكًا لنفسه باعتبارٍ واحدٍ ومن جهةٍ واحدةٍ، فإذن كلّ ما يتحرّك فلا بدّ أن يتحرّك من آخر، وإذا كان هٰذا الآخر متحرّكًا فلا بدّ أن يتحرّك من آخر أيضًا، وهٰذا من آخر، وهنا لا يجوز التسلسل إلى غير النهاية، وإلّا لم يكن محرّكٌ أوّلٌ فلم يكن محرّكٌ آخر؛ لأنّ المحرّكات الثانية لا تحرّك إلّا بما هي متحرّكةٌ من المحرّك الأوّل، كما أنّ العصا لا تحرّك إلّا بما هي متحرّكةٌ من اليد. فإذن لا بدّ من الانتهاء إلى محرّكٍ أوّلٍ غير متحرّكٍ من آخر، وهٰذا الّذي يعقل الجميع أنّه الله».

أما السيد دوكينز المحترم فقرره هكذا «أوّلًا: المحرّك الأوّل: لا شيء

يتحرّك إلّا بوجود من يحرّكه، هٰذا يؤدّي بنا بشكلٍ تراجعيٍّ زمانيًّا للماضي، والمخرج الوحيد منها هو الله؛ لأنّه بالضرورة المنطقيّة أنّ أحدًا ما، قد بدأ بالحركة الأولى، وهٰذا الأحد ندعوه الله»[1].

وأقول: التقرير الصحيح للبرهان باختصار: كلّ جسمٍ متحرّكٍ يحتاج إلى محرّكٍ يخرجه من القوّة إلى الفعل؛ لاستحالة أن يُخرج الشيء نفسه من القوّة إلى الفعل، وهٰذا المحرّك إن كان يُحَرِّكُ بأن يتحرّك كسائر الأجسام، فهو يحتاج إلى محرّكٍ آخر، وهٰكذا، فإمّا أن يتسلسل، وهو محالٌ ـ كما بيّنّا من قبل في الأصل الثاني ـ وإمّا أن ينتهي إلى محرِّكٍ يُحرّك لا بأن يتحرّك، وهو المحرّك الأوّل، وهو بطبيعة الحال لا بدّ أن يكون بالفعل من كلّ الجهات، أي مجرّدًا عن المادّة، وإلّا لاحتاج أن يُخْرِجَهُ غيره من القوّة إلى الفعل ويتسلسل، وهٰذا المحرّك الأوّل هو المبدأ الإلٰهيّ.

قال توما: **«المنهج الثاني: من جهة العلّة المؤثّرة، فإنّنا نجد في المحسوسات الشاهدة ترتّبًا بين العلل المؤثّرة وليس يرى مع ذٰلك، ولا يمكن أنّ شيئًا يكون علّةً مؤثّرةً لنفسه؛ للزوم وجوده قبل نفسه، وهٰذا محالٌ، والتسلسل ممتنعٌ في العلل المؤثّرة؛ لأنّ الأوّل بين جميع العلل المؤثّرة المترتّبة هو علّة الوسط، والوسط هو علّة الأخير، سواءٌ كان ثمّة وسطٌ واحدٌ أو أوساطٌ كثيرةٌ، لٰكنّه إذا ارتفعت**

---

(1) ص 79.

العلّة ارتفع المعلول فاذن لو لم يكن في العلل المؤثّرة أوّلٌ لم يكن فيها أخيرٌ ولا وسطٌ، ولو تسلسلت العلل المؤثّرة لم يكن علّةٌ أولى مؤثّرٌ، فلم يكن معلولٌ أخيرٌ ولا عللٌ مؤثّرةٌ متوسّطةٌ، وهٰذا بيّن البطلان، فلا بدّ إذن من إثبات علّةٍ مؤثّرةٍ أولى، وهي الّتي يسمّيها الجميع الله».

أما دوكينز فنقله هكذا: «ثانيًا: السبب والمسبّب: لا شيء يسبّب نفسه، لكلّ ردّ فعلٍ فعلٌ مسبقٌ، ومرّةً أخرى نصل تراجعيًّا لنقطةٍ في الماضي، هٰذه ردود الأفعال كلّها يجب أن يكون لها فاعلٌ أوّلٌ، هٰذا الفاعل الأوّل نسمّيه الله»[1].

وتقريره المعدّل: لا شيء يحدث نفسه في حدّ ذاته؛ لاستحالة أن يُخْرِجَ الشيء نفسه من العدم إلى الوجود، والموجِد له إن كان حادثًا أيضًا، افتقر إلى موجِدٍ آخر، فإمّا أن يتسلسل، وهو محالٌ، وإمّا أن ينتهي إلى موجِدٍ قديمٍ غير حادثٍ، وهو الله تعالى.

قال توما: «المنهج الثالث: من جهة الممكن والواجب، وذٰلك أنّنا نجد في الأشياء ما يمكن وجوده وعدمه، إذن منها ما يرى معروضًا للكون والفساد وهٰكذا، ممكنًا وجوده وعدمه، وكلّ ما كان كذٰلك فيمتنع وجوده دائمًا؛ لأنّ ما يمكن أن لا يوجد فهو معدومٌ في حينٍ ما، فإذن لو كان عدم الموجود ممكنًا في جميع الأشياء للزم أنّه لم يكن حينًا ما شيئًا، ولو صحّ ذٰلك لم يكن الآن أيضًا

---

(1) الصفحة نفسها.

شيءٌ؛ لأنّ ما ليس موجودًا لا يبتدي أن بوجد إلّا بشيءٍ موجودٍ. فإذن لو لم يكن شيءٌ موجودًا لاستحال أن يبتدي شيءٌ أن يوجد، فلم يكن الآن شيءٌ وهٰذا بيّن البطلان. فإذن ليست جميع الموجودات ممكنةً، بل لا بدّ أن يكون في الأشياء شيءٌ واجبٌ، والواجب إمّا واجبٌ لذاتٍ أو لغيره، والتسلسل في الواجبات لغيرها مستحيلٌ كاستحالته في العلل المؤثّرة على ما هو قريبًا، فإذن لا بدّ من إثبات شيءٍ واجبٍ لذاته ليس واجبًا بعلّةٍ أخرى، بل غيره واجبٌ به وهٰذا ما يسمّيه الجميع الله».

أما دوكينز فنقله بهذه الصورة «ثالثا: العلّة الكونيّة: من المحتّم وجود زمنٍ لم توجد فيه المادّة، ولٰكن بما أنّ الأشياء الفيزيائيّة موجودةٌ الآن، إذن لا بدّ من وجود شيءٍ غير فيزيائيٍّ أتى بها للوجود من العدم، وهٰذا الشيء غير الفيزيائيّ ندعوه الله»[1]. وهو تقرير مخالفٌ للأصل بالكلّيّة!

أقول: هذا هو المسمى ببرهان الإمكان، وتقريره باختصار: إن الموجود الممكن الوجود يمكن عليه العدم، ويعرضه الوجود من غيره كما بينّا في الأصل الثاني من فلسفة الوجود، وبالتالي فلايمكن أن يوجد نفسه بنفسه، فيحتاج إلى غيره، وهٰذا الغير إن كان ممكنًا أيضًا افتقر إلى غيره ،

(1) الصفحة نفسها.

وهٰكذا، فإمّا أن يتسلسل، وهو محالٌ، وإمّا أن ينتهي الأمر إلى موجودٍ واجب الوجود لذاته، وهو المطلوب.

وقد علّق دوكينز على هٰذه البراهين الثلاثة بقوله: «**كلّ الحجج الثلاث تعتمد على مبدإ التراجع الزمنيّ، وتفترض الله لإنهاء الدوّامة، والافتراض الّذي لا مبرّر له هنا، هو أنّ الله منيعٌ على الزمان**»[1].

أقول: من الواضح جدًّا أنّه لم يفهم معنى حقيقة هٰذه البراهين الثلاثة؛ لسببين:

الأوّل: أنّه يعبّر عن التسلسل العقليّ المحال، بعبارة شعريّةٍ، وهو أنّه (دوّامةٌ)، قاصدًا الحيرة والتردّد؛ ليوحي للقارئ بأنّ منشأ الاعتقاد بالمبدإ الإلٰهيّ هو الجهل والتخلّص من الحيرة، مع أنّ المقصود من امتناع التسلسل بكلّ بساطةٍ، هو ضرورة أن يرجع كلّ ما بالغير إلى ما بالذات، وهو أمرٌ يدركه الطفل الصغير بلا تردّد، وقد أشرنا إليه في المقدمة.

الثاني: هو أنّه لم يفهم معنى العلّة الأولى، الّتي تنتهي عندها المتحرّكات والحادثات وسائر العلل الطبيعيّة، وضرورة تميّزها الذاتيّ عن سائر العلل والمعلولات، وإلّا لزم الترجيح بلا مرجّحٍ، وعدم انقطاع التسلسل، فخالق المادّة لا يمكن أن يكون مادّيًّا، وخالق الزمان لا يمكن

---

(1) الصفحة نفسها.

أن يكون زمانيًّا أو مكانيًّا، وهو أمرٌ في غاية البداهة.

ثمّ قال: «**ليس هناك أيّ سببٍ إطلاقًا لمنح هٰذا الّذي أنهينا به التراجع الزمنيّ أيًّا من المواصفات الّتي يتّصف بها هٰذا الإلٰه مثل القدرة الكلّيّة، والعلم الكلّيّ، والرحمة، والخلق الذكيّ، ناهيك عن الصفات الإنسانيّة كإجابة الدعاء، وغفران الذنوب، وقراءة الأفكار**»[1].

أقول: لو كان دوكينز قد أتعب نفسه في قراءة فهرس أي كتاب فلسفةٍ إلٰهيّةٍ، لوجد أنّ الفلاسفة بعد بيانهم لفصل إثبات المبدإ الإلٰهيّ بالبراهين العقليّة الفلسفيّة، قد عقدوا فصولًا أخرى بعد هٰذا الفصل في إثبات صفات هٰذا المبدإ الأوّل للوجود بالبراهين العقليّة، من العلم والقدرة والحياة والإرادة والحكمة والعناية والتدبير الدقيق، انطلاقًا من كونه ـ تعالى ـ واجب الوجود لذاته، وواجدًا لكلّ كمالٍ وجوديٍّ بنحوٍ أعلى وأشرف من سائر مخلوقاته، كما بينّا ذلك في المقدمة، ولٰكن يظهر أنّ السيّد دوكينز لم يكن يسمح له وقته الثمين بذٰلك، بعد أن استغرق معظم وقته في قراءة القصص والحكايات، والصحف والمجلّات، ومسامرات المقاهي والحانات.

ثم استشكل على صفاته ـ تعالى ـ قائلًا: «**وبالمناسبة فإنّ بعض علماء**

(1) ص 80.

المنطق لاحظوا عدم إمكانيّة اجتماع موضوع العلم الكلّيّ، والقدرة الكلّيّة، إذ لو كان الله كلّيّ المعرفة، فهو يعرف بالتأكيد ومسبقًا كيف سيتدخّل بقدرته الكلّيّة ليغيّر مجرى التاريخ، هٰذا يعني أنّه لا يستطيع تغيير رأيه بهٰذا الموضوع، فهو بالتالي ليس كلّيّ القدرة؛ لأنّ هناك شيئًا لا يستطيع عمله»[1].

أقول: أوّلًا: إنّ مجرّد نقله هٰذا الكلام الفلسفيّ التخصّصيّ عمّا سمّاه (ببعض علماء المنطق) هو أمرٌ مثيرٌ للسخرية، إذ إنّ المنطق المتعلّق ببيان قواعد التفكير الصحيح هو علم مباينٌ تمامًا لعلم الفلسفة الإلٰهيّة المتعلّق بمباحث الوجود، فلا ينبغي أن نسمّي من يتكلم بهٰذا الكلام الفلسفيّ بأنّه من علماء المنطق، فإمّا أن يكون نقله صحيحًا، وبالتالي يكون هٰذا العالم المنطقيّ قد تكلّف الكلام فيما لا يعنيه، كما يفعل دوكينز في هٰذا الكتاب، وإمّا أن يكون فيلسوفًا، ولٰكن دوكينز لا يميز بين المنطق والفلسفة، وهٰذا ليس ببعيدٍ.

ثانيا: كيف يسوّغ من لا يعرف مبادئ الفلسفة الإلٰهيّة، ولم يدرسها أو يُدرّسها، وقضى عمره في البحوث الفيزيائيّة البيولوجيّة المادّيّة، لنفسه أن يتدخّل فجأةً في العلوم الميتافيزيقيّة، ويخوض في أدقّ المباحث الفلسفيّة التخصصيّة، وينتقد كلام أعاظم الفلاسفة المتألّهين؟!! وهل هٰذا هو

(1) الصفحة نفسها.

المنهج العلمي؟!

ثالثًا: إن الجواب عن هٰذا الإشكال، وإن كان يتطلّب مقدّماتٍ منطقيّةً وفلسفيّةً يجهلها دوكينز وأمثاله، بيد أنّنا سنحاول أن نجيبه ببساطةٍ؛ لعلّه يفهمها أو يتنبّه إليها، فنقول: القدرة الكلّيّة المطلقة يا سيد دوكينز، لا تتعلّق إلّا بما هو ممكن الوقوع، لا بما هو محال الوقوع، والله مع كونه على كلّ شيءٍ قديرًا، ولٰكنّ المحال الممتنع الوجود ليس بشيءٍ حتّى تتعلّق به القدرة؛ لأنّ الشيئيّة تساوي الوجود، فالله ـ تعالى ـ بقدرته المطلقة لا يمكن أن يجمع بين النقيضين، أو يجعل الكلّ أصغر من جزئه، أو أن يجعل الاثنين فردًا، والثلاثة زوجًا، لا لعجزه، بل لامتناع ذٰلك في نفسه.

والله بعلمه الكلّيّ وحكمته المطلقة، قد علم بالنظام الأصلح لهٰذا العالم بكلّ مراتبه، فأوجده كما علمه على أحسن صورةٍ ممكنةٍ، وتغيير هٰذا النظام الأصلح من الناحية التكوينيّة محال الوقوع؛ لأنّه على خلاف الترتيب الطبيعيّ في نظام الأسباب والمسبّبات، وخلاف حكمته تعالى؛ فمن المحال أن تتعلّق به قدرته المطلقة.

وأصل المشكلة المعرفية عند دوكينز في هٰذا الكتاب ـ بالإضافة إلى جهله الشديد بمبادئ العلوم العقليّة ـ هو نزعته الحسّيّة السطحيّة المادّيّة الشديدة، الّتي جعلت عقله دائمًا في عينيه، والّتي تمنعه دائمًا من تصوّر الأمور الغيبيّة الّتي هي فوق الطبيعة، وإذا أراد أن يتصوّرها، تصوّرها

بوهمه وخياله، وتعامل معها تعامله مع الأمور المادّيّة، فكما يرى نفسه قادرًا على تغيير اعتقاداته المادّيّة الحادثة بحسب مزاجه الشخصيّ المتغيّر، فالله ـ تعالى ـ ينبغي أن يكون كذٰلك، وهٰذا لجهله بحقيقة العلّة الأولى، وخالق الكون العظيم.

ثمّ قال: «**لنعد إلى التراجع الزمنيّ اللا نهائيّ، والعبث الناتج من إدخال إلٰهٍ لحلّ الموضوع؛ لأنّه من الأرخص استحضار شيءٍ ما كنظريّة الانفجار العظيم، أو أيّ مبدإٍ فيزيائيٍّ غير مكتشفٍ بعد**»[1].

أقول: ها هو مرّةً أخرى يكشف عن جهله بدلالة البراهين، وحقيقة العلّة الأولى، حينما يريد أن ينهي التسلسل بعلةٍ طبيعيّةٍ، غافلًا أو متغافلًا عن أنّ خالق الطبيعة لا يمكن أن يكون منها.

وأمّا طرحه لنظريّة الانفجار العظيم (*Big Bang Theory*)، فهو يعلم جيّدًا أنّ هٰذه النظريّة حالها كحال نظريّة التطوّر، لا علاقة لها من قريبٍ أو بعيدٍ بنشأة أصل الكون، بل تتعلّق بكيفيّة نشأته، وهٰذا ما سبق وأن أشرنا إليه من أنّ الفيزيائيّ معنيٌّ ببيان (كيف هو؟) لا (لم هو؟).

ثمّ إنّ نظريّة الانفجار العظيم تقول إنّ العالم نشأ من نقطةٍ منفردةٍ تنهار عندها قوانين الفيزياء المعروفة، وهي ذات حرارةٍ وكثافةٍ عاليتين

(1) الصفحة نفسها.

جدًّا جدًّا، ثمّ حصل فيها تغيّراتٌ أدت إلى إنفجارٍ عظيمٍ وانبعاثٍ طاقةٍ هائلةٍ جدًّا، وأنويةٍ ذرّيّةٍ وإلكتروناتٍ، ثمّ بدأت تبرد بالتدريج لتتكوّن منها الأجسام الصغيرة ثمّ الكبيرة.

ولم تتعرّض النظريّة لأصل وجود هٰذه النقطة المنفردة، وكيف جاءت، وكيف حصلت فيها هٰذه التطوّرات الداخليّة الّتي أدّت إلى انفجارها، إذ يعدّون الإجابة عن كلّ هٰذه الأسئلة خارجةً عن نطاق القوانين الطبيعيّة، وعن حدود معرفة الفيزيائيّ؛ وبناءً عليه: كيف يمكن أن تبرّر لنا هٰذه النظريّة أصل بداية العالم، وانقطاع التسلسل؟!

إلى هنا تكون قد تمّت الحجج الثلاث الّتي نقلها دوكينز عن توما الأكويني، ونحن لن نتعرّض للحجّة الرابعة؛ لعدم وضوح دلالاتها، وعدم الحاجة إليها، ولننتقل لبيان تعليق دوكينز على الحجّة الخامسة.

قال توما الكويني: «**المنهج الخامس: من جهة تدبير الأشياء، فإنّنا نرى أنّ بعض الموجودات الخالية من المعرفة وهي الأجرام الطبيعيّة تفعل لغايةٍ، وهٰذا ظاهرٌ من أنّها تفعل دائمًا أو في الأكثر على نهجٍ واحدٍ إلى أن تدرك النهاية في ذٰلك، وبهٰذا يتّضح أنّها لا تدرك الغاية اتّفاقًا بل قصدًا، على أنّ ما يخلو من المعرفة ليس يتّجه إلى غايةٍ، ما لم يسدّد إليها من موجودٍ عارفٍ وعاقلٍ كما يسدّد السهم من الرامي. فاذن يوجد موجودٌ عاقلٌ يسدّد جميع الأشياء الطبيعيّة إلى**

الغاية، وهٰذا الّذي نسمّيه الله»[1].

وقد بيّنه دوكينز هٰكذا: «**الحجّة الغائيّة أو حجّة التصميم: الأشياء في العالم، وخاصّةً الأشياء في الحياة تبدو مصمّمةً، ولا نعرف بوجود أشياء تبدو مصمّمةً إلّا إذا كانت كذٰلك؛ ولذٰلك يجب أن يكون هناك مصمّمٌ، وهو ما ندعوه بالإلٰه**»[2].

ثمّ قال معلّقًا: «**وبفضل داروين، لم يعد صحيحًا أن كلّ الأشياء الّتي تبدو لنا وكأنّها مصمّمةٌ، لا يمكن أن تكون غير ذٰلك، إن لم تكن فعلًا كذٰلك، التطوّر بالانتخاب الطبيعيّ ينتج ما يمكن أن يبدو كأروع تصميمٍ بأعلى درجات التعقيد والأناقة**»[3].

أقول: هٰذا هو برهان النظم الّذي أشرنا إليه بالتفصيل في الأصل الثاني من المقدّمة، وأثبتنا صحّته وتماميّة دلالته على وجود المصمّم الذكيّ بناءً على قانوني العلّيّة والسنخيّة البديهيّين، كما أثبتنا في الأصل الرابع أنّ نظريّة الانتخاب الطبيعيّ لا علاقة لها أصلًا بأصل وجود العالم أو بمبدإ الحياة، ولا تنافي أصلًا ـ كما يصرّح داروين نفسه ـ وجود مصمّمٍ ذكيٍّ تحصل كلّ هٰذه التطوّرات التدريجيّة بحكمته وهدايته، وقد صرّح

(1) الخلاصة اللاهوتيّة، ج 1، ص 24.

(2) ص 81

(3) الصفحة نفسها.

فرانسيس كولنز (*Francis Sellers Collins*) أحد أكبر علماء الأحياء في العالم بذلك حينما قال: «**من الّذي يحجر على الإله في أن يستعمل آليّة التطوّر في الخلق**»[1].

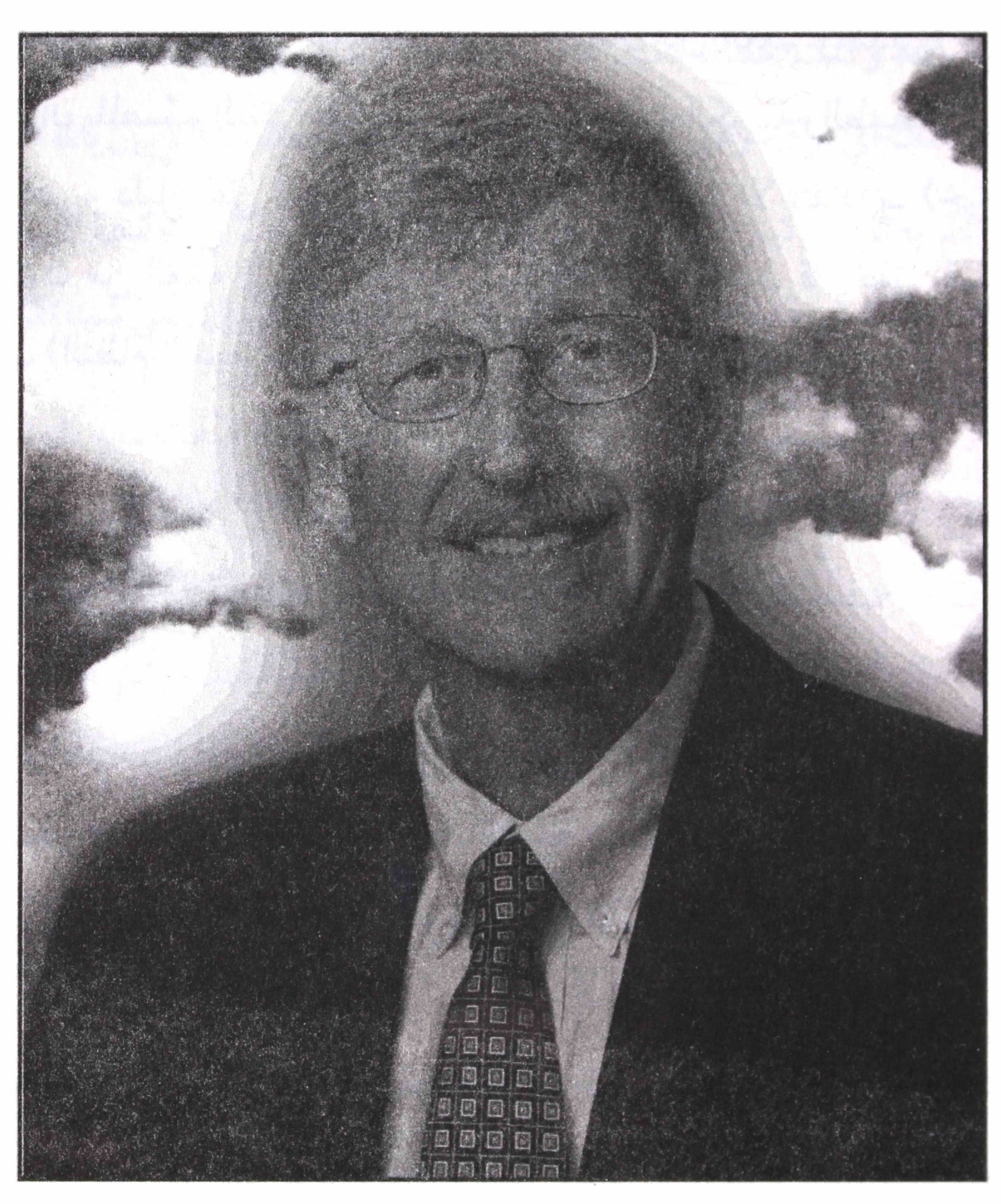
أقول: وبعد أن أحس دوكينز بعجزه عن الرد المنطقيّ الرصين على هذه البراهين العقليّة الواضحة، سارع إلى خلع لباس التفلسف الفضفاض والواسع عليه، الّذي كان يتعثّر فيه كلّما حاول أن يمشي به، وعاد ليرتدي من جديدٍ لباسه المسرحيّ الأصليّ، ويعود إلى هزليّاته السخيفة، وحكاياته الطويلة والمملّة، ليسخر من دليل أنسلم (*Anselm of Canterbury*) الوجوديّ، وبعض الاستدلالات الشخصيّة الركيكة، الّتي هي استدلالاتٌ ظنّيّةٌ خياليّةٌ لا اعتبار لها عند كبار الفلاسفة، وهي كلّها أشياء لا تستحقّ عناء الردّ عليها.

ثمّ عاد دوكينز بعد ذلك ليثير مرّةً أخرى مسألة تديّن العلماء وعدم تديّنهم تحت عنوان: «**الحجة من العلماء الكبار المتديّنين**»[2].

أقول: بعد عجزه عن إنكار تديّن العدد الكبير من العلماء الأفذاذ الّذين قامت النهضة العلميّة والصناعيّة في الغرب على أكتافهم، حاول جهده بكلّ ما أوتي من أساليب الاحتيال الفكريّ أن يبرّر ذلك تارةً

---

(1) وهم الإلحاد، ص85
(2) ص100.



فرانسيس سيلرز كولينز (Francis Sellers Collins)

عالم جينات أمريكيّ من مواليد سنة 1950. عرف عنه اهتمامه بأبحاث جينات الأمراض وعلم الوراثة عمومًا، ويعدّ رائد مشروع الجينوم البشريّ، ويعمل حاليًا مديرًا لمعاهد الصحّة الوطنيّة الأمريكيّة، عيّنه بنديكت السادس عشر مديرًا للمعهد البابويّ للعلوم.

بخوفهم من قمع الكنيسة، وتارةً بأنّهم يؤمنون بإلٰه إينشتاين، وتارةً يبدي استغرابه الشديد عن كيفيّة أن يجمع الإنسان بين العلم والتديّن! وكأنّ الإيمان بالمصمّم الذكيّ للكون، وتبعيّة الأحداث الكونيّة والطبيعيّة للعقل الواعي، دليلٌ على الجهل والسفه والحماقة، وأمّا الاعتقاد بـ (خروج الكون من العدم إلى الوجود بلا سببٍ)، و(أنّ الكون قد خلق نفسه)، وأنّ (النظام البديع نشأ من اللا نظام)، وأنّ (صانع الساعات الأعمى قد أنشأه)، وبـ (تبعيّة العقل والوعي لتطوّر المادّة الصماء بنفسها)، و(أنّ كلّ العلوم والأفكار والفلسفات، والاكتشافات العلميّة البديعة، والقيم والمبادئ الأخلاقيّة السامية، كلّها نتيجة مجموعةٍ من الصدف العشوائيّة والتفاعلات الكيميائيّة، والإشارات الكهرومغناطيسيّة)؛ والإيمان بسائر هٰذه الأوهام والخرافات والهذيانات، هي عند السيّد دوكينز من مظاهر العلم والعقلانيّة!

ونحن قد سبق وأن بيّنا في الفصل الأوّل أنّ إيمان العلماء بالله أو إلحادهم، لا يُقدّم ولا يؤخّر، وليس له أدنى مدخليّةٍ في إثبات المبدإ الإلٰهيّ للعالم أو نفيه.

تعرّض دوكينز بعد ذٰلك إلى ما سمّاه بـ (رهان باسكال) للعالم الرياضي الشهير بليز باسكال، إذ قال: «**بحسب عالم الرياضيّات الفرنسيّ الكبير بليز باسكال، فإنّه مهما قلّت الدلائل على وجود الله، فإنّ العقوبة الّتي تنتظر الاختيار الخاطئ هي أكبر، فأحكم الطرق هي الإيمان بالله؛ لأنّك إن كنت**

مصيبًا فستربح النعمة الكبرى، وإن كنت مخطئًا فلن يكون هناك فرقٌ، بينما إن لم تؤمن بالله، وكنت مخطئًا، فأنت محكوم باللعنة الأبديّة، وإن كنت مصيبًا، فلن يكون هناك أيّ فرقٍ، وعلى ذٰلك فالقرار لا يحتاج لذكاءٍ، عليك الإيمان بالله»[1].

ثمّ يعلّق دوكينز بسرعةٍ دون أن يتأمّل ـ كعادته ـ في حقيقة البيان، بقوله: **«هناك شيءٌ ما محيّرٌ بشكلٍ خاصٍّ في هٰذه الحجّة، الإيمان ليس شيئًا تقرّره كالسياسة، وعلى الأقل فأنا لا أستطيع فعله بإرادتي»**[2].

ثمّ أخذ يسترسل كعادته في السخرية من كلام باسكال.

وأقول: إنّ قوله: **«الإيمان ليس شيئًا نقرّره كالسياسة»** كلامٌ صحيحٌ؛ ولم يقصد باسكال من كلامه ذٰلك بالتأكيد؛ لأنّ الإرادة نابعةٌ من القناعة، والقناعة تحصل من وضوح الأدلّة عند المخاطب؛ ولذٰلك فقد أراد باسكال من كلامه هٰذا بأن يوجد القناعة لدى الآخرين مثل دوكينز، الّذين لا يؤمنون بالأدلّة والبيّنات الساطعة على وجود الله تعالى، ويعدّون وجود الله احتمالًا ضعيفًا ـ لا الّذين يقطعون بعدم وجوده ـ وذٰلك بأن يقنعوا أنفسهم، لا بالإيمان بالله، ولٰكن بضرورة الاحتياط العمليّ على الأقل النابع من وجود الاحتمال وقوّة المحتمل وخطورة الأمر، كمن احتمل احتمالًا ضئيلًا وجود السمّ المهلك في طعامه، فهو لا يأكله بالتأكيد

(1) ص 106.

(2) الصفحة نفسها.



بليز باسكال (Blaise Pascal) (1623 - 1662) م

فيزيائيٌّ ورياضيٌّ وفيلسوفٌ فرنسيٌّ، اشتهر بتجاربه على السوائل في مجال الفيزياء، وبأعماله الخاصّة بنظريّة الاحتمالات في الرياضيات، وهو من اخترع الآلة الحاسبة. عرف عنه ما يسمّى بـ (رهان باسكال)، وهو عبارةٌ عن حجّةٍ مبنيّةٍ على نظريّة الاحتمالات، تؤدّي إلى ضرورة الإيمان بوجود الله، حتّى لو قلنا بعدم إمكانية إثبات وجوده عقليًا أو نفيه، وتتلخص بما يلي:

1 - إن آمنت بالله وكان الله موجودًا، فسيكون جزاؤك الخلود في الجنّة، وهذا ربحٌ لا محدودة.

2 - إن لم تؤمن بالله وكان الله موجودًا، فسيكون جزاؤك الخلود في جهنّم، وهذه خسارةٌ لا محدودة.

3 - إن آمنت بالله وكان الله غير موجود، فلن تُجزى على ذلك، وهذه خسارةٌ محدودةٌ.

4 - إن لم تؤمن بالله وكان الله غير موجودٍ، فلن تُعاقب لكنّك ستكون قد عشت حياتك، وهذا ربحٌ محدودٌ.

ومن الناحية الرياضيّة فإنّ أيّ ربحٍ محدودٍ أو خسارةٍ محدودةٍ يمكن إهمالها عند المقارنة بالأرباح والخسائر اللا محدودة، وهذا هو الحال في الحياة الأبديّة بعد الموت. وبالتالي، استنتج باسكال أنّ الإيمان بالله هو الخيار الأفضل مقارنةً مع عدم الإيمان به.

وإن كان جائعًا، ومهما كان الطعام شهيًّا ولذيذًا، ولا يعني هٰذا الموقف العمليّ الإيمان بوجود سمٍّ في الطعام.

وهٰذا الأمر كافٍ في انبعاث الإرادة الباعثة على الالتزام الظاهريّ، أو لا أقلّ بالتوقّف والتبيّن، لا أن يكتب كتابًا طويلًا عريضًا في الإلحاد، ويسمّيه بوهم الإلٰه، ويترجمه إلى أكثر من 30 لغةً أجنبيّةً، ويسعى لنشره في كلّ أنحاء العالم، ويصرف كلّ وقته في المناظرات، والدفاع المستميت عن الإلحاد، والسخرية من المبدإ الإلٰهيّ ودينه وأنبيائه وأوليائه في كلّ مكانٍ يذهب إليه في العالم، ويدعو الناس بكلّ الوسائل، وبكلّ ما أوتي من قوّةٍ للخروج من دينهم، والتمرّد على خالقهم ورازقهم، فهل هٰذا يا سيد دوكينز حال من يحتمل وجود إلٰهٍ عظيمٍ وعليمٍ قديرٍ، ولو احتمالًا ضئيلًا، كما تعترف أنت بذٰلك بنفسك.

وإلّا فقل لنا بحقّ العلم والعقل والكون والإنسانيّة الّتي تدّعي أنّك تؤمن بها، ماذا كان يكون حالك لو كنت تقطع بعدم وجود الله تعالى، فهل كنت ستفعل أكثر من ذٰلك؟! وما هو منشأ كلّ هٰذا الحماس عندك؟ أهي الفرضيّة الظنّيّة لداروين عن تطور الأنواع؟ الّتي - باعترافه هو، وباعترافك أنت - ليس لها أدنى علاقةٍ ببيان أصل نشوء الكون والحياة في

هٰذا العالم، أو هي النظريّة الموهومة لتعدّد الأكوان[1]؟ الّتي هي مجرّد احتمالٍ وهميٍّ ليس عليه أيّ دليلٍ علميٍّ أو عقليٍّ باعترافكم.

والخلاصة أنّ مثلك هو المصداق البارز والمقصود الحقيقيّ الّذي توجّه إليه باسكال بكلامه.

ثمّ قال دوكينز بعد ذٰلك: **«وما السبب الحقيقيّ في أنّنا نقبل فكرة بأنّ الشيء الوحيد الّذي يجب أن نفعله لإرضاء الله، هو الإيمان به؟ لماذا هٰذه الخصوصية للإيمان؟ ألا يجب أن يكافئ الله الطيبة أو الكرم، أو التواضع، أو الصدق؟ ماذا لو كان الله عالمًا يعدّ التحرّي عن الصدق حسنًا؟»**[2].

وأقول: إنّ الإيمان بالله ـ تعالى ـ ليس فيه منفعة للإلٰه الغنيّ الحكيم، بل منفعتها راجعةٌ إلى الإنسان نفسه، كما بيّنّا ذٰلك في الأصل الثاني في فلسفة المعاد، وأنّ الثواب من لوازم الإيمان والعمل الصالح، والعقاب من لوازم الجحود والعمل السيّئ، وأمّا خصوصيّة الإيمان فهي في كونها دافعةً نحو العمل الصالح.

أمّا الالتزام بمكارم الأخلاق الّتي ذكرها فهي بلا شكٍّ الغاية من التديّن، والمقصودة من العبادة والدين الإلٰهيّ، وما جاء الرسل والأنبياء

---

(1) Multiverse.

(2) ص 107.

إلّا من أجل تتميمها وتكميلها، كما هو متواترٌ في تواريخ الرسل والأنبياء الصحيحة، وكما بينّا ذٰلك في الأصل الخامس من فلسفة الدين.

ولٰكنّ الكلام في إمكان تحقق ذٰلك كلّه مع إنكار الخالق والمنعم والمعاد، وسائر الشرائع والكتب السماويّة، وقد أشرنا في الأصل الثالث في فلسفة الأخلاق أنّ معيار الحسن الأخلاقيّ هو أن يكون صادرًا من العقل، ورؤيته الكونيّة الإلٰهيّة، وبنيّةٍ صادقةٍ، لا من الأهواء والمصالح

أمّا قوله: (**ألا يعدّ الله التحرّي عن الصدق حسنًا**)، فأقول بلى بلا شكٍّ، فالبحث عن الحقيقة ومبدئها هو من أهمّ وظائف الإنسان، وأشرف مظاهر الإنسانيّة في هٰذه الحياة، ولٰكن بشرط أن يكون صادقًا في بحثه، لا أن يعتقد أوّلًا بشيءٍ نتيجة ردّ فعلٍ انفعاليٍّ معيّنٍ، ثمّ يبحث له عن أدلّةٍ ملفّقةٍ تؤيّده، من أجل أن يُصدّق ما يحبّ أن يصدّقه.

ثمّ أضاف: «**عندما سألوا "برتراند رسل" عن موقفه بعد الموت، ووقوفه بين يدي الله، الّذي سيسأل "رسل" عن سبب عدم إيمانه به، كانت إجابة رسل: "عدم كفاية الأدلّة يا ربّ.. عدم كفاية الأدلّة"، ألن يحترم الله رسل على شكّه الشجاع هٰذا، أكثر من باسكال ورهانه الجبان؟!**»[1].

أقول: أفلح إن صدق! لو كان السيّد رسل صادقًا في بحثه وكلامه،

---

(1) الصفحة نفسها.

ولم يجد أيّ دليلٍ على وجود الله تعالى، وكان قاصرًا عن الوصول إلى أيّ دليلٍ، لا مقصّرًا أو معاندًا، أو متّبعًا لأهوائه وانفعالاته، فلا عقاب عليه بمقتضى العدالة والرحمة الإلهيّة.

ولكن مقتضى حال من كان كذلك، هو التوقّف والسكوت كما أشرنا من قبل، لا النفي المطلق والسخرية والاستهزاء بالمبدإ الإلهيّ، ورسله، والدين، والمؤمنين، كما فعل **"رسل"** في الواقع.

أمّا وصفه "رسل" بالشجاعة وباسكال بالجبن، فهو على خلاف الواقع تمامًا، والأحرى أن يصف **رسل** بالتهوّر، وباسكال بالتأنّي والتعقّل، فإنّ الاحتياط حسنٌ على كلّ حالٍ، لا سيّما في الموارد المصيريّة الخطيرة.

ثمّ قال: «**بالتأكيد فإنّ العدد المطلق للآلهة والإلهات، الّذي يمكن الرهان عليه يفسد منطق باسكال بأكمله**»[1].

أقول: المؤمنون الموحّدون يقطعون بوحدانيّة المبدإ الإلهيّ، وعدم احتمال وجود آلهةٍ أخرى، فلا يلزمهم منطق باسكال في لزوم الاحتياط بالإيمان بها، ويظهر أنّ دوكينز لم يستطع التمييز بين عدم الاحتمال الذي لا يكون مشمولًا لاحتياط باسكال عند الموحّدين، واحتمال العدم المشمول

(1) الصفحة نفسها.

له الملحدين المحتملين لوجود الله كدوكينز.

وفي نهاية كلامه قال: «**فهل من الممكن أن نحاجج بمضادّات رهان باسكال؟ فلنفترض بأنّنا آمنا بأنّ هناك احتمالًا صغيرًا لوجود الله، وعلى الرغم من ذٰلك يمكننا القول إنّك يمكن أن تحيا حياةً أفضل، لو راهنت على عدم وجوده، فيما لو راهنت على وجوده، والّذي يعني ضياع وقتٍ ثمينٍ في عبادته، وتقديم الأضاحي له، والقتال في سبيله والموت لأجله... إلخ، لن أتابع نقاش الموضوع هنا، ولٰكنّي أطالب القارئ الكريم وضع هٰذا في ذهنه، أنّنا عندما نناقش العواقب الأليمة الّتي تترتّب على الإيمان، ومراعاة التعاليم الدينيّة**»[1].

أقول: هٰذا الكلام الغريب عن الدين والإيمان ليس بمستغربٍ عن مثل دوكينز الّذي لا يعرف عن فلسفة الدين إلّا الطقوس والأضاحي والقتال، والناس أعداء ما جهلوا، ونحن كنّا قد بينّا فلسفة الدين في الأصل الخامس، وقلنا إنّ الدين الواقعيّ المطابق للعقل والحكمة، ما جاء إلّا رحمةً للعالمين، ومن أجل تكامل الإنسان، ومساعدته في الارتقاء والسموّ، ومن أجل تحقيق العدالة الاجتماعيّة، وأنّ التكليف الشرعيّ هو في الواقع تشريفٌ للإنسان، مثل التعليمات الطبّيّة، والدواء الّذي يعطيه الطبيب الحكيم للمريض من أجل شفائه وسلامته.

---

(1) ص 108.

ونحن نسأل السيّد دوكينز، حول العبادات الإلٰهيّة الّتي ترقى وتسمو بالإنسان، وسائر الأعمال الصالحة من البرّ والإحسان، ومساعدة الفقراء والمستضعفين الّتي تُقرّب الإنسان إلى ربّه، وترفع منزلته عنده في الدنيا والآخرة، وذكر الله الّذي تطمئنّ به القلوب، وتملأ النفوس بالأمل والنشاط، وهٰذه الحالة الإيمانية الّتي تملأ قلب المؤمن بالسكينة والاطمئنان عند اقتراب الأجل ونهاية العمر، كما أثبت ذٰلك الأطبّاء وعلماء النفس في مراكز الصحة النفسيّة والمعنويّة في أوربّا وأمريكا، كما أشرنا إلى ذٰلك من قبل[1]، إذا كان كلّ ذٰلك يعدّ مشقّةً كبيرةً ومضيعةً للوقت، فما هو الشيء الّذي يستحقّ أن نبذل فيه الجهد والوقت؟ هل هو في قضاء أوقاتنا في اللهو واللعب، أو في قراءة القصص والاستماع إلى حكاياتٍ وأشعارٍ طويلةٍ وركيكةٍ، أو في العبث والهراء المتعلّق بمباحث وموضوعاتٍ تافهةٍ وسخيفةٍ، كالّتي يثيرها هو وأمثاله ليل نهار في المحافل المختلفة؟! وأنا في الواقع لا أعلم، ما الّذي سيجنيه دوكينز في آخر حياته من كل هٰذا؟ وما هي الكمالات الحقيقيّة الّتي سيحصل عليها في نهاية عمره؟! فالأعمال

---

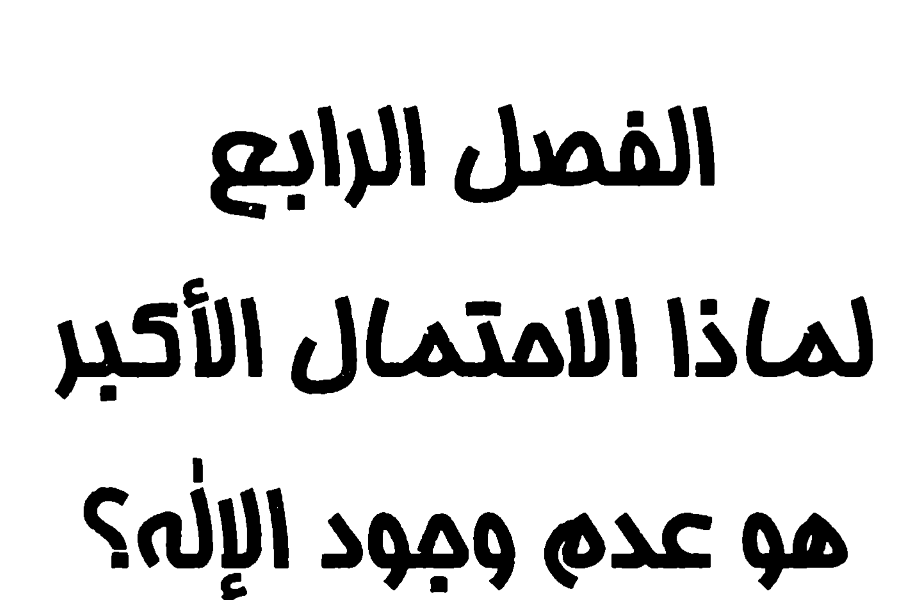
(1) Strawbridge WJ, Cohen RD, Shema SJ, Kaplan GA. Frequent attendance at religious services and mortality over 28 years. Am J Public Health. 1997; 87:957–961.

Yates JW, Chalmer BJ, St James P, Follansbee M, McKegney FP. Religion in patients with advanced cancer. Med Pediatr.

بخواتيمها وعواقبها يا سيّد دوكينز!

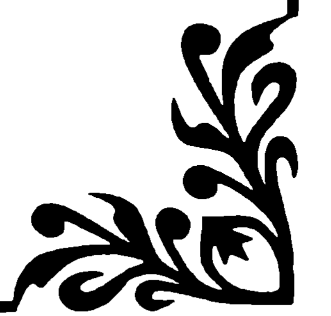
وإلى هنا نكون قد فرغنا من التعليق على الفصل الثالث، وبينّا بكلّ وضوحٍ هشاشة وركاكة كلّ الردود والإشكالات الّتي أوردها على أدلة إثبات المبدإ الإلٰهيّ، وأنّها ناتجةٌ عن جهله بمبادئ المنطق والفلسفة، ولننتقل بعدها للفصل الرابع المتعلّق بطرح البديل للمصمّم الذكيّ، واستبداله بصانع الساعات الأعمى، وهو الانتخاب الطبيعيّ لداروين، فهل يفلح في ذٰلك هٰذه المرّة؟

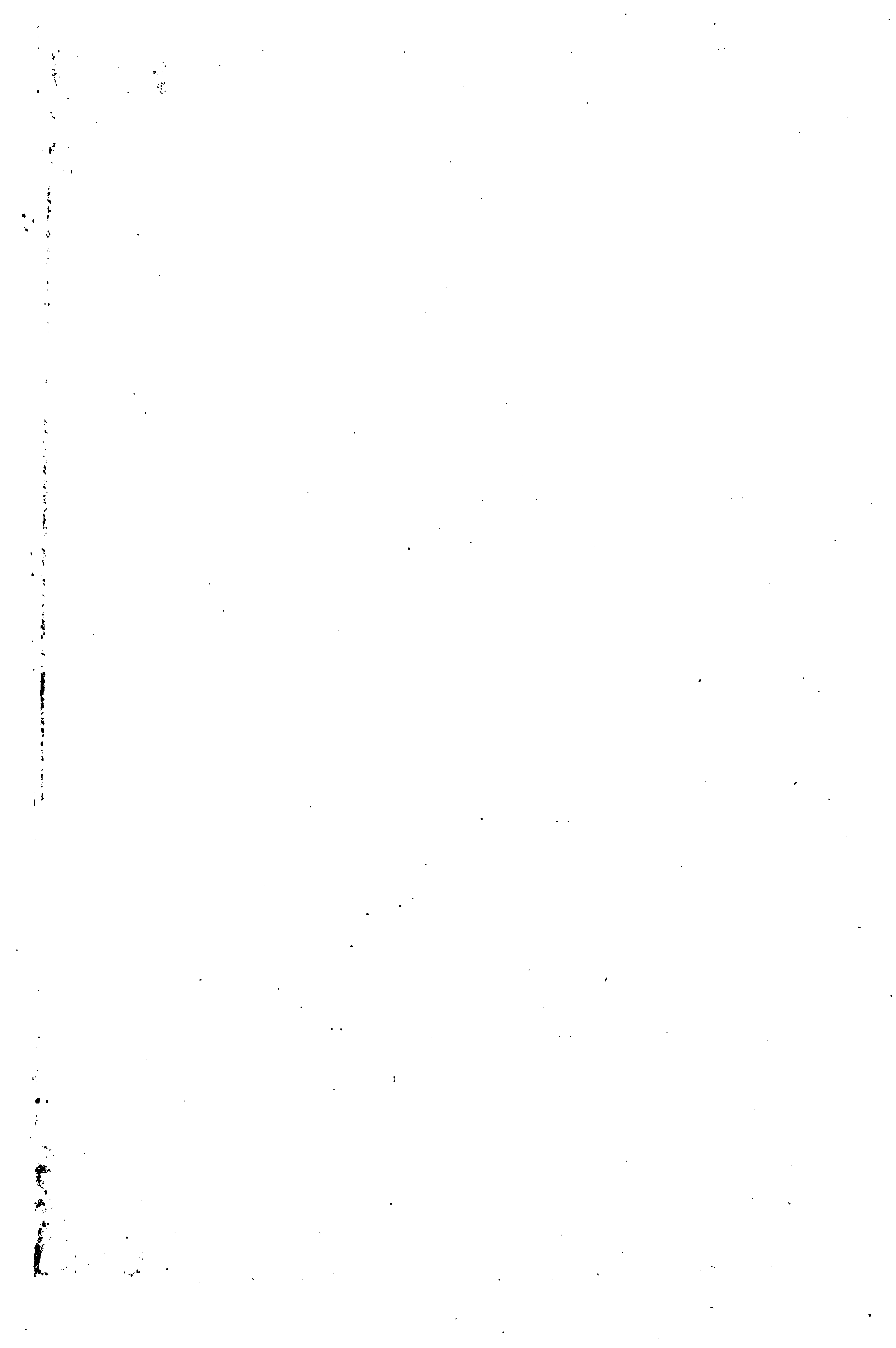




الفصل الرابع
لماذا الاحتمال الأكبر
هو عدم وجود الإله؟







الفصل الرابع

لماذا الاحتمال الأكبر هو عدم وجود الإله؟

افتتح دوكينز هٰذا الفصل كسائر الفصول، بما يعتمد عليه دائمًا من الشعر والخيال؛ لدغدغة مشاعر القارئ، وتهيئته لقبول كلّ مطالبه المزيّفة، وقد صدّره مرّةً أخرى بكلمةٍ شاعريّةٍ من إلهامات قدوته وصديقه المفضّل، ربيب الماسونية العالميّة توماس جيفرسون: «**رجال الدين من مختلف الطوائف يعانون من تقدّم العلم، كما يعاني السحرة من موعد طلوع الشمس**»[1].

أقول: لا يمكن أن تجُدي أمثال هٰذه التمثيلات الشعريّة في إضفاء الحقيقة والواقعيّة على الأقنعة العلميّة المزيّفة للإلحاد، الّتي يسعى دوكينز وأمثاله دائمًا أن يختبئوا وراءها؛ وذٰلك للأسباب التالية:

لقد سبق وأن أشرنا في الأصل الرابع إلى أنّه لا علاقة البتّة للعلم بمنهجه الحسّيّ التجريبيّ، بإثبات أو نفي المبدإ الإلٰهيّ؛ لأنّ هٰذا المبدأ بكلّ

---

(1) ص 113.

بساطةٍ ليس محسوسًا، فلا يمكن أن يقع موضوعًا للبحث العلميّ التجريبيّ المعتمد في حقيقته على تكرار المشاهدات الحسّيّة، وهو أمرٌ في غاية البداهة والوضوح، وقد ثبت المبدأ الإلٰهيّ ـ كما بينّا في الأصل الثاني من المقدّمة ـ وأيضًا في الفصل السابق إمّا ببراهين عقليّةٍ تجريديّةٍ محضةٍ، لا علاقة لها بأيّ أصولٍ علميّةٍ موضوعةٍ تجريبيّةٍ، كبرهان الإمكان، أو ببراهين تعتمد في صغرياتها فقط على المشاهدات الحسّيّة البدهيّة كأصل وجود الحركة أو أصل وجود النظام والتصميم، كبرهان الحركة والنظم.

إنّ كلّ النظريّات الفيزيائيّة أو البيولوجيّة أو الكيميائيّة إنّما تبحث عن الأسباب القريبة للظواهر الطبيعيّة وكيفيّة تطوّراتها، ولا شأن لها بالبحث عن أصل الكون أو الحياة؛ لأنّها كما قلنا معنيّةٌ فقط بالجواب بـ (كيف هو؟) لا بـ (لم هو؟)، ولأنّها بكلّ بساطةٍ لا سبيل لها إلى ما وراء الطبيعة، ولا ينكر هٰذا الأمر أيّ أحدٍ من العلماء الطبيعيّين المحقّقين، إلّا من يجهل حقيقة المنهج العلميّ، أو يجهل موضوعات العلوم التجريبيّة.

إنّ أيّ تعارضٍ يقع بين النتائج العلميّة القطعيّة، وظواهر النصوص الدينيّة، يحكم العقل السليم فيها بضرورة تأويل النصّ الدينيّ أو الحكم بعدم نسبته أصلًا إلى الدين الإلٰهيّ، وكل هٰذا دون أن يضرّ بمصداقيّة الدين، فضلًا عن نفي المبدإ الإلٰهيّ.

ولنعد مرّةً أخرى إلى ما يقوله دوكينز، قال: «**حجّة اللا احتماليّة تنصّ**

على أنّ الأشياء المعقّدة لا تأتي بالصدفة، والغالبيّة يفسّرون "بأن تأتي بالصدفة" بمعنى "تأتي بدون غايةٍ لتصميمها"؛ ولذلك فليس من المفاجئ أن يُتصوّر بأنّ اللا احتمالية، هو دليلٌ على التصميم. الانتخاب الطبيعيّ الداروينيّ يُظهر لنا خطأ ذلك عند اعتبار اللا احتماليات فيما يتعلّق بالبيولوجية، وعلى الرغم من أنّ الداروينية لا تتعلّق بشكلٍ مباشرٍ بعالم الأشياء الجامدة، كعلم الكون مثلًا، فإنّها ترفع مستوى الوعي عندنا خارج نطاق مجالاتها المحصورة بالبيولوجيا»[1].

أقول: إنّنا قد تعرّضنا لبيان برهان التصميم في الأصل الثاني من المقدّمة، وأثبتنا تماميّته المنطقيّة، وتعرّضنا أيضًا بالتفصيل في الأصل الرابع إلى فرضيّة داروين في الانتخاب الطبيعيّ، وأثبتنا من كلام داروين نفسه أنّ هذه النظرية لا يمكن أن تكون بأيّ حالٍ من الأحوال بديلًا عن نظريّة التصميم الإلهيّ، وأنّها ناظرةٌ إلى تطوّر الأنواع من خليّةٍ واحدةٍ بسيطةٍ بالتدريج البطيء جدًّا، فهي ـ على فرض صحّتها ـ تنفي النظريّة القائلة بوجود الأنواع المختلفة منذ بداية الخلقة، وليس لها أيّ علاقةٍ بأصل الخلقة، أو مبدإ الحياة.

والغريب أنّ دوكينز يعترف بنفسه هنا بأن هذه الفرضية إنّما تتعلّق بتطوّر الكائنات الحيّة و"**لا تتعلّق بشكلٍ مباشرٍ بعالم الأشياء الجامدة**"

---

(1) ص 115.

فكيف بحقّ السماء يراها بديلةً عن نظريّة التصميم الإلٰهيّ الذكيّ المتعلّق بأصل الكون والحياة؟! وهل الكائنات الحيّة هي المعقّدة التركيب فقط بحيث تحتاج إلى مصمّمٍ دون غيرها؟ وهل هٰذه المنظومة الفلكيّة البديعة بقوانينها الدقيقة والكثيرة الّتي تحيّر الألباب، وتركيب الذرّات الدقيق والعجيب ليس بالأمر المعقد؟! ثم يُضيّع وقتنا بعد ذٰلك، ووقت القارئ الكريم هنا في هٰذا الكتاب، بل ووقت الناس في كلّ مكان يذهب إليه، في الإطناب في بيان هٰذه الفرضيّة، والثناء عليها، بل وتقديسها، واتهام كلّ من ينكرها بالجنون! أليس هٰذا تناقضًا صريحًا، واستخفافًا بعقول الناس؟!

ثم قال بعدها: «**الفهم العميق للداروينية يعلّمنا الحذر عندما نفترض بأنّ التصميم هو البديل للصدفة، ويعلّمنا أن نبحث عن سلسلة تدرّجاتٍ بطيئةٍ جدًّا باتّجاه التعقيد**»[1].

أقول: هٰذا الكلام يكشف بوضوحٍ عن المستوى المنطقيّ الفلسفيّ المتدنّي لدوكينز ـ كما أشرنا من قبل ـ فها هو يرتكب هنا خطأين لا يغفرهما له العقل أبدًا:

الأوّل: أنّه يرى وجود الواسطة بين التصميم الذكيّ ـ الّذي لا يكون

---

(1) الصفحة نفسها.

إلّا ذكيًّا ـ وبين الصدفة الّتي تعني عدم التصميم الذكيّ، وبالتالي يكون قد قال بارتفاع النقيضين، وهٰذه الواسطة يسمّيها دوكينز بالتصميم الأعمى، أي التصميم بلا غايةٍ، وهو أمرٌ مضحكٌ، إذ لا يعني أحدٌ بالصدفة إلّا التصميم الأعمى، كما صرّح هو بنفسه هنا.

الثاني: كما أسلفنا من قبل أنّه يرى أنّ المحال العقليّ ـ وهو خروج الشيء بنفسه من القوّة إلى الفعل ـ يمكن أن يصبح ممكنًا إذا تحقّق من أمرٍ بسيطٍ وببطءٍ تدريجيٍّ شديدٍ جدًّا، وهو حكمٌ وهميٌّ محضٌ، وخطأٌ لا يرتكبه حتّى عوام الناس؛ إذ إنّ فاقد الشيء لا يعطيه، ومن المحال أن يعطيه، لا دفعةً واحدةً ولا بالتدريج، ولو طال ملايين السنين.

يقول دوكينز مرّةً أخرى: «**ومرّةً أخرى التصميم الذكي ليس البديل الصحيح للصدفة، الانتخاب الطبيعيّ ليس حلًّا اقتصاديًّا معقولًا وأنيقًا فقط، بل إنّه الحلّ الفعال الوحيد الّذي تمّ طرحه حتّى الآن، بديلًا للصدفة المقترحة منذ الأزل**»[1].

أقول: لقد بيّنّا في الأصل الرابع، وكما سنبيّن لاحقًا، أنّ الانتخاب الطبيعيّ لداروين، هو نفسه عين الصدفة، وهو التصميم الأعمى، والتلاعب بالألفاظ، وتمويه المعاني لن يغيّر من الواقع شيئًا؛ لأنّ

---

(1) ص 120.

الانتخاب الطبيعيّ يعني بكلّ بساطةٍ، وكما عرّفه داروين نفسه، هو (محافظة الطبيعة على التمايزات الجينيّة النافعة، وتدميرها للاختلافات الجينيّة الضارّة)[1]، وهنا نسأل دوكينز:

كيف حصلت الاختلافات الجينيّة، الّتي هي متعلّق الانتخاب الطبيعيّ، وتميّزت إلى نافعٍ وضارٍّ؟ فإن حدثت بلا سببٍ عاقلٍ، أو بلا غايةٍ ـ كما تزعم ـ فهٰذه هي الصدفة؛ ولذٰلك سمّاها داروين بالطفرات الجينيّة، وهي أمرٌ غير الانتخاب الطبيعيّ الّذي يحافظ على النافع منها بعد ذٰلك.

كيف تُميّز المادّة الحيّة غير الواعية (العمياء) بين النافع والضارّ، ولماذا تفعل ذٰلك؟ هل قام ببرمجتها مهندسٌ ذكيٌّ كمهندس الحاسوب؟ وهو ما يرفضه دوكينز، أو إنّها تفعل ذٰلك دائمًا بالصدفة؟ وهو محالٌ في نفسه، وخلاف ما افترض دوكينز بنفسه.

إنّ أصل المشكلة الّتي تواجه الانتخاب الطبيعيّ على فرض مغايريته للصدفة ـ كما يتوهّم دوكينز ـ هي مشكلة الصدفة نفسها، وهي كيف يُخرج الشيء نفسه من القوّة إلى الفعل، وفاقد الشيء لا يعطيه، فكيف خرجت تلك الأنواع المعقّدة من الخليّة البسيطة غير المشتملة إلّا على نواةٍ

---

(1) أصل الأنواع، ص 161.

بسيطةٍ واحدةٍ، سواءٌ دفعةً واحدةً، أو بالتدريج على مرّ ملايين السنين؛ لأنّ مجرّد تحوّل الشيء بنفسه إلى شيءٍ آخر أرقى منه ـ ولو بدرجةٍ واحدةٍ ـ محالٌ وممتنع الوقوع.

ثمّ قال: «**التصميم الذكيّ يعاني من نفس فرضيّة الصدفة، وببساطةٍ هو ليس حلًّا معقولًا لمشكلة اللا احتمالية العالية، فكلّما علا مستوى اللا احتماليّة، أصبحت نظريّة التصميم أقلّ احتماليّةً، بل إنّه سيقوم بمضاعفة المشكلة من الأساس، ومرّة أخرى المشكلة الّتي يثيرها المصمم نفسه هي أكبر، وكيف وجد أساسًا**»[1].

أقول: قد تبين أن الانتخاب الطبيعيّ هو الّذي يعاني من نفس فرضيّة الصدفة، أمّا التصميم الذكيّ فهو البديل الضروريّ الوحيد للصدفة المحالة، لا لأنّ المتديّنين يقولون به، بل لأنّه هو المطابق الوحيد لأحكام العقل الضروريّة القاضية بمحاليّة خروج الشيء بنفسه من العدم إلى الوجود بالحدوث، أو من القوّة إلى الفعل بالتطوّر، واحتياجه إلى غيره، واحتياج التصميم العظيم والبديع الّذي نشاهده بأعيننا ويُقرّ به جميع العلماء بما فيهم دوكينز نفسه، إلى مهندسٍ أعظم منه، وأقدر.

أمّا قوله إنّه «**كلّما علا مستوى اللا احتماليّة، أصبحت نظريّة التصميم أقلّ**

---

(1) الصفحة نفسها.

احتمالِيَّةً»، فيقصد منها أنّه كلّما ازداد تعقيد النظام الطبيعيّ، كان المصمّم أكثر تعقيدًا، وأصعب تحقّقًا! وأنا لا أدري ما هي المشكلة في ذلك، ولماذا أصعب تحقّقًا؟ بل هٰذه هي ضرورةٌ عقليّةٌ، فصانع السيّارة أعظم تفكيرًا من صانع الدراجة، وصانع الطائرة أعظم تفكيرًا من صانع السيّارة، وهٰذا ما يدّعيه المؤمنون، وهو أنّ خالق الكون العظيم يتمتّع بقدرةٍ مطلقةٍ غير متناهيةٍ، لٰكنّ مشكلة السيّد دوكينز المستعصية على الحلّ في نظرنا، هي نزعته الحسّيّة السطحيّة الشديدة، المانعة له من التعقّل والتفكير المجرّد العالي والعميق، فكلّ ما لا يستطيع أن يتخيّله بحسّه، فهو ممتنع الوجود عنده، وبما أنّ عالم الطبيعة في غاية التعقيد، فمصمّمه لا بدّ وأن يكون في غاية غاية التعقيد، وهو ما لا يتخيّله؛ فلنزعته الحسّيّة لا يفهم من التعقيد إلّا التركيب المادّيّ المعقّد، غافلًا أو متغافلًا عن أنّ خالق الطبيعة لا يمكن أن يكون منها، بل وراءها وفوقها، وكما أثبتت البراهين العقليّة أنّه ـ تعالى ـ بوصفه علّة العلل والعلّة الأولى، والمحرّك الأوّل، وواجب الوجود، فهو مجرّدٌ عن المادّة، وأنّه ليس كمثله شيءٌ، وإلّا ما امتاز عن سائر الأشياء، وهو في غاية العظمة والقدرة والكمال

وأمّا قوله: «**ومرّةً أخرى المشكلة الّتي يثيرها المصمّم نفسه هي أكبر، وكيف وجد أساسًا؟**» فهو نفس الشبهة الطفوليّة السخيفة الّتي غالبًا ما يسألها الأطفال لآبائهم، والّتي يتشدّق بها دائمًا السيّد دوكينز، وأمثاله من الملحدين الّذين توارثوها من أسلافهم، كبرتراند رسل وغيره منذ قديم

الزمان، وهي أنّ الله ـ تعالى ـ إن كان قد خلق العالم، فمن خلق الله؟!
والجواب بكلّ بساطةٍ:

أوّلًا: بقلب السؤال عليهم، وهو أنّكم تقولون أنّ الكون قد خلقنا، فنسألكم: من خلق الكون؟

ثانيًا: لقد رددنا على هٰذه الشبهة في الأصل الثاني في حقيقة المبدإ الإلٰهيّ، وهو أنّه واجب الوجود بذاته، وأنّه العلّة الأولى، بمعنى أنّ وجوده عين ذاته، كما أثبت ذٰلك البراهين العقليّة القطعيّة، وبالتالي لا معنى للسؤال عمّن خلقه؛ لأنّ الذاتيّ لا يعلّل، ولأنّه العلّة الأولى الّتي لا علّة لها، والّتي لولاها للزم التسلسل المحال، كما لا معنى للسؤال عن السبب في كون البياض أبيض؛ لأنّه أبيض بذاته.

ونعود فنؤكّد من جديدٍ أنّ المشكلة المزمنة عند دوكينز هي نزعته الحسّيّة المادّيّة، وهي الّتي تمنعه دائمًا من تصوّر حقيقة المبدإ الإلٰهيّ العظيم، وتجعل أحكامه الغيبيّة دائمًا أحكامًا وهميّةً محصورةً في عالم الحسّ والمادّة، وغاية ما يمكن أن يدركه عقله الوهميّ الضعيف للموجود الخارق، هي الكائنات الفضائيّة الخرافيّة الهوليوديّة، كما يشير إليها كثيرًا في مناظراته بديلًا للخالق الإلٰهيّ العظيم، وهو نفس تصوّر الأطفال، والسذّج من العوام المخرّفين.

يقول دوكينز: «**ما هو السبب الّذي يجعل الانتخاب الطبيعيّ ينجح كحلٍّ**

لمشكلة اللا احتمالية، حينما تفشل كلا فرضيّتي الخلق والصدفة عن خطّ البداية؟ الجواب هو أنّ الانتخاب الطبيعيّ هو عمليّةٌ تراكميّةٌ، ممّا يجزّئ مسألة اللا احتماليّة لأجزاءٍ صغيرةٍ، وكلٌّ منها صغيرٌ بحيث إنّ لا احتماليته منطقيّةٌ بشكل ما، ولٰكن ليست من محالات الحدوث، وعند تراكم العديد من التراكمات، فإنّ الناتج النهائيّ سيكون لا احتماليا بشكلٍ كبيرٍ جدًّا جدًّا بالطبع، لا احتمالي بشكلٍ لا يقبل مجالًا للشكّ أن يكون قد حدث عن طريق الصدفة، والناتج النهائيّ الّذي يشكّل الكائن الّذي يحاجج به الخلوقيّون بشكلٍ مرهقٍ بأشكاله المختلفة، الخلوقيّ يخطئ الهدف؛ لأنّه يصرّ على أنه يعامل احتماليّة التكوين المعقّد كخطوةٍ واحدةٍ، وحدثٍ واحدٍ، إنّه لا يفهم التراكم»[1].

أقول: سبق وأن أشرنا إلى أنّ السيّد دوكينز يرى إمكان تحقّق المحال بالتدريج، وها هو ذا يلوذ بنظريّة الاحتمالات الرياضيّة، لتسويغ ذٰلك، وتضليل القارئ، متوهّمًا أنّه قد حلّ مشكلة المشكلات، ونحن كنّا قد نبّهنا إلى خطإ ذٰلك بوضوحٍ، فهو يتوهّم أنّه إذا أصبحت خليّةٌ واحدةٌ نملةً صغيرةً في مليون سنةٍ بالتدريج البطيء جدًّا، فهو أمرٌ ممكنٌ، وأمّا إذا أصبحت إنسانًا دفعةً واحدةً، أو خلال فترةٍ قصيرةٍ، فهٰذا محالٌ في نفسه، وهو مجرّد حكمٍ وهميٍّ، وسنجيب مرّةً أخرى بأسلوبٍ آخر أكثر وضوحًا على هٰذا التوهّم، بنحوٍ يسلب دوكينز دليله الوحيد اليتيم الّذي تبنّاه،

(1) ص 123.

وتعلّق به بكلّ وجوده في حياته كبديلٍ للمبدإ الإلٰهيّ، وهو الانتخاب الطبيعيّ، فنقول:

إذا استطاع دوكينز أن يفسّر لنا تحوّل خليّةٍ واحدةٍ إلى إنسانٍ معقّدٍ بالتحوّل التدريجيّ خلال ملايين السنين، عن طريق الانتخاب الطبيعيّ، فكيف يفسّر تحوّل خليّةٍ واحدةٍ، وهي نطفة الإنسان، إلى إنسانٍ كاملٍ في غاية التعقيد خلال أقلّ من تسعة أشهر في بطن أمّه؟! إذ أثبت الأطبّاء وعلماء الأحياء وقوع التغيّر الهائل والسريع في التطور البيولوجيّ للخلايا في كلّ آنٍ ولحظةٍ.

إنّ الانتخابَ الطبيعيّ مع كونه أمرًا مبهمًا وصعب التصوّر والقبول ـ كما يعترف داروين نفسه في كتابه ـ وليس مرجعه في الحقيقة إلّا إلى الصدفة، فهو لا يتمّ إلّا بعد حصول التمايزات بالطفرات الجينيّة العشوائيّة مجهولة السبب، ممّا يعني أن حصول الإنسان من خليّةٍ واحدةٍ على مرّ ملايين السنين، إنّما هو حصيلة تريلونات التريليونات من الصدف العشوائيّة، وهو ما أراد أن يفر منه دوكينز، فوقع فيه.

لماذا تنتخب الطبيعة دائمًا الأصلح، وتعتني به وتحفظه مع عدم وجود أيّ غايةٍ معقولةٍ لها في الحياة، وكيف يخرج النظام من اللا نظام، وهو خلاف قانون السنخيّة البدهي.

الإشكال الأساسيّ الّذي يتوجّه على توجيه دوكينز الشاذّ للانتخاب

الطبيعيّ، لا يتعلّق فقط بالعلّة الغائيّة للنظام، حتّى يتشبّث بالتراكم التدريجيّ الطويل لتقليل اللا احتمال، بل يتعلّق بالعلّة الفاعليّة الّتي أخرجت الشيء من القوّة إلى الفعل، فلا يمكن للشيء أن يُخرج بنفسه شيئًا فاقدًا له؛ لأنّ فاقد الشيء لا يعطيه، فلا يمكن للطبيعة أن تتطوّر بنفسها بأدنى تطوّرٍ، ولو على مدى ملايين السنين. ومن أجل ذٰلك لم يجد داروين نفسه في كتابه أيّ حرجٍ من التصريح بضرورة وجود خالقٍ ومصمّمٍ عظيمٍ ليخرج الأشياء من القوّة إلى الفعل، كما بينّا في الأصل الرابع من المقدّمة.

يقول **فرانسيس كولينز**، أحد أكبر علماء الأحياء في العالم، ومكتشف رمز الـ *(DNA)* ورئيس مشروع الجينوم البشريّ في أمريكا، الّذي باهت به الحكومة الأمريكية ـ وما زالت ـ العالم كلّه، وهو مع تديّنه وإيمانه الشديد بالله تعالى، فهو أعلم وأعمق مئة مرّةٍ من دوكينز، وأفهم منه لنظريّة التطوّر، نجده يقول: «**من الّذي يحجر على الإلٰه في أن يستعمل آليّة التطوّر في الخلق، فالتطوّر آليّةٌ يستعملها الإلٰه تمامًا كما يستعمل آليّة الخلق الخاصّ**»[1].

التنبيه العقليّ الأخير للسيّد دوكينز لعلّه يراجع حساباته من جديد،

---

(1) وهم الإلحاد، ص 85.

هو أنّه لو كان هناك خالقٌ وهادٍ للأشياء يقوم بتوجيه عمليّة التطور، ويهندس وجود الأنواع المختلفة بالتدريج بكلّ دقّةٍ وبراعةٍ، كيف كان من الممكن أن تسير عملية التطوّر، وكيف كان من الممكن أن يُثبت هٰذا الخالق الحكيم لدوكينز وأمثاله وجوده وعنايته وتدبيره للكائنات، أكثر من ذٰلك؟ أرجو من السيّد دوكينز أن يتأمّل في السؤال جيّدًا، وأن يتروّى ويتأنّى قليلًا قبل أن يجيب عليه؛ لأنّ غاية الإنسان العاقل هي الوصول للحقيقة مهما كانت نتائجها.

وبعد كلّ هٰذه البيانات العلميّة العقليّة المنطقيّة المحكمة، فلن تُجدي السيّد دوكينز بعد ذٰلك ما يرويه من قصصٍ وحكاياتٍ، وأمثلةٍ وتشبيهاتٍ خياليّةٍ لتبرير موقفه.

ويستمر دوكينز في إشكالاته الكاشفة عن تدنّي وتردّي مستواه المنطقيّ والفلسفيّ، حيث يرفع الستار عن وهمٍ آخر نسبه للمؤمنين، وسمّاه بأسلوب سدّ الثغرات، إذ قال: «**الخلوقيّون يبحثون بشغفٍ عن فراغاتٍ في معارف العصر ومفاهيمه، وبمجرّد ظهور ما يبدو حلقةً مفقودةً، فإنّهم يفترضون أنّ الله يجب أن يملأها بطبيعة الحال، وما يقلق رجال الدين المفكّرين مثل "باهنهوفر"، هو أنّ هٰذه الفراغات بدأت تصغر مع تقدّم العلم،**

والله في هٰذه الحالة مهدّدٌ بعدم وجود أيّ شيءٍ يفعله، أو أيّ مكانٍ يختبئ فيه»[1].

أقول: سبق وأن بيّنّا في الأصل الثاني، انقسام العلل إلى قريبةٍ وبعيدةٍ، وأنّ انكشاف العلل القريبة لا ينفي وجود العلل البعيدة، وقلنا إنّ الفرق بين العالم الطبيعيّ والفيلسوف هو أنّ الأوّل يبحث عن العلل القريبة المتعلّقة بالسؤال بـ (كيف هو؟) وأمّا الفيلسوف فيبحث عن العلل البعيدة المتعلّقة بالسؤال بـ (لم هو؟)، وكما قلنا فإنّ الفلاسفة وغالبيّة المؤمنين يؤمنون بأنّ المبدأ الإلٰهيّ لا يباشر بنفسه الأشياء الطبيعيّة، وإنّما يفعل ما يفعله بوسائط كثيرةٍ، وإنّ نظام الحكمة هو نظام سلسلة الأسباب والمسبّبات، كما هو موجودٌ في كتب الحكمة والفلسفة الإلٰهيّة الّتي لم يقرأ السيّد دوكينز حتّى فهارسها.

فالمبدأ الإلٰهيّ الحكيم يا سيّد دوكينز، ليس إلٰه سدّ الثغرات، بحيث يكون منشأ وجوده الجهل بالأسباب القريبة، بل منشأ وجوده هو العلم القطعيّ القائم على البراهين العقليّة العلميّة والفلسفيّة السالفة الذكر، بأنّه هو الّذي يخرج الأشياء من العدم إلى الوجود ومن القوّة إلى الفعل، ومن كان هٰذا هو حاله، فكيف يخشى من التطوّر العلميّ، بل الّذي ينبغي أن يخشى من التقدم العلميّ هو دوكينز وأمثاله، عندما يثبت العلم يومًا بعد

---

(1) ص 127.

يوم تعقيد النظام والكائنات الحيّة بنحوٍ يدفع بالإنسان العاقل أن يزداد إيمانه بالخالق الحكيم، في الوقت الّذي يسعى فيه دوكينز وأمثاله إلى البحث عن الثغرات الّتي توهم بعدم وجود نظامٍ، مثل مسألة الشرور وغيرها؛ ولذٰلك نجد العديد من علماء الأحياء والفيزيائيّين الحقيقيّين في القرن العشرين، الّذين اطّلعوا على هٰذه الأنظمة المعقّدة، قد اعترفوا بصراحةٍ بوجود المبدأ الإلٰهيّ[1]، ولا ننسى في هٰذا المقام أن نذكر زعيم الملاحدة الأكبر في القرن العشرين، الفيلسوف البريطانيّ الكبير **سير انتوني فلو** الّذي آمن في أواخر حياته بالمبدإ الإلٰهيّ؛ بسبب الاكتشافات العلميّة المتتالية والمتسارعة كما يقول، الّتي تثبت في كلّ يومٍ دقّة التعقيد والتصميم العظيم، والّتي لا يمكن توجيهها بالانتخاب الطبيعيّ، كما صرح بذلك في كتابه **"هناك إله"**.

والّذي نتمنّاه هو أن يعتبر دوكينز من سيرة هٰذا الملحد العنيد الّذي قضى حياته كلّها في التنظير والدفاع عن الإلحاد، قبل أن يؤمن بوجود الخالق سبحانه وتعالى، ولعلّ الله ينظر إلى دوكينز بلطفه ورحمته، ويختم له بالإيمان كما فعل بزعيمه، قبل فوات الآوان.

ينتقل دوكينز بعد ذٰلك إلى مسألةٍ دقيقةٍ وحسّاسةٍ، كانت وما زالت

---

(1) راجع كتاب: (الله في عصر العلم).

المشكلة الأكبر لدى الملحدين، والّتي تؤرّق نومهم، وتحوّل أحلامهم إلى كوابيس مزعجةٍ، فيبحثون عبثًا عن أقراصٍ منوّمةٍ، أو لا أقلّ أقراصٍ مهدّئةٍ، تهدّئ من أنين عقولهم، وتُسّكن آلام ضمائرهم، ويفتّشون عن ملابس باليةٍ يغطّون بها عوراتهم العلميّة، هٰذه المسألة المستعصية على مغالطاتهم، والأبيّة على تزييفاتهم، هي مسألة أصل الحياة، وكيفيّة نشوئها في هٰذا الكون؛ إذ إنّها خارجةٌ عن نطاق تأثير سلاحهم المزيّف الّذي سحروا به أوهام الناس، وهي نظريّة التطوّر الداروينيّة، الّتي كشفنا عن زيف الاستفادة منها لتكون بديلًا وهميًّا للمبدأ الإلٰهيّ.

يتكلّم دوكينز بأسلوب العاجز المسكين الّذي يشعر بثقل المشكلة، والسعي للتملّص منها بأيّ شكلٍ ممكنٍ، فيقول: «**أصل الحياة يزدهر ليكون موضوعًا لبحثٍ تخمينيٍّ، والخبرات المطلوبة كيميائيّةٌ، وليست من اختصاصي، وأنا أقف كالمتفرّج الفضوليّ، ولن أتفاجأ لو أنّه في خلال بضعة سنين قادمة، بأنّ الكيميائيين نجحوا في توليد أصلٍ للحياة في المختبر، على الرغم من أنّ ذٰلك لم يحصل حتّى الآن... ونستطيع أن نقول إنّه مهما كان الاحتمال لأصل الحياة ضعيفًا، ولٰكنّنا نعلم أنّها حصلت مرّةً على كوكب الأرض لأنّنا هنا**»[1].

أقول: للقارئ الكريم أن يلاحظ بوضوح حالتي الضعف والارتباك

(1) ص 139.

الشديدين اللتين يعاني منهما دوكينز خلال هٰذا البيان المضحك المبكي، ولنا مع ذٰلك أن ننبّه فقط على موارد الضعف والخلل في كلامه، فنقول:

إنّ أصل الحياة، وكيفية نشوئها هو بحثٌ فلسفيٌّ عقليٌّ، وليس بحثًا كيميائيًّا تجريبيًّا.

إنّ موضوع أصل الحياة، وخروجها من العدم أو من المادّة غير الحيّة، ليس بحثًا تخمينيًّا ظنّيًّا، بل هو بحثٌ فلسفيٌّ يقينيٌّ ثبت بالبراهين العقليّة القطعيّة بأن الحياة قد وهبها الخالق لتلك المادّة الصمّاء بعد حصول الاستعداد المناسب فيها؛ لامتناع خروج الحياة من اللا حياة.

إنّ الحياة ليست شيئًا مادّيًّا حتّى نتوقع حصولها نتيجةً للتفاعلات الكيميائيّة، فالحياة ليست مادّةً ولا طاقةً، بل شعورٌ وعواطف، ووعيٌ وإدراكٌ للذات وتفكيرٌ.

إنّه على فرض تمكّن العلماء الكيميائيّين من إيجاد الحياة في المختبر نتيجة تفاعلٍ بين عنصرين أو أكثر، وتحقّقت نبوءة دوكينز وأحلامه، فلا يدلّ ذٰلك بأيّ نحوٍ من الوجوه على أنّ الحياة وجدت بلا سببٍ، لامتناع خروج الحياة من اللا حياة، ونقول حينها إنّ الله ـ تعالى ـ أفاض الحياة على تلك الموادّ الميّتة بعد أن هيّأ العلماء الأرضيّة لذٰلك، كما يفيض الحياة على البذرة، بعد أن يهيّئ الزارع الأرضيّة لذٰلك؛ فلا تمنّي نفسك يا سيّد دوكينز بهٰذه الأماني الجوفاء.

إنّه يُعيد ويُكرّر أنّ الحياة قد حصلت مرّةً واحدةً لصدفةٍ مجهولةٍ! وأنا أتعجب أن يصدر ذٰلك الهراء من عالم أحياءٍ متخصّصٍ، وهو يرى في كلّ يومٍ كيف تدبّ الحياة والنضارة في النواة والحبوب الجامدة، والنباتات الذابلة في الخريف عند مجيء فصل الربيع، وكيف يتحوّل الغذاء الجامد في كلّ يومٍ في الأجهزة التناسلية للإنسان، إلى نطفٍ وحيواناتٍ منويّةٍ حيّةٍ، فالحياة تتدفّق في كلّ يومٍ ملايين المرّات، ولٰكنّ دوكينز لا يراها، كما لا يرى عجائب الكون والآيات من حوله.

إذا توهّم دوكينز إمكان ظهور الحياة منذ حوالي أربعة ملايين سنةٍ ـ كما يقول الفيزيائيّون ـ نتيجة تفاعلاتٍ كيميائيّةٍ اتّفاقيّةٍ، فكيف يبرّر ويوجّه ظهور أصل العالم من العدم بالانفجار الكبير *(Big Bang)* منذ حوالي 13 بليون سنةٍ؟ وهل هٰذا أيضًا نتيجة تفاعلاتٍ كيميائيّةٍ في العدم؟!

ثمّ يقول: «**ومن هنا يأتي المبدأ الأنثروبي من تلقاء نفسه، بإمكاننا معالجة فكرة أصل الحياة بافتراض عددٍ هائلٍ من الفرص الكوكبيّة، وبمجرّد أن نحصل على ضربة الحظ، والمبدأ الانثروبيّ يضمن لنا حصولها بشكلٍ أكيدٍ، يبدأ الانتخاب الطبيعيّ في العمل، والانتخاب الطبيعيّ ليس موضوع حظٍّ أبدًا**»[1].

(1) ص 142.

أقول: يريد السيّد دوكينز هنا أن يبرّر أصل حصول الحياة بالصدفة الممكنة، ومن أجل تبرير حصول هٰذا الاحتمال الضئيل جدًّا جدًّا، يعدّ وقوعه في كوكبٍ واحدٍ من ضمن مليار كوكبٍ مثلًا، فلو كانت نسبة حصول الحياة بالصدفة واحدًا في المليار، فمن الممكن جدًّا أن تحدث في كوكبٍ واحدٍ على الأقل، وهٰذا ما سماه بالمبدإ الانثربولوجيّ، أي مبدأ حصول وتوافر كلّ الشروط اللازمة لحياة الإنسان فوق هٰذا الكوكب، وهي نظرية تعدّد الأكوان *(Multiverse)*، وقد وضع هٰذه النظريّة بعض علماء الفيزياء الملحدين؛ من أجل إيجاد بديلٍ عن المصمّم الذكيّ، وتمسّك بها دوكينز وأمثاله، متوهّمين أنّهم قد أوجدوا البديل المنطقيّ للمبدإ الإلٰهيّ.

ومن الطريف أنّ دوكينز سأل في لقائه مع الفيزيائيّ الملحد المعروف **ستيفن واينبرج** ـ الحاصل على جائزة نوبل ـ عن نظريّة تعدّد الأكوان؛ لتكون مخرجًا علميًّا، وبديلًا عن نظريّة المصمّم الذكيّ للمؤمنين، فقال واينبرج ـ وقد ظهر عليه القلق والتوتّر وهو يمسح على رأسه بعصبيّةٍ ـ صادمًا دوكينز في عقيدته الوهميّة:

«إنّه لأمرٌ مزعجٌ بالفعل... لا أظنّ أنّ على أحدنا أن يستهين بالورطة الّتي نحن فيها، وأنّنا في النهاية لن نستطيع أن نفسّر العالم... وسيبقى دائمًا سؤالٌ: لماذا قوانين الطبيعة كما هي الآن، وليست مختلفةً، ولا أجد أيّ طريقةٍ للخروج من هٰذا في نظريّةٍ حقيقيّةٍ، فنظريّة تعدّد الأكوان ليست فقط بتخمينٍ؛ لأنّ النظريّة

ستكون تخمينًا، ولٰكن لا يوجد لدينا نظريّةٌ نستطيع أن نضع بها التخمين في قوانين رياضيّةٍ... ولٰكنّها احتماليّةٌ»[1].

وأنا لا أريد أن أخوض في صحّة هٰذه الفرضيّة الّتي هي ليست فقط مجرّد تخمينٍ ظنّيٍّ، بل هي مجرّد نظريّةٍ ملفّقةٍ بعدد الاحتمالات الفلكيّة الهائلة جدًّا؛ لتبرير صدفة حصول الكون المناسب للإنسان، ولا يوجد أيّ دليلٍ علميٍّ عليه كما يصرح واينبرج، ولا أريد أن أشير إلى النسبة الاحتماليّة الضئيلة جدًّا جدًّا لحصول هٰذه الصدفة، والّتي عبّروا عنها بأنّها ربّما تكون واحدًا أمامه 150 صفرٍ. ولٰكن أقول بكلّ بساطةٍ إنّ الممتنع الحصول في حكم العقل لا يخضع وقوعه إلى نسبة الاحتمالات، والعقل البدهيّ يحكم بامتناع خروج الحياة من اللا حياة، وهٰذه الامتناع لا يمكن تجاوزه بمثل هٰذه الفرضيّات المزيّفة السخيفة، أو وصف هٰذا الإعجاز الإلٰهيّ العظيم بأنّه مجرّد ضربة حظٍّ! أليس هٰذا نوعًا من الخرافة الّتي طالما نسبوها إلى المتديّنين؟! بل إنّ أعظم خرافات عوامّ الناس تتضاءل أمام شناعة هٰذه الخرافة؛ لأنّ القول بوجود عفاريت وشياطين تتحكّم في الظواهر الطبيعيّة لا يلزم منها التناقض، ولو أبطلها العلم، على خلاف القول بخروج الأشياء من العدم بنفسها، وصدور النظام من اللا نظام المستلزم للتناقض الصريح.

---

(1) *https://www.youtube.com/watch?v=deM1zfy0v0g*

أمّا قوله إنّ موضوع الانتخاب الطبيعيّ ليس موضوع حظٍّ أبدًا، فقد بيّنا أنّ تفسيره الشاذّ للانتخاب الطبيعيّ ـ على خلاف داروين نفسه ـ المجردّ عن التوجيه الإلٰهيّ نوعٌ من ضربات الحظوظ اللا متناهية.

ثمّ كرر دوكينز بعد ذٰلك رفضه لنظريّة المصمّم الذكيّ، وأنّه لا يحلّ المشكلة، بل يعقّدها؛ لأنّه يبقى السؤال عن كيفيّة وجوده، ومن أوجده، كما أنّ تصوّره يكون في غاية التعقيد، وقد سبق وأن أجبنا على هٰذا التساؤل الساذج بكلّ صراحةٍ ووضوحٍ، فلا نعيد.

ثمّ عاد دوكينز بعد ذٰلك لقصصه وحكاياته الساخرة؛ ليخفي خلفها هشاشة ادّعاءاته، وسخافة مطالبه.

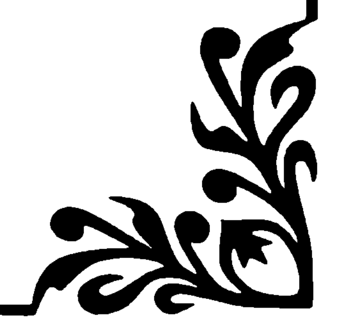
وإلى هنا يكون قد انتهى هٰذا الفصل الطويل الّذي عدّه دوكينز أهمّ وأخطر فصول الكتاب، وأنّه يتضمن المبادئ الأساسيّة للإلحاد.

ونحن بفضل الله ـ تعالى ـ تمكّنّا بكلّ بساطةٍ على أساس المنهج العقليّ القويم والأسلوب العلميّ الواضح أن نكشف وهن ادّعاءاته، ومغالطاته، وأنّها أوهن من بيت العنكبوت.




الفصل الخامس

«جذور الدين»

الفصل الخامس

«جذور الدين»

اعلم أنّ هٰذا الفصل وما سيأتي بعده من الفصول إلى نهاية الكتاب إنّما يتعلّق بنقد الدين ونفيه من الواقع، وليس له أيّ علاقةٍ بموضوع هٰذا الكتاب، وهو نفي المبدإ الإلٰهيّ؛ لأنّه على فرض بطلان كلّ الأديان، فإنّ ذٰلك لا يستلزم نفي وجود المبدإ الإلٰهيّ، فإخواننا اللا دينيّون (الربوبيّون *Deists*) مع كونهم منكرين لسائر الأديان، ولٰكنّهم من المدافعين بشدّةٍ عن وجود المبدإ الإلٰهيّ، وما زالوا شوكةً في حلق الملحدين، كما يظهر ذٰلك في مناظراتهم معهم[1].

وكان من الممكن أن اكتفي بما قدّمته من نقوضٍ لهٰذا الكتاب، ولا أضيّع وقتي فيما تبقّى منه، فليس من المنطقيّ قطّ ـ إن كان دوكينز يفهم معنى المنطق ـ أن يجعل أكثر من نصف كتابه الّذي كتبه لنفي المبدإ الإلٰهيّ،

---

(1) انظر: مناظرات ديباك شوبيرا (*Deepak Chopra*) مع ريتشارد دوكينز على اليوتيوب.

لنفي الدين الّذي لايستلزم نفيه نفي المبدإ الإلٰهيّ؛ لأنّ نفي الأخصّ لا يستلزم نفي الأعمّ، فوجود المبدإ الإلٰهيّ أعمّ من كونه مع الدين، كما هو في اعتقاد المتديّنين، أو بلا دينٍ كما هو في اعتقاد اللا دينيّين، فيكون الدليل ـ وهو نفي الدين ـ أخصّ من المدّعى، أي نفي المبدإ الإلٰهيّ.

ولا يمكن لدوكينز أن يدّعي أنّه أراد أن ينفي وجود الإلٰهين، إلٰه المتديّنين وإلٰه اللا دينيّين؛ لأنّه في الواقع ليس هناك إلّا إلٰهٌ واحدٌ، فإن انتفى وجوده انتفى الدين، كما أن اللا دينيّين لم يقصّروا في سعيهم لانتقاد الدين، وردّ حجج المتديّنين، ولٰكنّه في الواقع أراد أن يكثّر من كلامه وحكاياته ـ وإن لم تكن لها أدنى علاقةٍ بالموضوع ـ من أجل أن يرهق ذهن القارئ بثرثراته، ويشوّش أفكاره بمراوغاته ومغالطاته؛ ليفرض عليه أفكاره وقيمه الإلحاديّة.

على أيّ حالٍ، يسعى دوكينز في هٰذا الفصل للبحث عن جذور الدين ومناشئه من النواحي التطوّريّة والنفسيّة والاجتماعيّة والتاريخيّة، متجاهلًا منشأه الإلٰهيّ، معتمدًا على أيقونته الوحيدة اليتيمة في الانتخاب الطبيعيّ لداروين، إذ وصف تدبير الطبيعة العمياء بأوصافٍ عجيبةٍ غريبةٍ تفوق أوصاف المؤمنين للمبدأ الإلٰهيّ!

يقول دوكينز: «**الطبيعة كالمحاسب البخيل الممسك بقوّةٍ بقروشه، ويراقب الساعة، ويعاقب أقلّ تبذيرٍ بدون رحمةٍ وبدون إجازةٍ، يقوم الانتخاب الطبيعيّ كلّ يومٍ وكلّ ساعةٍ في العالم كلّه، بمراقبة كلّ التغيّرات حتّى أدقّها،**

يرفض ما هو سيّئ، ويحافظ ويزيد ما هو جيّد، يعمل بصمتٍ وبدون اكتراثٍ، وكلّما سنحت الفرصة لتحسين كلّ نظامٍ حيٍّ»[1].

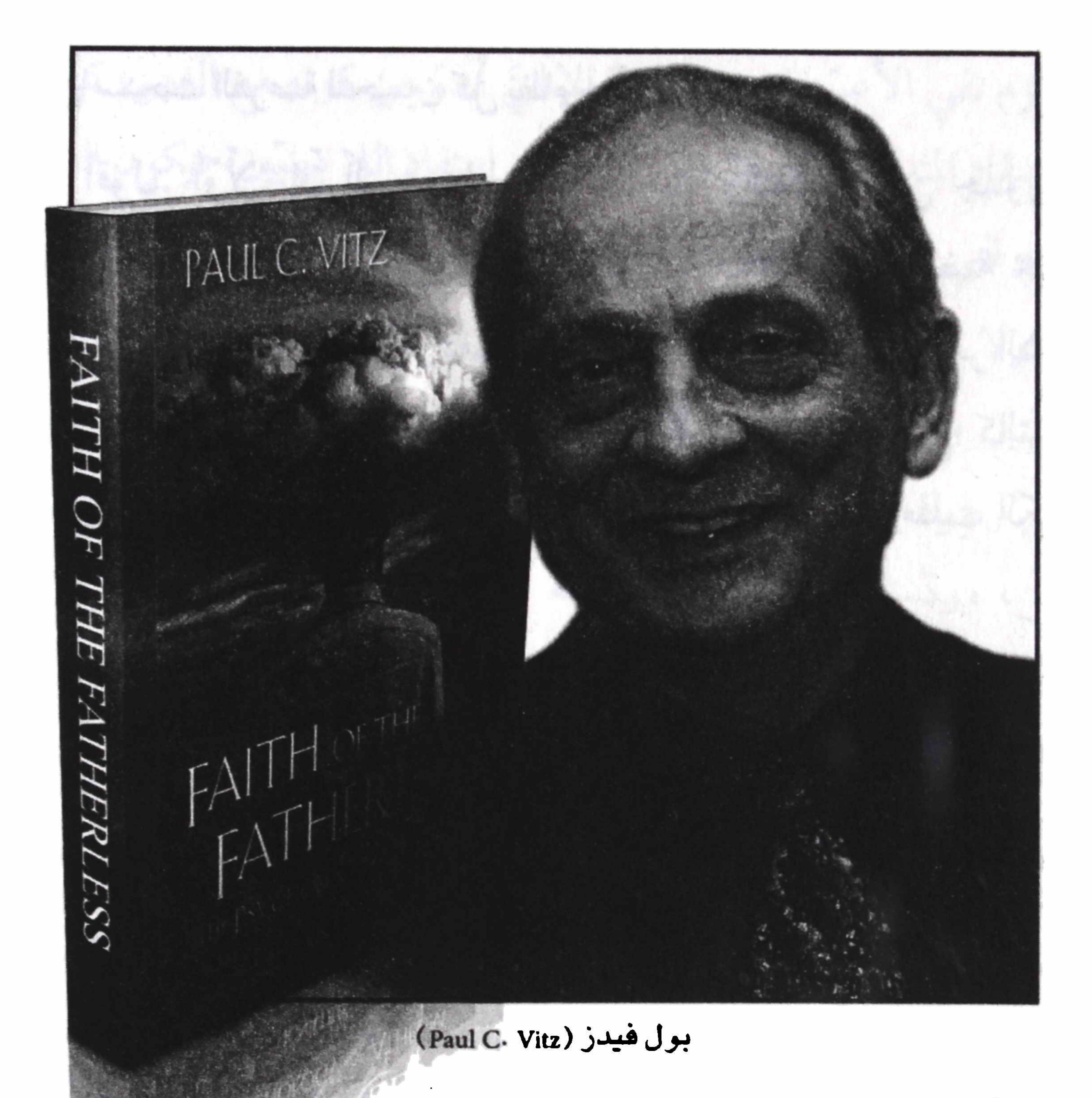
أقول: أوّلًا: إنّ السعي الحثيث للبحث والتفتيش عن جذور أيّ ظاهرةٍ في المجتمع، إنّما يكون عادةً للظواهر الشاذّة أو الغامضة مجهولة المنشإ، كظاهرة الإلحاد أو الإدمان أو الشذوذ الجنسيّ، لا الظواهر الشائعة أو الراسخة بين كلّ العقلاء من الناس منذ بداية التأريخ كالتديّن، والنزوع نحو الاجتماع، والفضول العلميّ، وحبّ الجمال وطلب الكمال، والميل الطبيعيّ للجنس الآخر.

ثانيًا: إنّ هٰذا الأسلوب من البحث التخمينيّ لدوكينز حول الأسباب النفسيّة والاجتماعيّة لظاهرة التديّن، يمكن أن يقلبه خصمه عليه بالمثل، ويدّعي أنّ للإلحاد أسبابًا مرضيّةً، وعقدًا نفسيّةً، وضغوطًا اجتماعيّةً ولّدت هٰذه الظاهرة الشاذّة، وربما يكون هٰذا أقرب للواقع.

ولا بأس أن ننقل هنا ملخّص دراسةٍ نفسيّةٍ تحليليّةٍ للبروفيسور بول فيتز (*Paul C. Vitz*)، أستاذ الطبّ النفسيّ بجامعة نيويورك، من كتابه المعروف *(Faith of the Fatherless)* وكان من كبار الملحدين قبل استبصاره بعد ذٰلك.

---

(1) ص 163.



بول فيدز (Paul C. Vitz)

أستاذ فخريّ في علم النفس في جامعة نيويورك، ولد عام ١٩٣٥ م في أمريكا، كان ملحدًا في شبابه، ثمّ رجع للإيمان بالله تعالى، له مجموعة مؤلّفات من أهمّها كتاب (نفسيّة الإلحاد) أو (سيكولوجيا الإلحاد)، وهو كتابٌ يبحث فيه عن الدافع النفسيّ للإلحاد، ويثبت فيه أنّ أكثر الملاحدة لديهم مشكلةٌ شخصيّةٌ مع الدين، فتتشكّل مواقفهم بناءً على نفور نفسيّ متراكم، وكراهية متنامية تحوّل بينهم وبين تحكيم المنهجيّة العلميّة والمعايير الموضوعيّة في الأدلّة بأنواعها العقليّ منها، والتجريبيّ، والحسّيّ الباطنيّ.

من أقواله المشهورة عنه: "الملاحدة يعانون من عقدة الدونيّة (inferiority complex)، وللهروب من هذا الشعور بالدونية فإنّهم يستبدلون بهذه العقدة التعالي على الآخرين، وتسخيف كلّ أحد، وتسفيه الآراء، وإطلاق أكوام من السباب والشتائم والسخرية، وهذه تعرف بعقدة الاستعلاء (superiority complex) التي تأتي لتكون نوعًا من الهروب من عقدة الدونيّة، وهذه العقدة تحقّق لهم إشباعًا نفسيًا بأنّهم أفضل وأذكى".

هٰذه الدراسة أجراها على شخصيّاتٍ عديدةٍ من ملاحدة العصر الحديث، توصّل فيها إلى أنّ تبنّي الإلحاد يرجع إلى خللٍ نفسيٍّ عصابيٍّ (*Neurosis*)، تقف وراءه رغبةٌ دنيئةٌ في اللا شعور (اللا وعي) للتخلّص من سلطة الأب والحلول محلّه ـ كما يقول "سيجموند فرويد *Sigmund Freud* " ـ بينما يقف وراء الإيمان بالله ما يحقّقه ذٰلك من الشعور بالأمان.

وبناءً عليه طرح البروفيسور فيتز مفهومًا أسماه، فرضيّة التقصير الأبويّ (*Defective Father Hpothesis*) يربط فيها بين رفض سيطرة الأب البشريّ، ورفض سيطرة الأب السماويّ، ويستشهد لذٰلك بمجموعةٍ مشهورةٍ من الملاحدة الّذين عانوا خلال طفولتهم من معاملةٍ سيّئةٍ من جهة الأب، مثل فولتير الّذي كان يرفض أن يحمل اسم أبيه، وكذٰلك فرويد وماركس وتوماس هوبز. وكذٰلك يرى فيتز في كتابه أنّ الحرمان المبكّر للطفل من أبيه، يورث الطفل شعورًا بالخيانة من جهة الأب السماويّ، ويدعوه للشعور بالاستغناء والتمرّد عليه، ويضرب مثالًا ببرتراند راسل، وجان بول سارتر (*Paul Sartre_Jean*)[1].

وأمثال هذ الشواهد كثيرةٌ، ولٰكنّنا ننزّه أنفسنا عن الاعتماد على غير البراهين العقليّة القطعيّة، وإنّما أردنا فقط أن نواجه السيّد دوكينز بالمثل، وننبّهه على فساد طريقته في البحث عن جذور الدين بهٰذا النحو الخياليّ،

---

(1) Faith of the fatherless: the psychology of Atheism.

ولٰكنّنا حتّى في مجال هٰذه المواجهة نستشهد بتجارب وتحاليل علميّةٍ، ولا ننزلق إلى ما انزلق إليه دوكينز من الاستشهاد بالقصص والحكايات.

ثالثًا: إنّ أصل نزول الأديان ـ لا سيّما الإبراهيميّة منها ـ قد ثبتت بالنقل التاريخي المتواتر، وأثبت أصولها الفلاسفة المتألّهون بالبراهين العقليّة القطعيّة؛ فلا معنى لأن نلتمس لها أسبابًا وهميّةً أخرى.

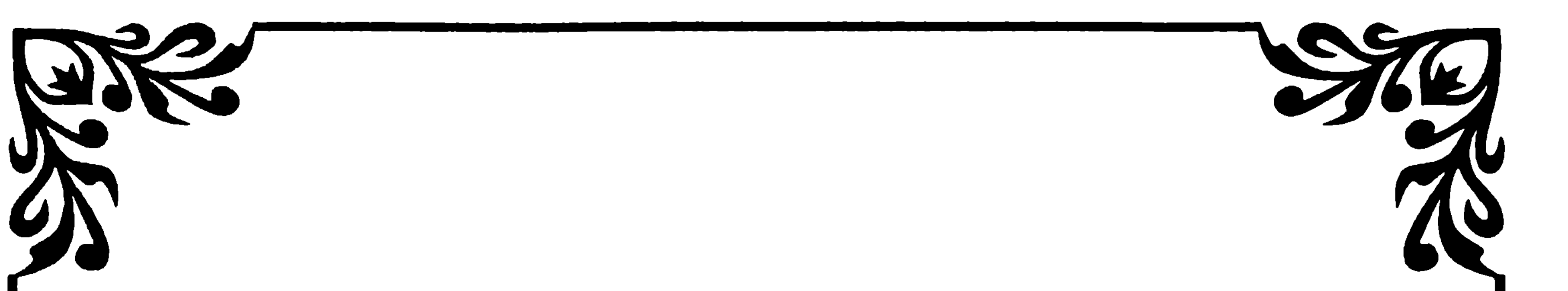
رابعًا: لو سلّمنا بمدخليّة بعض الأسباب النفسيّة والاجتماعيّة والسياسيّة وتأثيرها في قبول الناس للدين، فلا يُثبت ذٰلك بأيّ حالٍ من الأحوال وهميّة الدين؛ لأنّ الدين الواقعيّ له فوائد نفسيّةٌ كحصول الاطمئنان النفسيّ والروحي، وفوائد اجتماعيّةٌ كتحرير العبيد والمساواة، وكلّها بلا شكٍّ عوامل تساعد في قبوله، لا سيّما من الطبقات المستضعفة، وقد تساعد بعض الأنظمة السياسيّة في نشره وترويجه، إمّا بدافع الإيمان به، أو من أجل حفظ مصالحها، واكتساب مشروعيتها. وكل هٰذا لا يهمّ، ولا علاقة له بواقعيّة الدين أو عدم واقعيّته، وهٰذا أمرٌ في غاية الوضوح، ويمكننا أن نستشهد أيضا بكون شعور الإنسان بالجوع، وتناوله للطعام لسد جوعه، لايتنافى مع حاجة الجسم الواقعية للغذاء.

فأسلوب دوكينز هنا في التماس أسبابٍ خارجةٍ عن واقعيّة الدين، من أجل نفي واقعيّته، كمثل من يسعى لإبطال علم الطبّ كعلمٍ واقعيٍّ وقدرة الأطبّاء كعلماء، بأن يفسّر اعتقاد الناس في الطبّ والأطبّاء بأنّه بسبب النزعة الطبيعيّة للناس على مرّ التاريخ نحو الخلاص من

الأمراض، والتشبّث بكلّ ما تشعر أنّه يحقّق لها الشفاء، أو بسبب الهالة الكبيرة الّتي رسمها المجتمع لقدرة الأطبّاء على علاج الأمراض، وحماية الحكومات لهم، أو بسبب حصول الشفاء الفعليّ للكثير من المرضى على أيدي الأطبّاء بسبب الإيحاء؛ ليستنتج بعدها وهميّة علم الطبّ والأطبّاء، ولٰكنّ الجواب الصحيح هنا بأنّه مع صحة كلّ هٰذه الأسباب في الواقع، فإنّه لا ينافي واقعيّة الطبّ، ومهارة الأطبّاء العلميّة.

وخلاصة القول يا سيّد دوكينز هو أنّ طبيعة الناس على مرّ العصور في قبولهم لأيّ فكرةٍ أو اعتقادٍ إنّما غالبًا ما يكون ناجمًا من شهرتها أو صدورها من أكابر المجتمع، أو كونها نافعةً لهم. وهٰذا كلّه لا شأن له بحقّانيّة هٰذا الاعتقاد أو بطلانه، والمعوّل في ذٰلك فقط هو الدليل العقليّ أو العلميّ القطعيّ والمعتبر، لا القصص والحكايات والأوهام.

وبهٰذا البيان العلميّ التفصيليّ تندفع كلّ محاولات دوكينز اليائسة في هٰذا الفصل، لإثبات وهميّة الدين، وعدم واقعيّته الإلٰهيّة.



الفصل السادس

«منشأ الأخلاق»

لماذا نحن صالحون؟!




الفصل السادس

«منشأ الأخلاق»

لماذا نحن صالحون؟!

يطرح دوكينز في هٰذا الفصل مسألةً واحدةً متعلّقةً بفلسفة الأخلاق ومنشإ الفعل الأخلاقيّ، وتتمثّل بالسؤال التالي: **هل نحتاج إلى الدين كي نكون صالحين؟**

ونحن بناءً على ما بيّنّاه في الأصل الثالث من فلسفة الأخلاق، فإنّ معيار حسن الفعل من قبحه هو كونه مناسبًا في الواقع لطبيعة الإنسان، وللعالم الّذي يعيش فيه؛ لأنّ هٰذا المعيار وحده هو الّذي يمكن أن يؤمّن للإنسان تحصيل كماله الحقيقيّ الملائم له، وتحقيق الانسجام الواقعيّ مع الناس والعالم الّذي يعيش فيه.

وأشرنا إلى أن الّذي يمكنه أن يُعيّن لنا ذٰلك هو العقل الفطريّ البرهانيّ الّذي يكشف لنا حقيقة الإنسان والعالم، بعيدًا عن الأحكام المسبقة العرفيّة أو المذهبيّة، أو الاستحسانات الشخصيّة.

فيعلم الإنسان ما يناسبه من الأفعال المختلفة، فيكون الفعل الأخلاقيّ الحسن هو ما يحكم العقل أنّه حسنٌ لمناسبته للإنسان والمجتمع البشريّ، والفعل القبيح هو ما لا يناسب ذٰلك.

ومن هنا يتبيّن لنا أنّ العقل الإنسانيّ بطبيعته وبذاته وبدون أيّ توجيهٍ من الدين أو القانون، يدرك الكثير من القيم الأخلاقيّة الإنسانيّة، ويميّز بين الحسن والقبيح منها، وهٰذا ليس ببركة التفاعلات الكيميائيّة وشبكة التواصل العصبيّة (*Neural Network*) والموجات الكهرومغناطيسيّة الّتي أوجدتها نظريّة التطوّر الداروينيّة كما يتوهّم السيّد دوكينز، بل بفضل المصمّم الإلٰهيّ الذكيّ الّذي أودع بحكمته هٰذه القوّة العاقلة المميّزة في طبيعة الإنسان.

فالعقل يدرك بنفسه حسن العدل والصدق والأمانة، وقبح الظلم والكذب والخيانة، ولٰكنّه في الوقت ذاته لا يستطيع أن يدرك بنفسه كلّ التفاصيل الجزئيّة للحقوق الواقعيّة المتعلّقة بنفسه وبغيره في هٰذا العالم الواسع، فمن هنا مسّت الحاجة بحكم العقل إلى الدين الإلٰهيّ، الّذي ـ كما بيّنا في الأصل الخامس ـ لا غاية له في الحياة إلّا تحقيق العدالة الفرديّة والاجتماعيّة، ببيان النظام الحقوقيّ التفصيليّ في تعامل الإنسان مع نفسه، ومع غيره من الناس، بحيث يحفظ حقوق نفسه وحقوق غيره، وهو معنى العدالة. وهٰذا الدين هو الّذي يجب أن تكون أصوله ومبادئه وأحكامه الكلّيّة منسجمةً مع هٰذا العقل الفطريّ للإنسان وقيمه ومبادئه، لا أيّ

دين يدّعيه الناس، أو ينسبوا أنفسهم إليه.

ولا يختلف أحدٌ من العقلاء على ما قلناه من إمكانيّة تمييز الإنسان بنفسه لأصول الفضائل والرذائل الأخلاقيّة، ولم يختلفوا أيضًا على عدم كفاية عقل الإنسان الفطريّ لكلّ تفاصيل النظام الحقوقيّ الّذي يحتاج إليه الإنسان والمجتمع البشريّ، ولٰكن وقع الخلاف في من الّذي يملك هٰذه الصلاحيّة التشريعيّة التفصيليّة، وعلى أيّ أساسٍ يتمّ تعيين هٰذه الحقوق والواجبات، فالاتّجاه اللا دينيّ أو الاتّجاه العلمانيّ الّذي لا يؤمن بتدخّل الدين في الحياة قد اعتمد القوانين الوضعيّة المدنيّة، على مبادئ مختلفةٍ كمبدأ اللذّة، أو المنفعة أو العرف، أو المصلحة، أو غيرها.

ولٰكنّ الحكماء والمتديّنين العقلاء يؤمنون بأنّ المبدأ الإلٰهيّ الخالق لهٰذا الكون هو الّذي يملك وحده هٰذه الصلاحية على أساس أنّه هو الأعلم بما خلق وصمّم، وهٰذا هو مقتضى العقل والحكمة؛ لأنّ صانع الشيء هو أعلم بما ينفعه أو يضرّه، ولذٰلك كانت كلّ الشركات المصمّمة للأجهزة المختلفة هي وحدها الّتي تملك صلاحيّات وضع برنامج الصيانة (*Maintenance program*) الحافظة لها.

فالدين لم يأت بدوافع عنصريّةٍ أو قهريّةٍ للتسلّط على الناس، أو ممارسة الضغط عليهم وحرمانهم من الاستمتاع بالحياة، بل جاء ليساعد الناس، ويتمّم مكارم الأخلاق.

ومن فهم هٰذه المقدمة جيّدًا يتبيّن ضعف ما قدّمه دوكينز وهشاشته في هٰذا الفصل من عدم الاحتياج إلى الدين أو المبدإ الإلٰهيّ.

ولم ينس دوكينز ـ كعادته ـ أن يمارس مسرحيّاته الهزليّة الساخرة من الدين والمتديّنين في بداية كلّ فصلٍ، ليهيّئ القارئ لقبول ادّعاءاته السخيفة، واستدلالاته الركيكة، ناسيًا أو متناسيًا أن السلوك الخاطئ أو المشين لبعض المنسوبين إلى الدين أو حتّى أكثرهم لا يضرّ بأيّ شكلٍ منطقيٍّ بنفس الدين، فضلًا عن نفي المبدإ الإلٰهيّ الّذي ألّف هٰذا الكتاب لأجله.

ونحن سننزّه أنفسنا عن الردّ على القصص والحكايات الكثيرة الّتي أوردها وملأ بها معظم هٰذا الفصل، ونكتفي بإيراد ما يستحقّ الردّ عليه، بناءً على ما قدّمنا.

يقول دوكينز «**الكثير من المتديّنين يجدون صعوبةً في تصوّر كيف أنّه يمكن للمرء أن يكون صالحًا بدون دينٍ**»[1].

أقول: ينبغي أوّلًا أن نتّفق على معنى الإنسان الصالح؛ لأنّه مورد خلافٍ كبيرٍ بين الناس والمفكّرين، فهناك من يعدّ الإنسان الصالح هو الّذي يوافق سلوكه أعراف المجتمع، وبالتالي يكون الشاذّ غير صالحٍ،

---

(1) ص 211.

كالملحدين أو الشواذّ جنسيًّا في المجتمعات الدينيّة، أو المتديّنين الملتزمين في المجتمعات اللا دينيّة، وهناك من يعدّ الصالح من كان قويًّا ناجحًا، أو غنيًّا متمكّنًا، وبالتالي يكون الفقير الضعيف غير صالحٍ، كما ذهب الفيلسوف الملحد نيتشه (*Friedrich Nietzsche*) في فلسفته الّتي طبّقها الزعيم الملحد أدولف هتلر (*Adolf Hitler*) في ألمانيا، إذ دعا إلى التخلّص من الضعفاء والمرضى؛ استلهامًا من نظريّة الانتخاب الطبيعيّ الداروينيّة المبتنية على أنّ البقاء للأصلح.

أمّا العقل السليم الّذي ينبغي أن نحتكم إليه جميعًا فيرى أنّ الإنسان الصالح هو الملتزم بالقيم والمبادئ الأخلاقيّة، الّتي بيّنها العقل نفسه بنحوٍ إجماليٍّ، والشرع الصحيح بنحوٍ تفصيليٍّ، وأنّ مراتب هٰذا الصلاح تتفاوت بتفاوت مقدار التزام هٰذا الإنسان بهٰذه القيم الأخلاقيّة.

وبطبيعة الحال يمكن للإنسان غير المتديّن أو حتّى الملحد، أن يكون على درجةٍ من الصلاح بحسب التزامه بالقيم الإنسانيّة العامّة الّتي يدركها العقل بنفسه كما قدّمنا، ولٰكن لن يكون تامّ الصلاح والاستقامة كما هو واضحٌ، ويمكن أن يستحقّ العقاب في بعض الأحيان عند مخالفته للقانون الشرعيّ، كما أنّ الإنسان الطيّب الصادق أو الكريم يستحقّ العقاب عند مخالفته للقانون الوضعيّ في كلّ الشرائع الوضعيّة الّتي يؤمن بها دوكينز نفسه.

ثم يقول: «**إنّ البحث في العقل الإنسانيّ سوف يرينا أنّ بعض الأخلاق عالميّةٌ، وليس لها حدودٌ ثقافيّةٌ أو جغرافيّةٌ، وكذٰلك بلا حدودٍ دينيّةٍ**»[1].

أقول: نعم، ما يقوله صحيحٌ، ويؤيّد ما قدّمناه من إنسانيّة الكثير من القيم والفضائل الأخلاقيّة ومعقوليّتها بنحوٍ مستقلٍّ، وهٰذه القيم الفطريّة هي الّتي نتمكّن من خلالها أن نميّز بين الدين الصحيح والمزيّف.

ثمّ قال: «**الاستنتاج الرئيسيّ الّذي وصل إليه هاوسر وسينجر هو أنّه ليس هناك إحصائيًّا أيّ فروقٍ تذكر بين الملحدين والمتديّنين من ناحية اتّخاذ قرارٍ أخلاقيٍّ، وهٰذا يبدو متطابقًا مع وجهة النظر الّتي أتمسّك والعديدون بها، بأنّنا لسنا بحاجةٍ إلى إلٰهٍ لنكون صالحين أو طالحين**»[2].

أقول: انظر إلى مقدّمات هٰذا الاستدلال الركيك الّتي لاعلاقة لها بالنتيجة الّتي استنبطها منها.

فالتجربة الّتي أجراها هٰذان العالمان على مجموعةٍ محدودةٍ من الملحدين والمتديّنين، طرحوا في الحقيقة خلالها مجموعةً من الأسئلة المتعلّقة بالقيم الأخلاقيّة الإنسانيّة المشتركة، كوجوب إنقاذ جماعةٍ من الناس ولو على حساب واحدٍ، أو وجوب إنقاذ طفلٍ غريقٍ وإن تسبّب في

---

(1) ص 223.

(2) ص 227.

إتلاف ملابسنا، أو حرمة قتل المريض للاستفادة من أعضائه لعلاج مرضى آخرين، وهي متعلّقةٌ بالانفعالات العاطفيّة العامّة أو العقل الفطريّ المشترك، المستقلّة عن الانتماءات الدينيّة أو المذهبيّة، فمن الطبيعيّ جدًّا أن يتساوى في جوابها الملحدون والمؤمنون على حدٍّ سواءٍ، فكيف استنتج منها عدم الحاجة إلى الدين، وهٰذا يكشف ـ كما أسلفنا مرارًا ـ عن جهله الشديد بفلسفة الدين والأخلاق.

«**هل نحتاج حقيقةً أن نكون تحت مراقبة الله، أو تحت مراقبة بعضنا لبعض، كي نتوقّف عن الأنانيّة والسلوك الإجراميّ؟!**»[1].

أقول:

أوّلًا: إنّ الشعور بوجود مراقبٍ بشريٍّ قوي وقادرٍ كالشرطة مثلاً، يمنع بلا شكٍّ الكثير من الناس عن ارتكاب الجرائم، وهٰذا الّذي يسوّغ ضرورة وجود قوّات الشرطة والقضاء لحفظ الأمن والنظام الاجتماعيّ؛ لأنّ القليل جدًّا من الناس هم الّذين يمكن أن يمنعهم عقلهم وضميرهم من ارتكاب الجريمة، وهٰذا أمرٌ في غاية الوضوح.

وكذٰلك الإيمان بالله والاعتقاد بمراقبته لأفعالنا يردع الكثير من المؤمنين عن ارتكاب الجرائم، بشرط أن يكون مؤمنًا صادقًا، وليس مجرّد

(1) ص 228.

منتسبٍ بالاسم.

ثانيًا: إنّ فلسفة الدين وحكمته هي أنّ يُصلح الله ـ تعالى ـ الناسَ باختيارهم لا بالقهر والقسر، لأنّ إرادته الحقيقية التكوينيّة ـ كما بيّنّا في الأصل الخامس ـ تعلّقت باستكمال الناس باختيارهم، فالدين جاء من أجل مساعدة الناس وإرشادهم إلى كمالهم الحقيقيّ.

ثالثًا: إنّ صرف الاعتقاد بالدين لا يستلزم دائمًا صلاح المتديّن، كما أن اعتقاد الناس بمشروعيّة الدولة وقوانينها ـ كما هو في الغرب ـ لا يستلزم دائمًا التزامهم أو حتّى احترامهم للقانون؛ نتيجة تقديم مصالحهم الشخصيّة أو الفئويّة على المصلحة العامّة، وهٰذا لا ينفي بأيّ حالٍ من الأحوال ضرورة وجود الدولة وقوانينها.

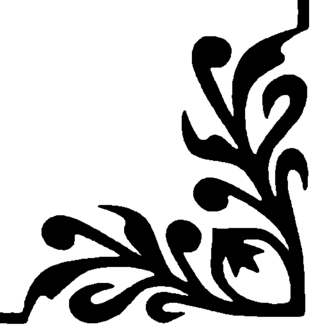
رابعًا: إنّ المتديّنين مع صحّة اعتقادهم بالله وقوانينه الإلٰهيّة هم من ناحيةٍ أخرى بشرٌ يمكن أن يخالفوا تلك التعاليم بدافع الأنانيّة، أو اتّباعًا لأهوائهم ولمصالحهم الشخصيّة الآنيّة كما قلنا، بل ربّما يخالفون حتّى القيم والمبادئ العقليّة المشتركة، ويرتكبون أبشع الجرائم، وربّما نجد على الجانب الآخر من الملحدين أو اللا دينيّين من يحترم القيم العقليّة العامّة، فيكونون أفضل حالًا من المنتسبين إلى الدين، وهٰذا كلّه لا علاقة له بواقعيّة وجود المبدإ الإلٰهيّ أو مصداقيّة الدين؛ لأنّ الدين للأرواح كالطبّ للأبدان، قائمٌ على الاختيار، لا الجبر.




الفصل السابع

«الكتاب (الصالح)»

وأخلاقيّات روح العصر المتغيّرة

الفصل السابع
«الكتاب (الصالح)»
وأخلاقيّات روح العصر المتغيّرة

في هٰذا الفصل يتعرّض دوكينز لعدّة نصوصٍ دينيّةٍ انتزعها من العهدين القديم والجديد، تحضّ على الكراهية، وهي مفعمةٌ بممارسة العنف والرذيلة من جانب بعض الأنبياء، كما وأورد نصوصًا أخرى رأى أنّها تتنافى تمامًا مع روح العصر الحديث؛ ليستنبط في النهاية أنّ هٰذه الكتب السماويّة المقدّسة غير صالحةٍ لتكون منشأً للأخلاق الإنسانيّة، وأنّ الأنبياء لا يمكن أن يكونوا قدوةً لنا، لا سيّما في عصرنا الحاضر.

يقول دوكينز: «**توجد طريقتان يمكن أن يكون بهما الكتاب المقدّس مصدرًا للأخلاق أو قواعد المعيشة، الأولى بالأوامر المباشرة... والثانية بالاقتداء بالله أو أحد الشخصيّات المذكورة الأخرى الّتي يجب علينا اعتبارها مثلًا أعلى، والطريقتان لو تمّ اتّباعهما عقديًّا ستقودان لأخلاقيّات معيّنةٍ، وأيّ شخصٍ**

عصريٍّ متديّنٍ أو لا، سيعدّها بغيضةً»[1].

ثمّ يقول بعد ذٰلك: «طبعًا رجال الدين المتضايقون سيعترضون بأنّنا يجب علينا ألّا نأخذ أحداث سفر التكوين بحرفيّته، ولٰكنّ تلك هي القضية بعينها، نحن نختار وننتقي المقاطع الّتي نؤمن بها من الكتاب المقدّس، والمقاطع الّتي نعدّها رمزيّةً أو مجرّد حكاياتٍ، وانتقاءٌ واختيارٌ كهٰذا هو موضوع اختيارٍ شخصيٍّ، تمامًا كما يختار الملحد أن يتّبع أخلاقيّاتٍ كهٰذه أو تلك بقرارٍ شخصيٍّ، وبدون أيّ أسسٍ مطلقةٍ»[2].

وأنا هنا لن أتعرّض للدفاع عن هٰذه النصوص الدينيّة، ولن أسعى لتأويلها أو ترميزها، ولٰكن ـ وكما عوّدنا القارئ الكريم دائمًا ـ سنعتمد في مثل هٰذه المواقف على منهجنا العقليّ القويم وميزاننا السليم، الّذي هو فوق أيّ ميزانٍ آخر؛ من أجل تقييم هٰذا الفصل من الكتاب.

أقول:

إنّ الدليل النقليّ ـ بما أنّه نصٌّ منقولٌ سواءٌ كان دينيًّا أو تاريخيًّا ـ لا يتمتّع بالحجّيّة الذاتية، والوضوح واليقين والموضوعيّة الّتي يتمتّع به الدليل العقليّ البرهانيّ، ولا حتّى الدليل العلميّ التجريبيّ؛ لأنّه مبتلى

---

(1) ص 237.

(2) ص 238.

بمشكلتين أساسيّتين، الأولى هي المشكلة السَّنَدِيَّةُ، بمعنى صحّة صدوره عن منبعه المنسوب إليه، إذ يحتمل أن يكون مكذوبًا وموضوعًا على صاحبه، والمشكلة الثانية هي المشكلة الدلاليّة، أي غموض المعنى وخفاؤه في بعض الأحيان بنحوٍ يمنع من التيقّن بحقيقة مراد صاحب هٰذا النصّ من كلامه.

إنّ أصل نزول الكتب السماويّة ـ لا سيّما الكتب المقدّسة الثلاثة: التوراة والإنجيل والقرآن ـ على الأنبياء الثلاثة المشهورين أصحاب الديانات الإبراهيميّة العالميّة المشهورة (موسى وعيسى ومحمّدٌ عليهم السلام) قد ثبت بالتواتر التاريخيّ القطعيّ. ولٰكن التاريخ يحكي لنا أيضًا بما لا يدع مجالًا للشكّ أنّ الكثير من النصوص الدينيّة في هٰذه الكتب المقدّسة ـ لا سيّما التوراة والإنجيل ـ قد تعرّضت للدسّ والتحريف اللفظيّ أو المعنويّ على أيدي أعداء الدين من الحكّام الجائرين الفاسدين، وأيدي أعوانهم من العلماء الانتهازيّين المنتسبين للدين، كأغلب النصوص الّتي استشهد بها السيّد دوكينز في هٰذا الفصل.

لقد أثبتنا في الأصل الخامس بحكم العقل السليم أنّ فلسفة الدين والغاية الّتي من أجلها بعث الله الأنبياء وأنزل الكتب السماويّة هي تحقيق العدالة الفرديّة والاجتماعيّة، بأن يعطي الإنسانُ ربَّه المنعم حقّه من العبادة والشكر والتقدير، ويعطي نفسه حقّها الطبيعيّ من الحياة، ويعطي الناس حقوقهم الّتي يستحقّونها في الواقع ونفس الأمر؛ من أجل تكامل الإنسان

والمجتمع البشريّ بالاختيار لا بالجبر، بحيث تنعكس آثار هٰذا التكامل في الحياة الأخرى كما بيّنّا في الأصل الثاني في باب المعاد.

إنّ المنهج العقليّ البرهانيّ هو الّذي يُعيّن بنفسه مقدار الحاجة للنصوص الدينيّة، وهي ملء منطقة الفراغ العقليّ الّتي لا يمكن للعقل أن يدلي بدلوه فيها بنحوٍ مستقلٍّ، وهي ليست بالطبع منطقة المباحث العلميّة الفيزيائيّة أو الرياضيّة، الّتي تقع على عهدة المنهج الحسّيّ التحليليّ أو التجريبيّ، بل منطقة التشريعات الحقوقيّة التفصيليّة، على المستويين الفرديّ والاجتماعيّ، إذ إنّ العقل يستقلّ بنفسه في معرفة كلّيّات القيم والمبادئ الأخلاقيّة، لا تفاصيلها المتعلّقة بمبادئ النظام الحقوقيّ لكلّ فردٍ من أفراد المجتمع، وقد سبق وأن قلنا إنّ الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ هو الأعلم بما صنع، وبما يصلح الإنسان أو يفسده.

إنّ العقل البرهانيّ القويم في تعامله مع النصوص المنسوبة إلى الله أو رسله، لا يعتمد على الهوى والاستحسان الشخصيّ، بحيث ينتقي ما يعجبه، ويرفض ما سواه كما يظنّ دوكينز، وإن كان الحقّ والإنصاف أنّ الكثيرمن رجال الدين يفعلون ذٰلك في بعض الأحيان بدوافع شخصية أو فئوية، ولٰكنّ العقل يعتمد على قاعدتين موضوعيّتين رصينتين، تضمنان إلى حدٍّ كبيرٍ تحقّق الغرض والغاية المنشودة من هٰذه النصوص، وهي العدالة.

الأولى: التأكّد أو الاطمئنان من صحّة صدور هٰذه النصوص من المبدإ الإلٰهيّ، فلا يقبل إلّا النصوص الّتي ثبت صدورها عن مصدرها الإلٰهيّ بالتواتر القطعيّ المفيد لليقين، أو لا أقلّ ثبتت بنقل الرجال الثقات والصالحين المعروفين، والّذين فيهم مقتضى الصدق في الإخبار، بدءًا من أصحاب الرسل المقرّبين، ثمّ الّذين جاؤوا من بعدهم على التوالي المتّصل، أي بنفس الطريقة الّتي نقلت بها الحوادث التاريخيّة في الماضي، والّتي يؤمن بها كلّ إنسانٍ عاقلٍ، والّتي يعتمد عليها دوكينز في معظم نقولاته، ولٰكن مع مزيد التدقيق والتمحيص في جانب وصول النصوص الدينيّة لأهمّيّتها الحياتيّة، وهو مقتضى الحكمة والعقل السليم. وكلّ نصٍّ لم يثبت بهٰذه الطريقة فليس له عند العقل والعقلاء أيّ قيمةٍ أو اعتبارٍ، حتّى ولو وجد في الكتب السماويّة أو المنسوبة إلى أحاديث الأنبياء.

الثانية: هي فهم هٰذه النصوص بالطرق العقلائيّة العرفيّة الّتي نفهم بها كتب الفلاسفة والعلماء والأدباء في كلّ مكانٍ وزمانٍ، وكما نفهم نصّ هٰذا الكتاب لدوكينز، وأيّ نصٍّ يخالف أحكام العقل الضروريّة، أو العقلائيّة المشهورة والراسخة، فالعقل إمّا أن يردّه ويرفضه، وإمّا أن يقوم بتأويله بالنحو الّذي ينسجم مع الأحكام العقليّة والعقلائية. وهٰذا النوع من التعامل ليس انتقائيًّا عشوائيًّا، بل هو تعاملٌ منطقيٌّ؛ إذ يحكم العقل بامتناع صدور نصٍّ من المبدإ الإلٰهيّ الحكيم واللطيف الخبير يتنافى مع الأحكام العقليّة الّتي عرفناه بها، أو يتنافى مع الفطرة والكرامة الإنسانيّة

الّتي ما جاء الدين إلّا من أجل حفظها والارتقاء بها.

قال دوكينز: «**ما يهمّ هنا ليس موضوع كون هتلر وستالين ملحدين، ولٰكنّ الموضوع إذا ما كان الإلحاد يؤثّر على الناس بشكلٍ منتظمٍ لعمل الأشياء الشرّيرة، وليس هناك أيّ دليلٍ ولو صغيرًا يدلّ على ذٰلك**»[1].

وأضاف بعدها قائلًا: «**بعض الملحدين يفعلون الشرور، ولٰكنّهم لا يفعلونها باسم الإلحاد. ولٰكنّ الحروب الدينيّة حصلت بسبب الدين، وتكرّرت كثيرًا عبر التاريخ، ولا أدري أيّ حربٍ حصلت تحت اسم الإلحاد، ولماذا تحصل؟!**»[2].

ثمّ يقول نقلًا عن سام هاريس (*Sam Harris*) في كتابه (نهاية الإيمان *The End of Faith*): «**الحضارات لا تزال مهدّدةً بجيوش اللا عقلانيّة، ونحن حتّى هٰذه اللحظة نبرّر قتل بعضنا البعض من خلال الإشارة إلى كتاباتٍ قديمةٍ**».

ثمّ يعلّق دوكينز قائلًا: «**من ذا الّذي سيخرج للحرب بسبب عدم الإيمان بشيءٍ؟!**»[3].

أقول: لقد حاول دوكينز كثيرًا من خلال هٰذا الكتاب، ومن خلال

---

(1) ص 275.

(2) ص 281.

(3) ص 282.

مقالاته وظهوراته الإعلاميّة أنِ ينسب العنف والإجرام إلى الدين والمتديّنين وحدهم دون غيرهم.

ولطالما سعى لتبرئة ساحة سائر الملحدين من جرائم الحرب الّتي ارتكبوها في حقّ الإنسانية، وعندما قال: «**لا أعتقد أنّ ملحدًا واحدًا مستعدٌّ لأن يجرف مكّة أو الكاتدرائيّات المقدّسة**» أجابه ريتشارد شرويدر (*Richard Schroeder*) أستاذ الفلسفة في جامعة برلين ساخرًا «**إنّ الكاتدرائيّات المقدّسة أعلى من أن تجرفها الجرافات، ولذٰلك فضّل ستالين في الاتّحاد السوفيتيّ، وماو تسي تونغ في الصين تفجيرها بالديناميت**»[1].

فلمّا لم يستطع أن يتستّر على الجرائم ضدّ الإنسانيّة الّتي ارتكبها هتلر في الحرب العالميّة الّتي قتلت أكثر من (54) مليون إنسانٍ، وعلى الجرائم الّتي ارتكبها ستالين (*Joseph Stalin*)، وماو تسي تونغ (*Mao Tse_Tung*) لنشر الشيوعيّة الإلحاديّة، الّتي كلّفت العالم أكثر من (94) مليون قتيلٍ من المسلمين والمسيحيّين، عاد ليغيّر نغمة الكلام إلى أن هٰذه الجرائم لم يرتكبها هٰؤلاء بدافع الإلحاد!

وأقول: إنّ في كلامه هنا عدّة مغالطاتٍ وادّعاءاتٍ نريد أن نجيب عليها؛ ليتبيّن لنا مدى وهنها وهشاشتها:

---

(1) وهم الإلحاد، ص 115.

أوّلًا: هل الإلحاد يدفع الناس لارتكاب الشرور؟

لقد سبق وأن بيّنّا أنّ الدين لم يأت ليؤسّس لمبادئ الخير والصلاح؛ لأنّها مزروعةٌ في فطرة كلّ إنسانٍ من حيث هو إنسانٌ، والّتي بها نميّز الدين الصحيح من الدين المزيّف. بل جاء الدين ليتمّمها ويرتقي بها؛ من أجل تحقيق العدالة الإنسانيّة الحقيقيّة؛ ولذلك فإنّ الملحد من حيث هو إنسانٌ يدرك بفطرته العقليّة هذه المبادئ الإنسانيّة، وبالتالي يمكن أن يتمتّع بمرتبةٍ من الخير والصلاح، ولكنّه سيحرم نفسه من المرتبة الأعلى الضروريّة لاستكمال الإنسان؛ نتيجة عجز العقل الإنسانيّ عن إدراكها بنفسه بالنحو التفصيليّ، فمثله كمثل الإنسان الّذي لا يعترف بالطبّ والأطبّاء، فيمكن أن تكون طبيعة مزاجه الصحّيّ قويّةً ومعتدلةً، وأن يتحاشى بنفسه بعض الأمراض، ويتمتّع بدرجةٍ من الصحّة الجسمانيّة، ولكنّه لن يكون في نفس الدرجة الّتي يتمتّع بها من يتّبع الأطبّاء ويراعي التعاليم الصحّيّة.

وأمّا هل الإلحاد من حيث هو إلحادٌ يدفع الإنسان نحو الشرّ أو لا؟ فنقول إنّ الّذي يدفع الإنسان إلى ارتكاب الشرّ، إمّا جهله به من حيث كونه شرًّا للآخرين، وإمّا لشرهه وطمعه في تحصيل المزيد من المشتهيات، وإمّا لاطمئنانه من غياب الرقيب، وأمنه من العقاب، كما يقول المثل: (من أمن العقاب أساء الأدب).

والملحد من حيث هو ملحدٌ ـ وإن كان يعلم مبادئ الخير كإنسانٍ ـ يجهل المنظومة الأخلاقيّة التفصيليّة المتكاملة الّتي جاءت بها رسالات السماء، ومن حيث نزعته الحسّيّة المادّيّة الشديدة، وأيضًا من حيث عدم اعتقاده بالرقيب الإلٰهيّ الّذي يراقب ويحصي كلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ من أفعاله في السرّ والعلن، وعدم اعتقاده بوجود يومٍ للحساب والعقاب بعد الموت، فهو أميل وأقرب بلا شكٍّ لارتكاب الجرائم الإنسانيّة، إذ لا يكفي الضمير الإنسانيّ لردع الأغلبيّة الساحقة عن ارتكاب الجرائم؛ ولأجل هٰذا فقد تمّ تشريع القوانين الرادعة والعقوبات الصارمة في كلّ المجتمعات البشريّة، لتخويفهم وزجرهم.

يقول الفيلسوف الأمريكيّ المعروف دافيد برلينسكي (*David Berlinski*): «**إن الّذين اقترفوا جرائم ضد البشريّة مثل هتلر وستالين وماو تسي تونغ، ورجال الجستابو والمخابرات الروسيّة، لم يكونوا يعتقدون أنّ الإلٰه يراقبهم**»[1].

ثانيًا: إنّ الحروب لم يرتكبها الملحدون تحت عنوان الإلحاد، على خلاف الحروب الدينيّة الّتي وقعت بسبب الدين، والتمسّك بالنصوص الدينيّة.

---

(1) وهم الإلحاد، ص 118.

وأقول: إنّ الأعمال الإجراميّة الّتي يرتكبها الإنسان في هٰذه الحياة، لا يمكن أن يُقرّها أيّ عقل، أودينٍ سماويٍّ حقيقيٍّ، فالدين لم يأت إلّا رحمةً للعالمين، ومساعدةً للناس في تحقيق العدالة والحرّيّة، فهٰذه الأعمال لا تصدر إلّا من إنسانٍ مجرمٍ لا يؤمن بالقيم الإنسانيّة والأخلاقيّة، سواءٌ كان ملحدًا أو منتسبًا إلى الدين، وسواءٌ كان شعاره الإلحاد أو الجهاد في سبيل الله، فإنّ مجرّد الانتساب إلى الدين بلا فهمٍ لفلسفة الدين، أو بلا صدقٍ وإخلاصٍ، لا يجعل الإنسان صالحًا، بل ربّما يجعله أسوأ وأخطر من غيره. وكما يتمسّك المجرمون من المادّيّين والملحدين في حروبهم وصراعاتهم مع خصومهم بشعاراتٍ مزيّفةٍ، كالحرّيّة والوطنيّة والقوميّة والمساواة، للتأثير على الناس وجلب تعاطفهم معهم، كذٰلك يتمسّك المجرمون من المنتسبين إلى الدين بشعاراتٍ دينيّةٍ مزيّفةٍ لشحن المتديّنين وحشدهم حولهم.

وكما يُحرّف المجرمون المادّيّون والملحدون المفاهيم الإنسانيّة كالحرّيّة والعدالة والمساواة والاستقلال من أجل تحقيق أطماعهم وترسيخ تسلطهم على الشعوب، كذٰلك يحرّف المجرمون المنتسبون إلى الدين النصوص الدينيّة، كمفاهيم القتال والجهاد في سبيل الله، الّتي ما جاءت إلّا من أجل الدفاع عن النفس، وحفظ المال والعرض، والقيم الإلٰهيّة والإنسانيّة، أجل يحرفونها من أجل تحقيق مطامعهم في المزيد من التوسّع، وسلب الغنائم، وسبي النساء.

فالحاصل أنّ كلًّا من المجرمين الملحدين والمنتسبين إلى الدين على حدٍّ سواءٍ في اعتمادهم للأساليب الانتهازيّة من أجل تحقيق مطامعهم غير المشروعة، والضحيّة هي القيم الإنسانية والدينيّة، والشعوب المستضعفة.

ثالثًا: إن عدم الإيمان بشيءٍ لا يدفع الإنسان نحو الحرب والقتال.

أقول: ليس هناك اعتقادٌ عدميٌّ، بل اعتقادٌ وجوديٌّ يستلزم اعتقادًا عدميًّا، فكما أنّ المؤمن المتديّن يؤمن بالإلٰه الخالق الحكيم واليوم الآخر، ولا يؤمن بالصدفة وأصالة المادّة الكونيّة والفناء بعد الموت، كذٰلك يؤمن الملحد بخالقيّة الكون للإنسان، وأصالة المادّة والانتخاب الطبيعيّ، ولا يؤمن بالإلٰه واليوم الآخر.

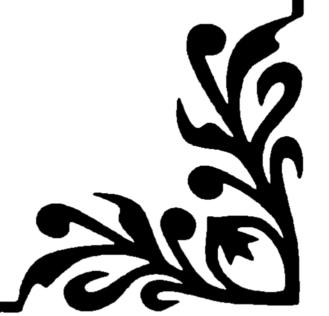
ولٰكنّ الإنسان الّذي لا يشعر بوجود رقيبٍ إلٰهيٍّ عليه، ولا يؤمن بيوم الحساب والجزاء بعد الموت، وهدفه الاستمتاع بالحياة واللذات المادّيّة، وشعاره المرفوع «**لا تقلق! الله غير موجودٍ، فاستمتع بحياتك** ***Don't worry, God doesn't exist, enjoy your life.***» كما كتبها دوكينز وصديقته في صحيفة الجارديان، ووضعوها على الباصات ومحطّات المترو في لندن، فإنّ مثل هٰذا الإنسان هو أقرب وأميل لارتكاب الجرائم كلّما سنحت له الفرصة للهروب من القانون؛ لأنّه بكلّ بساطةٍ ليس له وازعٌ من نفسه يردعه عن ذٰلك، اللّٰهمّ إلّا إذا كان من أصحاب الضمائر الحيّة والنفوس الشريفة، وهم الأقلّون عددًا بين الناس.




الفصل الثامن

ما هي مشكلة الدين؟

وما سبب كلّ هٰذه العدوانيّة؟

الفصل الثامن
ما هي مشكلة الدين؟
وما سبب كلّ هٰذه العدوانيّة؟

بعد أن حاول دوكينز إيجاد نوعٍ من التعارض بين الدين والأخلاق في الفصل السابق، فقد سعى في هٰذا الفصل إلى إيجاد التضادّ بين الدين والعلم، اعتمادًا على المقارنة بين السلوك المتطرّف للمتديّنين المتعصّبين، وبين السلوك الموضوعيّ للعلماء التجريبيّين، وأنّ منشأ الخلاف يكمن في المنهج المعرفيّ لكلٍّ منهما، إذ يبني المتديّنون اعتقاداتهم على التلقّي الأعمى للنصوص الدينيّة، على خلاف التجريبيّين الّذين يبنون نظريّاتهم على الأدلّة العلميّة الموضوعيّة.

يقول دوكينز: «**المتطرّفون يعلمون أنّهم على حقٍّ؛ لأنّهم قرؤوا الحقيقة في كتابٍ مقدّسٍ، ويعرفون مقدّمًا أنّه لا شيء يمكن أن يحرفهم عن إيمانهم. الحقيقة في كتابهم المقدس تعدّ من البديهيّات، وليست نتيجة برهانٍ عقلانيٍّ، فالكتاب على حقٍّ، وعندما تبدو الأدلّة وكأنّها تناقضه، فعندها يجب رفض**

الأدلّة وليس الكتاب. وعلى العكس من ذٰلك، فإنّ ما أؤمن به بصفتي عالمًا ـ وعلى سبيل المثال نظريّة التطوّر ـ فليس لأنّني قرأت كتابًا مقدّسًا، بل لأنّني درست الأدلّة، وهٰذا موضوعٌ مختلفٌ تمامًا؛ لأنّ الإيمان بكتب التطوّر لا يأتي من كونها مقدّسةً، بل لأنّها تقدّم أدلّةً كثيرةً ومسندةً بشكلٍ دامغٍ مبدئيًّا، فإنّ كلّ قارئٍ يستطيع أن يفحص الأدلّة، وعندما يخطئ كتابٌ علميٌّ ما، فإنّ شخصًا ما سيكتشف الخطأ، وسيتمّ تصحيحه في الكتب الّتي تليه، وشيءٌ كهٰذا لا يحصل أبدًا مع الكتب المقدّسة»[1].

أقول: إنّ العاقل المنصف يدرك بكلّ سهولةٍ ما في هٰذا الكلام من مغالطاتٍ منطقيّةٍ، وتعسّفاتٍ جدليّةٍ لا يمكن الدفاع عنها بأيّ حال من الأحوال، ويمكننا الإشارة إليها ليتبيّن للقارئ الطبيعة السفسطائيّة لدوكينز:

1 ـ إنّ تعميم حكم البعض على الكلّ هو مغالطةٌ منطقيّةٌ صريحةٌ، فكما أنّه لا ينبغي تعميم حكم إجرام بعض الملحدين المتطرّفين وأعوانهم وأتباعهم ـ كهتلر وماو تسي تونغ وستالين ـ على عامّة الملحدين، كذٰلك لا يجوز تعميم أحكام بعض المتديّنين المتعصّبين والمتطرّفين على عامّة المؤمنين. وهٰذه من المغالطات الشائعة لدوكينز في هٰذا الكتاب، إذ نجده

(1) ص 285.

يحاول أن يشوّه صورة كلّ المتديّنين بصورة البعض السيّئ منهم، ومن جهةٍ أخرى يحاول أن يُحسّن ويُزيّن صورة الملحدين بصورة بعض العلماء الملحدين، وكأنّ كلّ المتديّنين إرهابيّون، وكلّ الملحدين علماء متخصّصون، على الرغم من أنّه قد اعترف في أحد لقاءاته التلفازيّة بأنّ أكثر المتديّنين هم أناسٌ صالحون، وأنّه لا يريد أن ينسب التطرّف والتعصّب إلى كلّ المتديّنين[1]؛ ممّا يكشف عن زيغه وتلوّنه بحسب كلّ حالٍ.

لو كان منشأ التعصّب الدين، لأصبح كلّ متديّنٍ متعصّبًا متطرّفًا، ولٰكنّ الواقع يكذّبه، إذ نجد الكثير من المتديّنين من المعتدلين، ومن الفلاسفة والحكماء والعلماء النابغين، ومن أكثر الحاصلين على جوائز نوبل كما أشرنا سابقًا.

2 ـ إنّ ما يقوله من الفرق بين الاعتقاد العلميّ والاعتقاد الدينيّ صحيحٌ؛ لأنّ طبيعة المنهج الحسّيّ التجريبيّ تختلف جذريًّا عن طبيعة المنهج النقليّ الدينيّ، بلحاظ الموضوع والمنهج، إذ إنّ موضوع الأوّل مادّيٌّ، ومنهجه مبنيٌّ على تكرار المشاهدات الحسّيّة، والحال أنّ موضوع الثاني معنويٌّ غيبيٌّ، ومنهجه سمعيٌّ تعبّديٌّ.

---

(1) https://www.youtube.com/watch?v=PAe8DePq-48

ولٰكنّ الكلام في أنّ الاعتقاد الدينيّ الواقعيّ الصحيح - كما بيّنّا سابقًا - ليس نقليًّا تقليديًّا فقط، بل عقليٌّ استدلاليٌّ مبنيٌّ على البراهين العقليّة القطعيّة، الّتي هي في الواقع أقوى وأمتن من الأدلّة العلميّة التجريبيّة. والّذي يتديّن على هٰذا الأساس العقليّ، لا يمكن أن يقبل نصًّا دينيًّا مخالفًا للعقل أو العلم، بل سيردّه أو يأوّله كما أشرنا سابقًا.

أمّا الّذي يعتقد اعتقادًا دينيًّا معيّنًا لا على أساسٍ عقليٍّ استدلاليٍّ متينٍ، بل على أساسٍ نقليٍّ تقليديٍّ، كما هو حال الكثير من المتديّنين، فهو في الواقع ليس متديّنًا حقيقيًّا، بل هو متديّنٌ عرفيٌّ، كأغلب عوام الناس في العالم، بمعنى أنّه يبني اعتقاده على أساس ما تلقّاه من بيئته الّتي نشأ وترعرع فيها، سواءٌ كانت بيئةً دينيّةً أو غير دينيّةٍ؛ ولذٰلك نجد أكثر الناس يعتقدون عقيدة مجتمعاتهم الجغرافيّة الّتي نشؤوا فيها، سواءٌ كانت إسلاميّةً أو مسيحيّةً أو يهوديّةً أو بوذيّةً أو حتّى إلحاديّةً كما في الاتّحاد السوفيتيّ سابقًا.

وهٰذا الاعتقاد العرفيّ مآله إلى أمرين، إمّا أن يتخلّى صاحبه عنه بمجرّد أن يتفكّر أو يتحرّر من الضغوطات العرفيّة والعادات والتقاليد الاجتماعيّة، كما فعل دوكينز نفسه، عندما بدأ حياته مسيحيًّا بتبع العرف البريطانيّ، ثمّ تبنّى الإلحاد بعد ذٰلك، ومثله كثيرٌ ممّن قاموا بتغيير دينهم أو مذهبهم إلى دينٍ أو مذهبٍ آخر، أو إلى اللا دينيّة.

وإمّا أن يتعصّب لاعتقاده العرفيّ، ولا ينصت إلى ما يخالفه من البراهين العقليّة أو الأدلّة العلميّة كما يقول دوكينز. ولٰكن هٰذا التعصّب، وإن كان في ظاهره دينيًّا، بيد أنّه ليس كذٰلك في حقيقته، بل هو تعصّبٌ لأعرافه وتقاليده المأنوسه لديه، والّتي نشأ عليها، وتشبّع بها، وبنى هويّته عليها، كما هو تعصّب الهندوس ونمور التاميل لعقائدهم غير الدينيّة.

ودوكينز يعلم جيّدًا أنّ هٰذا النحو من التعصّب غير مختصٍّ بالدين، بل هناك تعصّبٌ عنصريٌّ كالنازيّة والفاشيّة، وهناك تعصّبٌ قبليٌّ ووطنيٌّ وقوميٌّ وغير ذٰلك، وكلّها ترجع إلى الاعتقاد اليقينيّ غير العقليّ.

3 ـ إنّ الإلحاد ليس مبنيًّا على أدلّةٍ علميّةٍ موضوعيّةٍ، وإلّا لألحد كلّ العلماء أو غالبيّتهم على الأقل، وليس مبنيًّا على براهين عقليّةٍ قطعيّةٍ، وإلّا لألحد كلّ الفلاسفة، ولٰكنّ الأمر على خلاف ذٰلك تمامًا، بل الإلحاد مبنيٌّ في الواقع إمّا على أوهامٍ معرفيّةٍ في فهم الواقع والدين، أو ردود أفعالٍ نفسانيّةٍ في مقابل بعض السلوكيّات المشينة للمتعصّبين الدينيّين، أو على مجرّد تفسيرٍ انتهازيٍّ خاطئٍ لبعض النظريّات أو الفرضيّات العلميّة ـ كالنظريّة الآليّة لنيوتن أو فرضيّة التطوّر أو ميكانيكا الكمّ ـ على خلاف مراد أصحابها المؤمنين، وقد بيّنّا أنّه ليس لها أدنى علاقةٍ بنفي المبدإ الإلٰهيّ.

وبناءً عليه لا يحقّ للسيّد دوكينز أن يدّعي أو يتوهّم أنّ اعتقاده الإلحاديّ اعتقادٌ علميٌّ تجريبيٌّ أو عقليٌّ منطقيٌّ، بل هو مجرّد اعتقادٍ وهميٍّ

تخمينيٍّ ناتجٍ من ردود أفعالٍ انفعاليّةٍ، أو ربّما عقدٍ نفسيّةٍ كما أثبت ذلك البروفيسور الأمريكيّ بول فيتز أستاذ الطبّ النفسيّ بجامعة نيويورك[1].

ينتقل دوكينز بعد ذلك ليثير موضوعًا باعثًا على اشمئزاز أيّ إنسانٍ له ذرّةٌ من الكرامة الإنسانية، بل من الطبيعة الحيوانيّة العامّة، وهو دفاعه المنقطع النظير عمّا يسميه بحقوق المثليّين، أو الشواذّ جنسيًّا.

قال دوكينز: «**في أفغانستان، وتحت حكم طالبان، كانت العقوبة الرسميّة للمثليّة الجنسيّة هي الإعدام، وبطريقةٍ تبدو شهيّةً للبعض، وذلك بدفن الشخص حيًّا تحت جدار يدفع فوق الضحيّة، والجريمة هنا تمّت بشكلٍ شخصيٍّ، ومورست بين شخصين بالغين، لم يتسبّبوا بالأذى لأيٍّ كان**»[2]، ثمّ قال: «**المواقف تجاه المثليّين تفضح الكثير عن شكل الأخلاقيّات المستوحاة من الدين**»[3].

يتعجّب دوكينز من المواقف السلبيّة للمتديّنين والحكومات الشرقيّة والغربيّة تجاه الشواذّ، مع كونهم أحرارًا في سلوكهم، ولم يتسبّبوا في أيّ أذًى للمجتمع البشريّ!

---

(1) Faith of the Fatherless: The Psychology of Atheism.

(2) ص 292.

(3) ص 295.

وأقول:

أولًا: هل الشذوذ الجنسيّ يا سيّد دوكينز هو مقتضى الانتخاب الطبيعيّ الّذي تؤمن به؟ أليس مقتضى الانتخاب الطبيعيّ، هو إبقاء الأصلح الّذي ينسجم مع الطبيعة ويضمن استمراريّتها؟ هل الجهاز التناسليّ للذكر ينسجم بيولوجيًّا مع الذكر أو مع الأنثى؟ هل الحيوانات المنويّة للذكر مكانها الطبيعيّ الّذي انتخبته لها الطبيعة الرائعة ـ كما يعتقد دوكينز ـ هو رحم المرأة لتوليد النوع الإنسانيّ، أو الجهاز الهضميّ والإخراجيّ للرجل؟!

وهل اكتفاء الرجال بالرجال، والنساء بالنساء ينسجم مع الطبيعة واستمراريّة النسل البشريّ، أو أنّه يؤدّي إلى انقراضه؟ لا أعتقد أنّ هناك عالم أحياءٍ محترمًا يذهب إلى ذٰلك.

ثانيًا: إذا كانت الحرّيّة الشخصيّة تسوّغ أيّ فعلٍ، ولو كان غير إنسانيٍّ، لأنّه لا يضرّ بالغير، فلماذا تمنع قوانين كلّ الدول تعاطي المخدّرات ـ ولا أدري إن كان دوكينز يوافق ذٰلك أم لا ـ مع كونها أمرًا شخصيًّا لا يضرّ بالغير، ولماذا تمنع الدول الغربيّة المتحضّرة ـ لا سيّما بريطانيا ـ أيّ أجنبيٍّ من العمل الحرّ لاكتساب رزقه، أو الدراسة في جامعاتها إلّا بشروطٍ قانونيّةٍ معقّدةٍ وطويلةٍ، وإذا تمّ اكتشاف أمره يلقى في السجن إلى أن يتمّ ترحيله بنحوٍ مهينٍ، وما هو الضرر الّذي يلحق بالحكومات من

ذٰلك؟ ولم نجد السيّد دوكينز ينبري للدفاع عن أمثال هٰؤلاء الضحايا المساكين كما يدافع عن الشواذّ جنسيًّا!

ثالثًا: من قال إنّ الشذوذ الجنسيّ لا يؤذي الغير، وهو أبرز مظاهر إهدار الكرامة الإنسانيّة، وهو الّذي أنتج لنا أشرس فايروس (*HIV virus*) المسبب أحطّ أمراض العصر، وهو الإيدز(*AIDS*) الّذي يدمّر الجهاز المناعيّ للإنسان بكلّ وحشيّةٍ، ويدع الإنسان فريسةً لأخطر أنواع الجراثيم والسرطانات. وقد تسبب الإيدز في موت عشرات الملايين بنحوٍ تراجيديٍّ مؤلمٍ، وأهدر مئات المليارات من الدولارات من أموال الشعوب ودافعي الضرائب؛ من أجل السيطرة عليه، وما زال الطبّ عاجزًا عن إنتاج لقاحٍ ضدّه، أو إيجاد علاجٍ جذريٍّ له.

رابعًا: إنّ الشواذّ جنسيًّا غالبًا ما يعانون من مرضٍ نفسيٍّ، أو عقدةٍ نفسيّةٍ أدّت بهم إلى هٰذا السلوك الشاذّ غير الموجود حتّى في الحيوانات، وكان الشذوذ يعدّ رسميًّا من الأمراض النفسيّة في قائمة *(DSM)*[1]، وهٰذا يستلزم تدخّل الدول لمواجهته ومعالجته. والأديان الإبراهيميّة حرّمت هٰذا السلوك الشائن، وتحريمها من أجل حماية المجتمع البشريّ من الانحلال والتفكّك، ولحفظ الكرامة الإنسانيّة من الضياع.

---

(1) Made in AmericaVivek Datta, MD, MPH, December 1, 2014 magazine

ثم ينتقل دوكينز إلى موضوعٍ شاذٍّ آخر يتلاءم مع طبيعته النفسيّة، وهو الدفاع عن الإجهاض، فيقول «**إن أولٰئك الّذي يعارضون بشدّةٍ إطفاء حياة بويضةٍ، يتحمّسون بشكلٍ عامٍّ أكثر من المعتاد لإهلاك حياةٍ شخصٍ بالغٍ**»[1].

ثمّ يشرع في السخرية والاستهزاء من كلّ من تصدّى لهٰذه الجريمة الإنسانيّة، حتّى الأمّ "تريزا" الّتي شهد لها كلّ الناس من مختلف الملل والنحل بالتقوى والإخلاص والرحمة والرأفة المتناهية، وأنّها أفنت زهرة شبابها وكلّ عمرها في خدمة المرضى والفقراء والمستضعفين في كلّ مكانٍ، حتّى حصلت على جائزة نوبل للسلام، أقول، حتّى هٰذه المرأة الفاضلة لم تسلم من لسانه الطويل، الّذي طالما دافع به عن رموز الماسونيّة الشريرة، والشواذّ جنسيًّا، فنجده يقول: «**الأم تريزا قالت في خطابها عند حصولها على جائزة نوبل للسلام "الإجهاض هو الخطر الأكبر على السلام".. عفوًا! ماذا؟ كيف يمكن لامرأةٍ تمتلك رأيًا مستهلكًا كهٰذا أن تؤخذ بجدّيّةٍ في أيّ موضوعٍ جدّيٍّ، ناهيك عن كون الفكرة جدّيّةً لتستحقّ جائزة نوبل**»[2].

أقول: إنّ تعجّبه من تحريم قتل الجنين البريء، واستنكاره لقتل وإعدام المجرم القاتل الكبير، لهو الجدير بالتعجّب والاستنكار، وكأنّ

---

(1) ص 295.
(2) ص 296.

الأحكام والقوانين التشريعيّة تخضع للكتل والأوزان! فقتل الجنين يا سيد دوكينز هو قتلٌ لإنسانٍ بريءٍ لم يرتكب أيّ إثمٍ، وإعدام المجرم الكبير هو لإجرامه وقتله العمديّ لإنسانٍ بريءٍ آخر بلا وجه حقٍّ، فكيف نساوي بين البريء وبين المجرم الّذي أزهق روحًا بريئةً وحرمها من الحياة، ألا يستحقّ بحكم العقل والمنطق ـ قبل حكم الشرع ـ أن تُزهق روحه أيضًا، وكيف تأسف على الجاني، ولا تأسف على المجنيّ عليه؟!




الفصل التاسع

الطفولة

الانتهاك والهرب من الدين




الفصل التاسع

الطفولة

الانتهاك والهرب من الدين

بعد أن بذل دوكينز غاية جهده لتسويغ قتل الأجنّة في بطون أمهاتهم، وفي الدفاع عن الشواذّ جنسيًّا، وتخفيف العقاب عن القتلة والمجرمين، نراه ـ وياللعجب ـ في هٰذا الفصل يدافع عن الطفولة البريئة! وهٰذا وإن كان أمرًا حسنًا في نفسه، ولٰكنّه ـ للأسف ـ كعادته استغلّ هٰذا الموضوع الشريف بانتهازيّةٍ شديدةٍ؛ لتشويه الدين والمتديّنين، وكأنّ الدين النازل من اللطيف الخبير ما جاء إلّا لانتهاك الطفولة واستعبادها، وكأنّ الإلحاد الّذي لا يؤمن إلّا بالمادّة الصمّاء العمياء مبدأً للكون والحياة، والّذي يؤمن بالتفاعلات الكيميائيّة العشوائيّة والنبضات الكهرومغناطيسيّة أساسًا للقيم والعلاقات الإنسانيّة، والّذي يروّج للشذوذ والتحلّل الأخلاقيّ والرذيلة وانتهاك القيم الإنسانيّة المعنويّة والإلٰهيّة؛ هو الأب العطوف، والحضن الرؤوف للطفولة البريئة!

قال دوكينز: «**أليس نوعًا من العنف ضدّ الطفولة أن نفرض على الأطفال**

أنّ لديهم إيمانًا، هم في الحقيقة أصغر من أن يتفكّروا فيه بأنفسهم»[1].

ثمّ قال: «**ما أقوله هو بأنّ للطفل حقّه الإنسانيّ، بأن لا يتم إعاقة عقله بتعريضه لأفكارٍ مؤذيةٍ من الآخرين كائنًا من يكونوا، فالأهل هنا لا يملكون رخصةً إلٰهيّةً لحشو أولادهم بأفكارهم الشخصيّة**»[2].

وأقول:

1ـ إنّ الطفل الصغير موجودٌ ضعيفٌ جسمانيًّا وعقليًّا؛ فهو على أي حال يحتاج إلى العناية من غيره مادّيًّا ومعنويًّا.

2ـ إنّ الطفل إنسانٌ يعيش داخل المجتمع البشريّ، يُؤثّر فيه ويُتأثر به، وله درجةٌ بسيطةٌ من التعقّل والتفكّر، عادةً ما تصدر منه أسئلةٌ فلسفيّةٌ متعدّدةٌ، عن الكون ومبدئه ومنتهاه، إذ يعلم أنّه لم يكن موجودًا قبل وجوده، ويشاهد تجدّد حدوث الحياة من حوله في النباتات والحيوانات في كلّ يومٍ، ويرى الناس يتديّنون بمذاهب مختلفةٍ، ويتصرّفون تصرّفاتٍ متباينةً، ويرى الكثير من الناس يموتون بالتدريج، فتنبعث هٰذه الأسئلة الطبيعيّة منه عن مبدأ الكون، وعن الحياة بعد الموت، وعن السلوك الأخلاقيّ الحسن والقبيح، وعمّا ينبغي فعله وما ينبغي تركه.

---

(1) ص 319.

(2) ص 331.

3ـ إنّ هٰذه الأسئلة من حقّ الطفل أن يحصل على جوابٍ مقنعٍ عنها، وفي الوقت نفسه ليس في وسعه أن يجيب عنها بنفسه، فإن لم يجبه عنها أبواه ـ اللذان هما أقرب الناس إليه وأولى الناس بتربيته بحكم العقل والعرف والقانون ـ فسوف يأخذ الجواب من غيرهما، سواءٌ من أقاربه أو من أصدقائه، أو من الغرباء الّذين يعيشون معه في المجتمع، وكلّ واحدٍ من هٰؤلاء بطبيعة الحال سوف يجيبه بحسب اعتقاده، ورؤيته الخاصّة الّتي يؤمن بها، سواءٌ كانت رؤيةً دينيّةً أو إلحاديّةً

وهٰذا عين ما سيفعله دوكينز مع أولاده الصغار، فإن كان لديه أولادٌ فسيجيب عن هٰذه الأسئلة من وجهة نظره الإلحاديّة الخاصّة، وسيشُب أبناؤه ملحدين مثله في الغالب.

والغريب أنّ دوكينز يروي بنفسه أنّ أبويه هما اللذان زرعا بذرة الإلحاد في نفسه، بعد أن علّماه أنّ المسيحيّة وسائر الأديان باطلةٌ ومتناقضةٌ، فنجده يقول: «**شخصيًّا بدأت شكوكي عندما كنت في التاسعة من العمر، عندما عرفت من أهلي ـ وليس من المدرسة ـ بأنّ المسيحيّة الّتي تربّيت عليها هي أحد الأنظمة الإيمانيّة العديدة المتناقضة في العالم**»[1].

وهٰذا من العجائب، حيث سرعان ما نسي عتابه للآباء في تلقين

(1) ص 446.

أطفالهم عقائدهم الدينيّة، وكأنّ أبويه قد استثنيا من هٰذه القاعدة، أو أنّ مقصوده أنّ المحذور هو في تلقين الإيمان دون الإلحاد!

4ـ إنّ كلّ طفلٍ يتربّى على عادات المجتمع الّذي يعيش فيه وأعرافه، سواءٌ كان مجتمعًا دينيًّا كأوروبّا أو الدول الإسلاميّة، أو ملحدًا كالاتّحاد السوفيتيّ في الماضي، ويُضطرّ لاحترام تقاليده وقوانينه، شاء أم أبى، وأعتقد أنّ السيد دوكينز يعلم ذٰلك جيّدًا، ولايخالفه، وإلّا ما هو البديل الطبيعيّ لذٰلك؟! هل يُترك الطفل بلا دينٍ فيكون لا أدريّ أو ملحدًا؟! مع أنّ هٰذا أيضًا نوعٌ من العقيدة والرؤية الكونيّة الّتي ينتخبها بعض البالغين الكبار لأنفسهم.

5ـ إنّ اكتساب الطفل ديانة أبويه منذ ولادته أمرٌ طبيعيٌّ؛ لأنّها جزءٌ لا يتجزّأ من هويّته الشخصيّة، إذ يترتّب عليها أحكامٌ عرفيّةٌ وقانونيّةٌ داخل المجتمع الّذي يعيش فيه، فهي كالجنسيّة البريطانيّة الّتي تعطى لكلّ طفلٍ يولد في بريطانيا شاء أم أبى، وهو لا يعرف أيّ شيءٍ عن البلد الّذي يعيش فيه وينتمي إليه.

ثمّ قال: «**إنّ الأديان متناقضةٌ فيما بينها، فماذا يعني أن يكون إيمانك أفضل؟ لندع الأطفال يتعلّمون الأديان المختلفة، ولندعهم يلاحظوا التضارب، ويستخلصوا آراءهم الخاصّة بهم عن نتائج هٰذا التضارب. أمّا بخصوص أنّ أحدها حقٌّ أو لا، فلندعهم يقرّروا ذٰلك بأنفسهم عندما يصبحون في عمرٍ**

يؤهّلهم لذٰلك»[1].

أقول: هل هٰذا كلامٌ يصدر من إنسانٍ عاقلٍ؟! وأين الضمير الإنسانيّ والشعور بالمسؤوليّة؟! أنلقي بالأطفال الصغار فاقدي التمييز العقليّ، وبدون أيّ مبادئ تفكيريّةٍ علميّةٍ منطقيّةٍ في خضمّ الصراعات الفلسفيّة والجدالات اللاهوتيّة والسفسطائيّة، ليستخلصوا بعقولهم الفلسفيّة الدقيقة العميقة ما يرونه مناسبًا لهم من العقائد، ثمّ بعد ذٰلك يعيدون النظر فيما اعتقدوه بعد البلوغ! وهٰذا ما تفتّق عنه ذهن السيّد دوكينز حلّال المشكلات، ومنقذ الجيل الصاعد.

ونحن نسأله: على أيّ أساسٍ سيختار الطفل اعتقاداته الأوّليّة؟ هل على أساس عقله الناقص، أو عواطفه وإحساساته؟ وما هو الضامن ألّا ينزلق تجاه أحد التيّارات الدينيّة المتطرّفة أو الخرافيّة؟ أو يصاب باللا أدريّة والسفسطة إلى آخر عمره، أو ربما تكون هٰذه مصيدةً لإيقاعه في الإلحاد كما يتمنّى دوكينز، بل كما حصل له بالفعل عندما اطّلع على تناقضات الأديان كما يقول في صغره. كيف نعامل الصغار كالكبار، المختلفين من الناحيتين البيولوجيّة والنفسيّة، وكيف نترك لهم الحبل على الغارب لتنهشهم وتتعاقب عليهم الكلاب الضالّة؟!

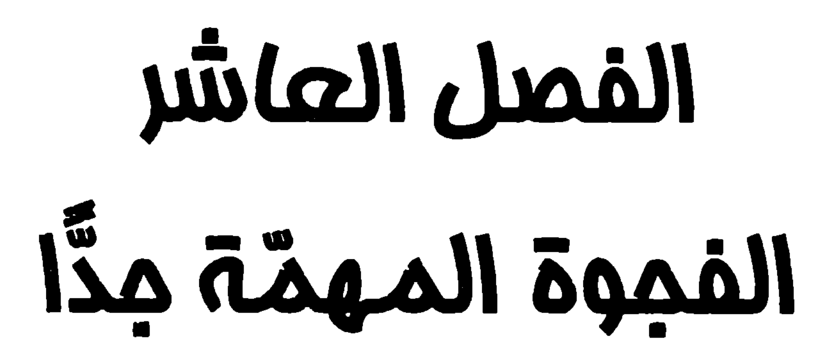
---

(1) ص 347.

وأمّا قوله «**إنّ الأديان متناقضةٌ فيما بينها، فما معنى أن يكون إيمانك أفضل**» يكشف عن الطبيعة السفسطائيّة للسيّد دوكينز، الّتي كان من المفروض أن تقوده للّا أدريّة (*agnosticism*) وليس الإلحاد (*atheism*)، ونحن نسأله: كيف عرفت أن إيمانك بالإلحاد أفضل؟ وهو بلا شكٍّ نحوٌ من الاعتقاد؟ وهٰذا يدلّ على إيمانه بعجز العقل الإنسانيّ البرهانيّ على التمييز بين الصواب والخطإ في الاعتقادات، ومع ذٰلك يدّعي العقلانيّة!

إنّنا نتّفق معه في رفض كلّ أساليب القهر والقمع الّتي يستعملها البعض ضدّ الأطفال، وكلّ أنحاء التربية اللا عقلانيّة، سواءٌ كانت من المتديّنين أو الملحدين، ولٰكن ليس الحلّ فيما قدّمه من اقتراحاتٍ خياليّةٍ هزليّةٍ سخيفةٍ، ليس مآلها إلّا تدمير الطفولة وتهديد مستقبل المجتمعات البشريّة، والتأسيس للفوضى والتطرّف والضياع؛ بلّ الحل الوحيد يكمن في العودة إلى المنهج العقليّ القويم في تربية الأطفال والجيل الصاعد، وذٰلك بتعليمهم وتعليم آبائهم المبادئ الفطريّة في التفكير، وقوانين العقل السليم، وكيفيّة التمييز التدريجيّ بين الصواب والخطإ، وعدم التسرّع في التصديق، والتدبّر في الأقوال، والتأنّي في الأفعال، والوقوف عند الشبهات والموارد الغامضة، وغير ذٰلك من الوصايا الّتي جاء بها الأنبياء والحكماء منذ قديم الزمان، ونعاملهم بمودّةٍ ولطفٍ، ونعتني بصحّتهم العقليّة كما نعتني بصحّتهم الجسميّة؛ لا أن نلقي بهم إلى التهلكة وسط الفيروسات الفكريّة، والعقول المسرطنة!

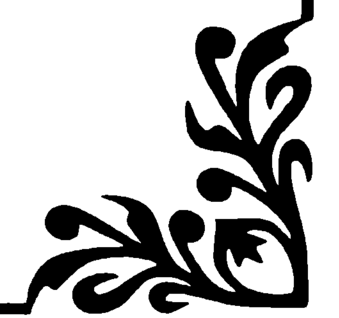




الفصل العاشر

الفجوة المهمّة جدًّا





الفصل العاشر
الفجوة المهمّة جدًّا

هٰذا الفصل الأخير من أسخف فصول الكتاب، وقد تردّدت مرارًا في التعليق عليه، حتّى أوشكت على الإحجام عنه، ولٰكنّني قلت في نفسي: لقد صبرت على أمثال هٰذه السخافات خلال الفصول التسعة للكتاب، فلنصبر بضع سويعاتٍ على هٰذا الفصل أيضًا؛ لتتميم الكتاب، والله مع الصابرين.

الفصل مشحونٌ بكلماتٍ، لا يمكن وصفها إلّا بالهذيانات الّتي لا تصدر من إنسانٍ عاديٍّ، فضلًا عن عالم أحياءٍ كبيرٍ مثل دوكينز.

ومن الواضح جدًّا أنّ دوكينز لم يكتب هٰذا الفصل وهو في حالةٍ طبيعيّةٍ؛ إذ ظهرت عليه آثار التعب والضعف والتخبّط، وكأنّه كتبه وهو في حالةٍ من السكر أو الثمالة، أو بين النوم واليقظة، بحيث لم يعد يدري ما يقول، أو إلى أين يذهب.

ويتجلّى في هٰذا الفصل بوضوحٍ أعلى درجات خداع النفس وتضليلها، والسبب الحقيقيّ الّذي يقف وراء كلّ هٰذا التخبّط

والاضطراب، هو أنّ دوكينز أوقع نفسه في مستنقعٍ من الرمال المتحرّكة، كلّما حاول أن يضرب بيديه ورجليه للخروج منه غرق فيه أكثر وأكثر.

وقد كان في غنًى عن أن يوقع نفسه في مثل هٰذا المستنقع؛ إذ إنّه لا ينفعه في تحقيق غايته في نفي المبدإ الإلٰهيّ.

فقد حاول أن يتنكّر لأمرٍ في غاية البداهة والوضوح، أمرٌ لم يتّفق عليه المتديّنون فقط، بل جميع اللا دينيّين والمادّيّين البراغماتيّين والنفعيّين والأطبّاء النفسانيّين في الشرق والغرب، كما نقلنا عنهم، ألا وهو الأثر الإيجابيّ الكبير للإيمان بالإلٰه الرؤوف الرحيم على سكون النفس واطمئنانها، وانبعاث الأمل في الروح واستقرارها، حتّى لو لم يكن هٰذا الإيمان واقعيًّا، ولم يكن هٰذا المبدأ الإلٰهيّ موجودًا.

وأنا في الواقع لا أدري ما الّذي دفعه لتوريط نفسه في نفي هٰذه المسألة البدهيّة الضروريّة، ليجعل نفسه أضحوكةً للآخرين، وقد كان في غنًى عن كلّ ذٰلك؟! ولٰكنّ الظاهر أنّ كراهيته وعداوته الشديدة للدين، ونفوره الشديد من الخالق الحكيم الّذي فاق فيه سائر الملحدين، وحرصه الكبير على سلب الدين والإيمان أيّ امتيازٍ؛ كلّ ذٰلك أوقعه في هٰذه الورطة.

وعلى أيّ حالٍ نعود الآن لنستعرض بعض ما ترشّح عن ذهنه المضطرب في هٰذا الفصل الأخير.

قال: «**هل يملأ الدين فجوةً مهمّةً في حياتنا؟ غالبًا ما يقال إنّ هناك فجوةً في الدماغ يجب ملؤها بالإله، هناك حاجةٌ نفسيّةٌ، صديقٌ متخيّلٌ، أبٌ، شخصٌ محلّ ثقةٍ، ... وهٰذه الحاجة يجب إشباعها سواءٌ كان الله موجودًا أو لا، ولٰكن هل من الممكن أن يكون من الأفضل أن نملأ تلك الفجوة بالله، وليس بشيءٍ آخر يجعلنا بحالةٍ أفضل؟ علمٌ ربما، فنٌّ، صداقةٌ، إنسانيّةٌ، حبّ الحياة في العالم الحقيقيّ، بدون الحاجة للإيمان بحياةٍ أخرى خلف القبر!**»[1].

أقول: أوّلًا: لقد أثبتنا في الفصول السابقة أنّ الإيمان بوجود الخالق الحكيم، هي ضرورةٌ عقليّةٌ يثبتها العقل السليم، وليست مجرّد خيالاتٍ اختلقتها الأذهان البشريّة للتسلية، كما يتوهّم دوكينز.

وثانيًا: بغضّ النظر عن واقعيّة الإيمان بالله، ووهميّة الارتباط بغيره، كيف يمكن استبدال الإيمان النفسيّ للإنسان بموجودٍ خالقٍ في غاية الكمال والجمال والرأفة والرحمة، عالمٍ بما في الصدور، يجيبه إذا دعاه، ويتوكّل عليه في الشدائد، ويؤنسه في الخلوات، ويعينه إذا انقطعت به الأسباب المادّيّة، ويبعث في نفسه دائمًا الأمل والرجاء بالمستقبل، ويلازمه عند الشيخوخة وتعاقب الأمراض والشعور بالعجز، ويبشّره بالحياة الهنيئة والرغيدة بعد الموت، كيف نستبدل بمثل هٰذا الإيمان الكامل ـ ولو

(1) ص 352.

كان وهميًّا ـ علمًا محدودًا، أو صديقًا ضعيفًا، أو فنًّا جزئيًّا عابرًا أو تافهًا؟! وهل الإيمان بالإله نوعٌ من التسلية أو إضاعةٌ للوقت؟! وكيف يحلّ المخلوق الضعيف محلّ الخالق القادر؟! وكيف تُشبع الخيالات الحسّيّة المادّيّة الأرواح المعنويّة؟! ولكنّ هذا ليس بمستغربٍ عند من يعتقد أن الإنسان مجرّد مجموعةٍ من التفاعلات الكيميائيّة، والنبضات الكهربائيّة المتنقّلة خلال الشبكة العصبيّة *(neural network)*.

قال دوكينز: «**خلال عصورٍ مختلفةٍ، لعب الدين أربعة أدوارٍ رئيسةٍ في حياة الإنسان، وهي تفسيرٌ، وحثٌّ، وعزاءٌ وإلهامٌ.**

تاريخيًّا، فقد طمح الدين لتفسير وجودنا، وتفسير الطبيعة من حولنا، والكون الّذي وجدنا أنفسنا به.

دوره هذا في أيّامنا هذه قد تولّاه العلم بشكلٍ كاملٍ، وقد تعرّضت لتلك الفكرة في الفصل الرابع.

بالنسبة للحثّ ـ فما أعنيه ـ فهو تلك التعاليم الأخلاقيّة، لما يفترض أن نعيش وفقًا لها، وقد غطّيت ذلك في الفصل السادس والسابع»[1].

أقول: ونحن أيضًا قد فنّدنا تفسيراته العلميّة في الفصل الرابع، وأثبتنا بما لا يدع مجالًا للشكّ مدى هشاشة تفسيراته غير العلميّة للنظريّات العلميّة، وأنّ العلوم الطبيعيّة الرياضيّة ليس من شأنها إثبات

---

(1) ص 352.

المسائل الفلسفيّة أو نفيها، وأنّ نظريّة التطوّر ـ على فرض صحّتها ـ فهي لا تثبت أصل وجود الكون والحياة، كما اعترف دوكينز بنفسه، على خلاف التفسير الإلٰهيّ المدعوم بالبراهين العقليّة القطعيّة. وها هو يزعم بكلّ صلافةٍ أنّه قد وجد التفسير العلميّ بديلًا عن التفسير الإلٰهيّ والفلسفيّ!

أمّا ادّعاؤه بأنّه قد أوجد بديلًا عن الدين في الدافع الأخلاقيّ الذاتيّ في الفصل السادس والسابع، فقد أبطلنا بدورنا هٰذا الادّعاء الخاوي بنحوٍ تفصيليٍّ في هٰذين الفصلين، وللقارئ الكريم أن يراجع ما قلناه، حتّى لا يلزم التكرار.

ثمّ عاد دوكينز ليقول: «**حتّى الآن لم أتناول موضوعي العزاء والإلهام، وفي هٰذا الفصل الأخير سوف نتعرّض لهما بشكلٍ وجيزٍ**»[1].

من هنا ستبدأ سلسلة المسرحيّات الهزليّة، الّتي تجمع بين الكوميديا والتراجيديا، لتفسير كيف يمكن للمادّة العمياء، والطبيعة الصمّاء، والتخيّلات الوهميّة، أن تكون عزاءً وإلهامًا للإنسان الملحد الضعيف، بديلًا عن المبدإ الإلٰهيّ الحكيم، في خضمّ هٰذه الحياة الدنيويّة المعقّدة، والمليئة بالمشاكل والمآسي والآلام، والمنتهية إلى الموت والفناء.

---

(1) الصفحة نفسها.

قال: «وكتمهيدٍ للعزاء نفسه، أريد أن أبدأ بظاهرةٍ طفوليّةٍ، تسمّى بالصديق المتخيّل، الّتي لها علاقة مباشرةٌ بالإيمان الدينيّ حسب اعتقادي. أعتقد أن كريستوفر روبين ما كان ليصدّق بأنّ صغير الخنزير "بيغليت" ، والدبدوب "بووه" (شخصياتٌ كرتونيّةٌ) تكلّما معه، ولٰكن هل كان وضع بينكر مختلفًا؟

بينكر هو سرّي الكبير

بينكر هو السبب الّذي جعلني لا أشعر بالوحدة أبدًا

أينما ذهبت فبينكر سيكون معي»[1].

من قصيدة أ. ميلين

ثمّ يقول: «إنّ هٰذه الظاهرة الطفوليّة يمكن أن تكون نموذجًا جيّدًا لفهم الإيمان التوحيديّ لدى البالغين، لا أعرف إذا ما كان علماء النفس قد درسوا تلك الظاهرة، من وجهة النظر تلك، ولٰكنّ بحثًا كهٰذا يستحقّ التعمّق فيه.. رفيقٌ ومحلّ للثقة.. "بينكر" لمدى الحياة، ذٰلك بدون شكٍّ أحد الأدوار الّتي يلعبها الله، إنّها الفجوة الّتي ستبقى فارغةً إذا ما اختفى الله»[2].

ثمّ أورد قصّةً خياليّةً أخرى لما أسماه قصّة الرجل البنفسجيّ، وهو شبيهٌ بقصة البابا نوئيل الّذي يزور الأطفال ويواسيهم ويسلّيهم، وعندما يكبرون لا يأتيهم؛ لاستغنائهم عنه، ونشير إليها باختصارٍ نظرًا لسخافتها

---

(1) ص 353.

(2) الصفحة نفسها.

بالنسبة للكبار.

قال دوكينز: «**طفلٌ آخر، فتاةٌ لديها "رجلٌ صغيرٌ بنفسجيٌّ"... يزورها بانتظامٍ، وخصوصًا عندما تشعر بالوحدة، وبتواترٍ يقلّ مع كبرها في السنّ... ولٰكنّ الرجل البنفسجيّ قال لها إنّها تكبر الآن، ولن تحتاج إليه في المستقبل، الآن عليه تركها ليتمكّن من الاهتمام بأطفالٍ آخرين... وقد عاد إليها بعد عدّة أعوامٍ في حلمٍ... إذ فتح باب غرفة نومها، وظهرت عربةٌ محمّلةٌ بالكتب، يدفعها الرجل البنفسجيّ الصغير، ففسّرت ذٰلك بأنّه نصيحةٌ وأنّ عليها أن تبدأ الدراسة**»[1].

ثمّ قال معلّقًا: «**القصّة تدفعني لذرف الدموع، وهي أكثر ما نستطيع الاقتراب لتفهم دور المواساة والنصح للإلٰه المتخيّل... هل تطوّرت الآلهة لتكون ناصحةً ومواسيةً من هٰذه الظاهرة، كصنفٍ من البيدومورفوس النفسيّ؟ وهو استمرار الشخصيّة الطفوليّة لما بعد البلوغ**»[2].

وأقول: أوّلًا: يريد أن يشير في القصّة الأولى إلى أنّ الإيمان بالله ـ تعالى ـ هو صنيعة الخيال من أجل التسلّي، وهو قياسٌ مع الفارق الكبير بينهما، حتّى لو افترضنا وهميّة وجود المبدإ الإلٰهيّ على خلاف البراهين العقليّة،

---

(1) ص 355.

(2) الصفحة نفسها.

وهو يكشف إمّا عن سذاجته الكبيرة في فهم فلسفة الإيمان بالله، أو عن قصده المتعمّد لتشويه الإيمان، والتغرير بالشباب الضائع؛ لأنّنا جميعًا نعلم أنّ الوجود الخياليّ المشار إليه في القصّة، إنّما هو من صنيعة نفس الإنسان الضعيف في مرحلتي الطفولة والمراهقة، وهما مرحلتان مفعمتان بأحلام اليقظة، والإنسان يعلم أنّه من صنع خياله؛ من أجل التسلية النفسيّة، إذ يحقّق من خلالها ما يعجز عن تحقيقه في الواقع، وهو أمرٌ ملازمٌ للطبيعة الإنسانيّة في مرحلة الطفولة الضعيفة، سواءٌ كان مؤمنًا أو ملحدًا، وقد يستصحبها البعض بعد بلوغه لضعفٍ في شخصيّته، وحينئذٍ يُعدّ ذٰلك عند الأطبّاء من مظاهر الأمراض النفسيّة.

وكل ذٰلك على خلاف الإيمان بالله تعالى؛ إذ إنّه إيمانٌ عقليٌّ راسخٌ بموجودٍ كاملٍ، ومصمّمٍ ذكيٍّ نعتقد أنّنا من صنعه، لا أنّه من صنعنا، وأنّه يحرّكنا ويدبّرنا، لا أنّنا نحرّكه بإرادتنا وخيالنا، ونحن نحبّه ونخشاه، وحالنا منه بين الخوف والرجاء، وهٰذا الإيمان يزداد رسوخًا مع البلوغ العقليّ للإنسان، ولا يختفي بالبلوغ مثل "بينكر" إلٰه دوكينز وأمثاله من الملحدين، الّذين ما زالوا يتوهّمون وجود كائناتٍ فضائيّةٍ مدبّرةٍ للكون ـ كما نقلنا عنه سابقًا ـ وهو تخيّلٌ طفوليٌّ محضٌ.

وليس الإلٰه ـ يا سيّد دوكينز ـ في أذهاننا مجرّد صورةٍ لأجل اللهو والتسلية، وإنّما هو نورٌ للهداية والاسترشاد في نمط حياتنا وسلوكنا *(The Lord is My Light and Illumination)*، وهو شعار جامعة أكسفورد

الّتي ينتمي إليها دوكينز؛ ومن أجل ذٰلك كان العمل بالتكاليف الشرعيّة مشروطًا بالبلوغ العقليّ الكامل، وبعد انقضاء مرحلة الطفولة الخياليّة؛ لأنّ الإيمان مظهر العقل والإنسانيّة.

ثانيًا: يريد أن يشير في قصّة الرجل البنفسجيّ إلى أنّ عقيدة الإلٰه هي عقيدةٌ طفوليّةٌ تناسب عقول الأطفال الصغيرة، وعند البلوغ فإنّ العلم يحلّ محلّ هٰذا الاعتقاد الطفوليّ، بديلًا عقلانيًّا منطقيًّا، فالدين للأطفال، والعلم للكبار الراشدين.

ونحن قد أثبتنا بالأدلّة أنّ الواقع بالعكس تمامًا، وأنّ الاعتماد على الحسّ كأداةٍ وحيدةٍ في المعرفة، والتمسّك بالعقل التجريبيّ، ورفض العقل الإنسانيّ البرهانيّ التجريديّ، والالتصاق بالمادّيّات، والاقتصار على العلوم الحسّيّة، والنظرة الكونيّة السطحيّة، والنفور من الفلسفة العميقة الإلٰهيّة، والولع بالفنون الخياليّة، والإيمان بالكائنات الفضائيّة؛ أمورٌ هي من أظهر شؤون الطفولة، وأبرز مصاديق البيدو مورفوس، بل هي مرضٌ نفسيٌّ في الحقيقة.

وفي الطرف المقابل، فإنّ اعتماد العقل التجريديّ أداةً معرفيّةً حاكمةً رئيسةً، وتعظيم الفلسفة الإلٰهيّة الحقيقيّة، واشتراط البلوغ العقليّ في التكاليف الشرعيّة، وإسقاطه عن الأطفال والمجانين؛ أمورٌ تعدّ أكبر دليلٍ على عقلانيّة الدين الصحيح.

ثمّ عندما بدأ يشعر دوكينز بالعجز التدريجيّ بدأ يتحدّث بنحوٍ من العصبيّة والاضطراب، فقال: «**العديد من الناس الّذين يعترفون بأنه ربّما لا يوجد إله، وأنّه ليس ضروريًّا للأخلاق، يرجعون بما يظنّون أنّه الورقة الرابحة (الزعم بحاجةٍ نفسيّةٍ أو عاطفيّةٍ لإله)، فيقولون: لو رميت بالدين بعيدًا، يسألون بعصبيّةٍ، ما الّذي ستضعه في محلّه؟ ما هو الشيء الّذي ستوفّره للمرضى على فراش الموت؟ أو المفجوعين الباكين؟ أو المجرمين المعزولين عن المجتمع، والّذين يعدّون الله صديقهم الوحيد المتبقّي؟**»[1]..

ثمّ أجاب: «**إنّ قدرة الدين على عزاء الناس لا يجعله حقيقيًّا، حتّى أنّنا لو قدّمنا تنازلًا كبيرًا، وحتّى لو تبيّن بشكلٍ حاسمٍ أنّ الإيمان بوجود الله ضروريٌّ وأساسيٌّ للاستقرار النفسيّ والعاطفيّ، حتّى لو أنّ كلّ الملحدين مصابون بقلقٍ انتحاريٍّ بسبب الشعور بالفراغ الكونيّ، فلن يساهم أيٌّ ممّا سبق، وبأيّ شكلٍ مهما كان صغيرًا، ليكون دليلًا على أنّ الإيمان الدينيّ صحيحٌ**»[2].

أقول: شرّ البليّة ما يضحك!

أوّلًا: إن كان فرض كون الدين هو العزاء الوحيد للإنسان ليس دليلًا على وجود الإله وصحّة الإيمان الدينيّ ـ وهو كذلك ـ فلماذا أتعبتنا، وأتعبت الناس معك في نفي كونه كذلك، وسردت لنا القصص

---

(1) ص 357.

(2) الصفحة نفسها.

والحكايات والأشعار المتعدّدة لإثبات وهميّة هٰذا العزاء؟!

ثانيًا: لماذا لم تقل هٰذا الكلام في أكثر ما كتبت في هٰذا الكتاب لإبطال صحّة الأديان، وإثبات وهميّتها، ومخالفتها للعلم، مع أنّ إبطالها أيضًا لا يبطل وجود الإلٰه كما يؤمن بذٰلك اللا دينيّون الربوبيّون؟! أليس هٰذا تناقضًا واضطرابًا؟!

ثالثًا: إذا كان هٰذا الفرض صحيحًا ـ أي كون التديّن مصدرًا للراحة والطمأنينة، والإلحاد مصدرًا للقلق الانتحاريّ ـ فسيكون هٰذا دليلًا قويًّا على وجود المبدإ الإلٰهيّ بناءً على مذهبك الحسّيّ التجريبيّ البرغماتيّ، إذ إنّك لا تؤمن بالبراهين الفلسفيّة العقليّة المجرّدة، كما أنّك تسعى دومًا في أغلب مباحث هٰذا الكتاب لإثبات أنّ الدين مصدر الشرّ والتطرّف والمعاناة الإنسانيّة، وأنّ الإلحاد مصدر السعادة والتطوّر، والحضارة الإنسانيّة؛ لكي تثبت صحّة الإلحاد وبطلان الدين والمبدإ الإلٰهيّ، وهٰذا إن دلّ على شيءٍ فإنّما يدلّ على حالة الاضطراب، والتناقض واللا منهجيّة.

ثمّ يستمر دوكينز المضطرب في هذيانه لتهدئة روع الملحد الخائف من الموت، بتقديم عزاءين خياليّين له، لا يستندان على أيّ أساسٍ علميٍّ أو عقليٍّ منطقيّ، وكلّ عزاءٍ منهما أسخف من الآخر، فيقدّم العزاء الأوّل قائلًا: «**يشير أحد الفلاسفة [مجهول الهويّة] إلى أنّه لا شيء يستحقّ الذكر يحصل عندما يموت إنسانٌ كبيرٌ في السنّ، فالطفل الّذي كان هو سابقًا قد مات**

منذ فترةٍ طويلةٍ، وليس بسبب توقّفه عن الحياة فجأةً، بل بسبب بلوغه. إنّ كلّ واحدٍ من أعمار شكسبير السبع، يموت بانتقاله ببطءٍ من مرحلةٍ لأخرى، ومن وجهة النظر هٰذه، فإنّ تلاشي الرجل العجوز لا يختلف كثيرًا عن موتاته البطيئة خلال حياته، والشخص الّذي يكتئب من فكرة موته، ربّما يجد العزاء في وجهة النظر الجديدة هٰذه، وربّما لا، ولٰكنّ هٰذا مثالٌ فقط عن قدرة العزاء بالتأمّل»[1].

ثمّ يقدّم العزاء الثاني قائلًا: «أمّا طريقة مارك توين باستبعاد الخوف من الموت فهي شيءٌ آخر" أنا لا أخاف الموت، لقد كنت ميّتًا لمليارات السنين قبل أن أولد، ولم يسبب لي ذٰلك أيّ حرجٍ" هٰذا البيان المختصر لا يغيّر من الواقع شيئًا بحتميّة الموت، ولٰكنّه يعطينا طريقةً جديدةً لرؤية تلك الحتميّة، وربما يكون فيها بعض العزاء»[2].

أقول: بدايةً أترك الفرصة للقارئ الكريم ـ بما فيهم الملحد ـ للتعليق على هٰذه الهلوسات الّتي تمثّل أعلى درجات خداع النفس، فالقارئ يعلم جيّدًا أنّ الموت في نظر أيّ ملحدٍ عبارةٌ عن العدم بعد الوجود، وهٰذا العدم يتمثّل عند الأطبّاء في الانطفاء التدريجيّ لمظاهر الحياة، حيث غالبًا ما تبدأ ضربات القلب في الخمود، ويتعذّر عليه التنفس الطبيعيّ، ويشعر بالاختناق، ويبدأ في الارتعاش، وينخفض ضغط الدم والحرارة، ويبدأ

(1) ص 359.

(2) الصفحة نفسها.

بفقدان الوعي بالتدريج، والله وحده العالم بما يحدث بعد ذٰلك من أهوالٍ جسمانيّةٍ، بل ونفسيّةٍ مرعبةٍ من الإقبال على أمرٍ مجهولٍ، قبل أن ينطفئ نور الحياة بالكلّيّة.

ولٰكن السيّد دوكينز عالم الحياة البيولوجيّ الكبير، يشبّه لنا هٰذا الموت في العزاء الأوّل، بوصول الطفل إلى مرحلة البلوغ، وهو يعلم قبل غيره، أنّ البلوغ هو مرحلةٌ تكامليّةٌ من الناحية البيولوجيّة، وليس مرحلةً عدميّةً، وكذٰلك التكامل الجسمانيّ والعقليّ والعلميّ على مرّ الزمان، إنّما هو في الواقع انتقالٌ من مرحلةٍ إلى مرحلةٍ أكمل منها.

أمّا في عزائه الثاني فهو أعجب، حيث يمثّل الموت ـ الّذي هو العدم بعد الوجود ـ بالعدم قبل الوجود، وهو يعلم جيّدًا الفرق الكبير بينهما، بل هما أمران متقابلان، وهل كان للإنسان وجودٌ قبل وجوده حتّى يُبتلى بمصيبة الموت أو يعاني منها؟! وهل هٰذا إلّا تخريفٌ وهلوسةٌ؟!

ثمّ يرجع ويقول: «**عندما أشرف على الموت، فإنّي أرغب بأن تطفئ حياتي تحت المخدّر العامّ، تمامًا كما لو كانت زائدةً دوديّةً ملتهبةً**»[1].

من الواضح أنّ الرجل يهذي، ولا يدري ماذا يقول، فتارةً يقول إن الموت ليس إلّا كبلوغٍ الطفل الصغير، أو مثله كمثل مراحل العمر

---

(1) ص 362.

التدريجيّة، وتارةً يقول إنّه كما كنّا في الماضي قبل أن نوجد، والآن يقول إنّه كالزائدة الدوديّة الملتهبة، وأتمنّى لو تمّ تخديري بالكلّيّة بالمخدّر العامّ!

ومن هنا يتبيّن صحّة ما قلته في بداية هٰذا الفصل، من أنّ دوكينز لم يكن في تمام قواه العقليّة ووعيه الطبيعيّ عندما كتب هٰذا الفصل الأخير.

ثمّ يقول: «**لقد لاحظت عبر السنين أنّ الأفراد الأكثر خوفًا من الموت هم المتديّنون**»[1].

أقول: إنّ الخوف من الموت هو أمرٌ طبيعيٌّ لأيّ إنسانٍ عاقلٍ، سواءٌ كان مؤمنًا أو ملحدًا؛ لأنّها تجربةٌ جديدةٌ غير مأمونة العواقب، أمّا المؤمن فخوفًا من العقاب على ما ارتكبه من معاصٍ، أو لشكّه في إخلاصه وصدق نواياه عند فعل الطاعات؛ ولذٰلك لا يتمنّى المؤمن الموت بسرعةٍ؛ حتّى يتمكّن في حياته من التوبة عن المعاصي أو فعل المزيد من الطاعات؛ لأنّ الحياة هي مزرعة الآخرة، فيتمنّى أن يبقى ليزرع أكثر ليوم الحصاد في الدار الآخرة، اللّٰهمّ إلّا كان يعتقد الشهادة في سبيل الله، ونيل الثواب الأعظم، وهي قليلةٌ ونادرةٌ.

وأمّا الملحد، فمن الواضح أنّ من حقّه أن يكون أكثر خوفًا من المؤمن، لأنّه مقبلٌ على أمرٍ مجهولٍ بالكلّيّة، لا يعلم عواقبه ومدى آلامه،

---

(1) ص 263.

كما أنّه يحتمل ـ ولو احتمالًا ضئيلًا ـ أن تكون هناك حياةٌ بعد الموت، وعندها سيجد الإله العظيم الّذي طالما أنكره، وسخر منه ومن أنبيائه وأوليائه طول حياته، وعندها تكون الطامّة الكبرى والداهية العظمى؛ إذ لا يمكنه أن يطمع في رحمته، أو أن ينجو من عقابه، على عكس المؤمن الّذي يرجو رحمة ربّه الكريم، ولو كان عاصيًا. فقوله إنّ المؤمن أشدّ خوفًا من الموت من الملحد كلامٌ كاذبٌ، بل لا معنى له.

وبعد أن فرغ دوكينز من سيناريوهات العزاء الإلحاديّ الهزليّة، انتقل إلى سيناريوهاتٍ أخرى إلهاميّةٍ لا تقلّ سخافةً وهزليّةً عن نظيرتها العزائيّة، عندما سعى أن يعطي للملحد معنًى لحياته العبثيّة الفاقدة للمعنى والغاية في غيبة المصمّم الذكيّ، والحياة الأبديّة بعد الموت، فلنشاهد معًا المشهد الآخر من المسرحيّة الهزليّة قبل إسدال الستار.

يقول دوكينز: «**كم نحن محظوظون إذ نعيش بالمقارنة مع غالبية البشر الّذين يمكن أن ينشأوا مع قرعة الـ "دي. أن .أي"، وفي الواقع لن يولدوا إطلاقًا، ولهؤلاء المحظوظين بشكلٍ كافٍ ليكونوا هنا، أوضحت مدى قصر الحياة نسبيًّا، كبقعة ضوءٍ تزحف على مسطرة زمنٍ عملاقةٍ، كلّ ما هو قبل وبعد تلك البقعة يقع في ظلام الماضي الميّت أو المستقبل المجهول.**

نحن محظوظون بشكلٍ غير عاديٍّ لنجد أنفسنا داخل بقعة الضوء تلك، مهما كان زمن وجودنا ضئيلًا تحت الشمس، ولو ضيّعنا ثانيةً منه مدّعين الفراغ

(كالأطفال) أو الملل، فإننا نرتكب ظلمًا كبيرًا بحقّ كلّ هٰؤلاء البليارت من الّذين لن يحصلوا على الحياة أساسًا.

العديد من الملحدين قالوها بأفضل ممّا قلتها أنا، أنّ معرفتنا بأنّنا نملك حياةً واحدةً فقط، يجعلها أعظم قيمةً. إنّ وجهة النظر الإلحاديّة داعمةٌ للحياة ومعزّزةٌ لها، كما كتبت آميلي ديكنسون:

«لأنّ كلّ لحظةٍ فيها لا تعود هٰذا ما يجعلها بهٰذه الروعة»[1]

أقول: أيّها القارئ الكريم، هل رأيت في حياتك أسلوبًا مفبركًا لخداع النفس، وتضليل الآخرين كهٰذا الأسلوب، من أجل إضفاء قيمةٍ ما لحياة الملحد الفاقدة للمعنى، فلنتأمّل فيما قاله بالترتيب؛ لنكتشف ما فيه من التزييف والخداع:

أوّلًا: يقول على الرغم من ضآلة عمرنا في هٰذه الحياة الممتدّة في أفق الزمان، إلّا أنّنا أفضل حالًا من المعدومين الّذين لم تتيسّر لهم فرصة الوجود بعد العدم، وإنّنا إن لم نحسن استغلال هٰذا العمر القصير نكون قد ظلمنا بليارات البشر الّذين لم يتمكّنوا من الوجود بعد العدم.

ونحن نجيب عليه: بأنّه لا معنى لمقارنة الموجود مع المعدوم المطلق، الّذي ليس بشيءٍ على الإطلاق، أو تفضيله عليه، كما أنّه لا معنى لوقوع

(1) ص 367.

الظلم على المعدومين في ظرف العدم، فكلّ هٰذا هذيانٌ لا معنى له. ولو توهّمنا أنّ للمعدوم نحوًا من الوجود والشيئيّة، كما يتوهّم الكثير من الملحدين، من أصدقاء السيّد دوكينز أمثال ستيفن هوكينج[1]، وسام هاريس[2]، فإنّ وجودنا يصبح خيرًا من عدمنا، إذا كانت الحياة الموهوبة لنا ذات معنى، وحقّقت الغاية منها، أمّا إذا نظرنا للحياة نظرةً مادّيّةً عبثيّةً، وجحدنا خالق الكون الحكيم، وأنكرنا النعم الإلٰهيّة، والنظام الأصلح الّذي كان في انتظارنا قبل مجيئنا، وأرجعنا كلّ شيءٍ إلى الطبيعة الصمّاء البكماء العمياء، وأهدرنا الكرامة الإنسانيّة، وتنكّرنا للعقل الإنسانيّ المجرّد، الّذي هو جوهر الحقيقة الإنسانيّة وشرفها، وأرجعناه إلى مجموعةٍ من التفاعلات الكيميائيّة، والنبضات الكهرومغناطيسيّة، فنكون في الواقع قد ارتكبنا أكبر خيانةٍ للحياة والإنسانيّة، وضيّعنا الأمانة الّتي وهبها الخالق لنا. ومن تحمّل المسؤوليّة ولم يحملها، فهو في الواقع أسوأ حالًا ممّن لم يحملها من الأساس، وحينئذٍ يحقّ له أن يقول بعد الموت وانكشاف الحقيقة **"ياليتني كنت ترابًا"**.

ثانيًا: إنّ قوله على لسان الملحدين إنّ الحياة الواحدة أعظم قيمةً من وجود حياتين ـ يقصد حياةً قبل الموت، وحياةً بعد الموت ـ ونقله مقطعًا

---

(1) راجع: التصميم العظيم.
(2) راجع: كونٌ من لا شيء.

شعريًّا للشاعرة الأمريكيّة أميلي ديكنسون (*Emily Elizabeth Dickinson*) بأنّ أروع ما في الحياة أنّ كلّ لحظةٍ فيها لا تعود، هو مجرّد هراءٍ وتناقضٍ؛ لأنّ الوجود الواحد إن كان كمالًا وامتيازًا للموجودين، وأفضل من العدم ـ كما يُقرّ هو بنفسه ـ فالوجود مرّتين أفضل من الوجود مرّةً واحدةً، وإذا كانت الحياة جميلةً، وأفضل من الموت، فإنّ الحياة بعد الحياة ـ الّتي تعني استمرار الحياة كما يقول المؤمنون ـ ستكون بلا شكٍّ أفضل من الموت بعد الحياة، والّتي تعني انقطاع الحياة وفناءها كما يزعم الملحدون.

أمّا قول الشاعرة الأمريكيّة، فلا شأن لنا به من حيث كونه شعرًا وخيالًا، فالشعر أعذبه أكذبه، ولٰكنّ هٰذا الكلام عن الحياة من الناحية المنطقيّة، بأنّ كلّ لحظةٍ فيها لا تعود يجعلها أكثر روعةً، فغير صحيحٍ على الإطلاق؛ إذ كيف يكون تصرّم الحياة وانقضاؤها الّذي يعني الموت التدريجيّ، وصيرورة الصحّة والشباب مرضًا وشيخوخةً، ومفارقة الأهل والأحباب؛ أمرًا في غاية الروعة؟! فهل هٰذا إلّا نحوٌ من الجنون، بل العاقل يدرك بكلّ سهولةٍ أنّ حياةً متصرّمةً زائلةً كهٰذه تصير إلى أفولٍ، لا يمكن أن تكون مطلوبةً لذاتها، بل هي مجرّد وسيلةٍ لغيرها، وإنّها ليست دار قرارٍ أو استقرارٍ؛ فاعتبروا يا أولي الأبصار.

وإلى هنا نسدل الستار على هٰذه المسرحيّة الهزليّة الطويلة، الّتي أسماها مخرجها (وهم الإله) معلنين نهايتها؛ ليتبيّن لنا بعد ذٰلك أنّها كانت مجرّد حلمٍ دار في مخيّلة إنسانٍ أراد أن يرتدي ثوبًا أطول بكثيرٍ من قامته

الحقيقيّة، وأن يمثّل دورًا أكبر بكثيرٍ من إمكاناته الفعليّة، فتوهّم في هٰذا الحلم الطويل أنّه قد حقّق غايته في إخراج الناس عن صراط الإنسانيّة، بمجرّد سرد مجموعة منوّعاتٍ من القصص والحكايات الدراميّة الّتي تُشكّل فصول هٰذه المسرحية... إلى أن جاء هٰذا الكتاب ليوقظه من منامه، ويوقظ من شاركه في أحلامه، مخاطبًا إيّاهم بنبرةٍ واضحةٍ لعقولهم وضمائرهم.. انهضوا من سباتكم العميق، وأبصروا الطريق قبل فوات الأوان وانقطاع الآمال؛ فإنّ الحقيقة غير الخيال.

المصادر

1. إدوارد ي بونو، تعليم التفكير، دار الرضا للنشر والتوزيع، ط 1، 2001 م.
2. تشارلز داروين، أصل الأنواع، ترجمة مجدي محمود المليجي، المجلس الأعلى للثقافة، ط 1، مصر، 2004.
3. توما الأكويني، الخلاصة اللاهوتية، الخوري بولس عواد، بيروت، 1887.
4. جون كلوفر، الله في عصر العلم، ترجمة الدمرداش سرحان، دار القلم، بيروت.
5. الحسين بن عبد الله بن سينا، النفس من كتاب الشفاء، تحقيق حسن زاده آملي، مكتب الإعلام الإسلامي، إيران، 1417 ه ق.
6. ستيفن هوكنج، التصميم العظيم، ترجمة أيمن عياد، دار التنوير لطباعة والنشر، ط 1، 2013 م.
7. ستيفن هوكينج، تاريخٌ موجزٌ للزمان، ترجمة مصطفى فهمي، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 2006 م.

8. عمرو شريف، رحلة عقلٍ، مكتبة الشروق، مكتبة الشروق الدوليّة، 2011 م.
9. عمرو شريف، وهم الإلحاد، الأزهر، القاهرة، 1435 هـ.
10. لورانس كراوس، كونٌ من لا شيء، ترجمة غادة الحلوانيّ، منشورات الرمل، ط 1، 2015، مصر.
11. مايرون فاغان، مخطّط المتنوّرين، ترجمة علاء الحلبي، sykogene.com، سوريا.

المصادر الأجنبيّة

1. *Antony Flew, there is a god, Harper Collins e_ books 1995;34 (1) :17_3*
2. *Autobiography of Charles Darwin, Nora Barlow, Collins press, London, 1958, p92_93*
3. *Harris RC, Dew MA, Lee A, Amaya M, Buches L, Reetz D, Coleman C. The role of religion in heart_transplant recipients› long_term health and well_being. Journal of Religion and Health.*
4. *Made in America, Vivek Datta, MD, MPH, December 1, 2014 magazine*
5. *Paul c. Vitz, faith of fatherless, Paperback, April1,2000*

6. *Strawbridge WJ, Cohen RD, Shema SJ, Kaplan GA. Frequent attendances at religious services and mortality over 28 years. Am. J Public Health. 1997;87:957_961.*

7. Yates JW, Chalmer BJ, St James P, Follansbee M, McKegney FP. Religion in patients with advanced cancer. Med Pediatr Oncol. 1981; 9: 121_128.

مؤسسة الدليل للدراسات والبحوث العقدية

التابعة للعتبة الحسينيّة المقدّسة

مؤسّسةٌ تحقيقيّةٌ تعليميّةٌ تعنى بالدراسات والبحوث الفكريّة العقديّة، انطلاقًا من إيمانها الراسخ بالعقيدة الإسلاميّة المتمثّلة بفكر أهل البيت عليهم السلام.

تعتمد مؤسّسة الدليل استراتيجيّةً مدروسةً وضمن معايير علميّةٍ رصينةٍ في تأصيل العقيدة الحقّة، ومواجهة التحدّيات الفكريّة والمشاريع المغرضة الّتي تستهدف البنية العقديّة للمجتمع الإسلاميّ.

كما تهدف المؤسّسة إلى استقطاب الطاقات العلميّة المتخصّصة في الفكر والعقيدة، وتعمل على بناء كوادر مثقّفةٍ في هذا المجال؛ من أجل ضمان إدامة مشروعها واستمراره، وتنمية القدرة على مواجهة التغيّرات والتحدّيات الفكريّة الّتي تعصف بالمجتمع المسلم.

تعتمد المؤسّسة آليّاتٍ مختلفةً في الوصول إلى أهدافها، كتأليف الكتب وتحقيقها وكتابة الكراريس التثقيفيّة، وإصدارِ مجلّاتٍ تخصّصيّةٍ، وإقامة دوراتٍ تعليميّةٍ في التربية الفكريّة والرؤية العقديّة، وتسعى للتواصل مع المؤسّسات والشخصيّات ذات العلاقة.